أبو الفرج الأصفهاني

حكايات مختارة
من
كتاب الأغاني

اختارها وقدم لها

محمد على سعيد

الكتاب: حكايات مختارة من كتاب الأغاني.

الكاتب: أبو الفرج الأصفهاني

اختارها وقدم لها: مُحَمَّد على سعيد

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

الأصفهاني ، أبو الفرج
حكايات مختارة من كتاب الأغاني / أبو الفرج الأصفهاني، اختيار وتقديم: مُحَمَّد على سعيد.
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٧٦ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٢ – ٥٦٩ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٥٧٥ / ٢٠٢٢

حكايات مختارة

من

كتاب الأغاني



مقدمة

حكاية الأغاني

يروى أن الأصفهاني مكث خمسين سنة في تأليف هذا الكتاب، ولذلك لا عجب إذا ما قال عنه ابن خلدون: "وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني وهو من هو، كتابه في الأغاني، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم. وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم، في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها، وأنى له بها".

ترجم الذهبي في "سير أعلام النبلاء" لصاحب "الأغاني" فقال: "العلامة الإخباري أبو الفرج علي بن الحسين بن مُحَمَّد القرشي الأموي الأصبهاني الكاتب، مصنف كتاب الأغاني. يذكر أنه من ذرية الخليفة هشام بن عبد الملك. قاله مُحَمَّد بن إسحاق النديم، بل الصواب أنه من ولد مروان الحمار. كان بحرا في نقل الآداب.. وكان بصيرا بالأنساب وأيام العرب، جيد الشعر. قال أبو علي التنوخي: كان أبو الفرج يحفظ من الشعر والأخبار والأغاني والمسندات والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله، ويحفظ اللغة والنحو والمغازي. وله تصانيف عديدة، بعثها إلى صاحب الأندلس الأموي سرا، وجاءه الإنعام. وله نسب عبد شمس، ونسب بني شيبان، ونسب آل المهلب، جمعه للوزير المهلبي، وكان ملازمه، وله مقاتل الطالبيين، وكتاب أيام العرب، في خمسة أسفار.

والعجب أنه أموي شيعي. قال ابن أبي الفوارس: خلط قبل موته. قلت: لا بأس به. وكان وسخا زريا، وكانوا يتقون هجاءه.. مات في ذي الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة وله اثنتان وسبعون سنة".

وفي كتاب "ميزان الاعتدال" يقول الذهبي عنه: "كان إليه المنتهى في معرفة الأخبار وأيام الناس، والشعر والغناء والمحاضرات، يأتي بأعاجيب بحدثنا وأخبرنا. فكتب ما لا يوصف كثرة حتى لقد اتهم. والظاهر أنه صدوق". فالذهبي يرى أن الأصفهاني صدوق في روايته، لا بأس به، أي أن روايته مقبولة، ولا يكذب، ولا يعلم فيه جرحا يثلب روايته سوى رواية واحدة تقول إنه اختلط قبل أن يموت. أما ابن الجوزي العلامة الشهير فقد أساء القول في الأصفهاني؛ فقال عنه "ومثله لا يوثق بروايته، فإنه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهون شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر". وعلى أن ما ذكره ابن الجوزي صحيح إلا أن ذلك لا يقدح في عدالة أبي الفرج الأصفهاني، ولا صدق روايته، فكتب التراث والأدب التي ألفها العلماء الأتقياء الثقات مليئة بروايات فيها "كل قبيح ومنكر"، وناقل الكفر ليس بكافر.

ويحتل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٢٨٤- ٣٦٢هـ) منزلة كبيرة بين كتب التراث العربي والإنساني، وهو من الكتب التي أخذت طابع العالمية، وترجمت نصوص منه وكتبت دراسات عنه بعدة لغات. ولا غنى لأي باحث في التراث والأدب عنه.

أهمية الكتاب

وصل الغناء أوجه في العصر العباسي الأول، ولمّا اكتمل هذا الفن ونضج، قام مجموعة من الورّاقين بوضع كتاب في الغناء ونسبوه إلى اسحق بن ابراهيم

الموصلي، ولكن كانت فائدته قليلة. ولذلك عُهِد إلى أبي الفرج الأصفهاني بتأليف كتاب في فنّ الغناء العربي ليخلّد فيه أصوله وأشهر ألحانه، وكان هذا باعثه لتأليف الأغاني.

وقد صدّره الأصفهاني بذكر المائة صوت للرشيد، ولم يكن هذا محتواه الوحيد، بل أتبعها الأصفهاني بثروة ضخمة من العلم والمعرفة من خلال اتّباعه منه الاستطراد، فهو يتحدث عن الصوت المختار، ثم الشعر المرتبط به، ثم مناسبة الأشعار، ويستطرد في ذكر المناسبة، وقد يذكر ممن خلالها الأنساب، وأخبار القبائل والفتن الطائفيّة، وحياة البادية وعاداتها وتقاليدها. بالإضافة إلى حياة الحضر وما فيها من قصر وبذخ وعادات أهلها واحتفالاتهم، وبهذا يكون قد توغّل في دروب المجتمع، وصوّره من خلال ما عرضه من وصف قصصي ونوادر وأخبار.

وكانت فكرة الأصفهاني تأليف كتاب الأغاني، وفق منهج يتفق والغناء مادة الكتاب الأساسية، فكان على طرائق الغناء، وطبقات المغنيين في أزمانهم ومراتبهم، بيد أنه لم يعمل بهذه الفكرة، وترك منهجه على ما هو عليه، محتجًّا بما يأتي: الأصوات المختارة في كتاب الأغاني تجري على غير ترتيب زمني محدد للشعراء والمغنيين، والغرض من الكتاب ذكر الأغاني بأخبارها لا كتاب طبقات فتصنيف الكتاب وفقًا لطبقات المغنيين، يجعل من الكتاب حشوًا وسردًا مملا لأخبار المغني، وهذا مما رفضه المصنفون والرواة، ومخالفًا لما عُرف عن الأصفهاني من فكه مجلسه، وخفة ظله، وتنوّع أحاديثه الشائقة.

مولده ونشأته

ولد في مدينة أصبهان عام ٢٨٤ هـ الموافق ٨٩٧م، في خلافة المعتضد بالله ابى العباس احمد بن الموفق ومن هنا لحقته النسبة إلى هذه المدينة، مع أنه لم ينشأ

بها، وإنما نشأ في مدينة بغداد وجعلها موطنا له، حتى إن داره التي كان يسكنها ببغداد معروفة، ونص على أنها واقعة على نهر دجلة في المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة، وهي ملاصقة لدار الوزير أبي الفتح البريدي.

لقد نشأ أبو الفرج في بغداد بعد تركه أصفهان وأخذ العلم عن أعلامها، وكانت بغداد إذ ذاك قرارة العلم والعلماء ومثابة الأدب والأدباء ومهوى أفئدة الذين يرغبون في الإلمام بالثقافة أو يودون التخصص في فروعها.

وروى عن علماء كثيرين يطول تعدادهم، وسمع من جماعة لا يحصون ومنهم ابن دريد إمام عصره في اللغة والأدب والشعر، والفضل بن الحباب الجمحي، والأخفش العالم النحوي الكبير، والأنباري، والطبري، ومُحَمَّد بن خلف بن المرزبان، وقدامة بن جعفر وآخرون.

وقد أخذ أبو الفرج نفسه بالجدِ في طلب العلم فنبغ وتفوق، وكان لهُ من توقد ذكائهِ وسرعة حفظهِ وشغفهِ بالمعرفة ما مكن لهُ من ناحية التفوق وذلل له من شماس النبوغ وجعله ينهض بتأليف كتاب الأغاني، ولما بلغ الثلاثين من عمره، فإذا ما بلغها أو جاوزها بعام أو ببعض عام ألف كتابه مقاتل الطالبيين.

وقد قدر له ان يعرف شابا من لداته يهيم بالمجد مثله ويبتغي إليه الوسيلة بالقوة في العلم والأدب، وهو الحسن بن مُحَمَّد المهلبي، وتظهرهما المعرفة على ما بينهما من التمازج النفسي والالتقاء الكثير في الإرادات والاختيارات والشهوات فتوثق بينهما صداقة عقلية ومؤاخاة روحية، ستظل قوية العرى مستحصدة العلائق ابدا.

وكان أبو الفرج ذا شخصية متعددة الجوانب كثيرة المعارف. ويكفينا للتعريف بشخصيته ما قاله القاضي التنوخي فيه: «ومن الرواة المتسعين الذين

شاهدناهم أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني فإنه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والحديث المسند والنسب، ما لم أر قط من يحفظ مثله! وكان شديد الاختصاص بهذه الأشياء، ويحفظ دون ما يحفظ منها علوما أخر، منها: اللغة، والنحو، والخرافات، والسير، والمغازي، ومن آلة المنادمة شيئا كثيرا مثل علم الجوارح والبيطرة ونتفا من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك».

وفيما يلي من صفحات يجد القارىء ثلاثين حكاية مختارة مما أورده الأصفهاني في كتابه، تقدمها "وكالة الصحافة العربية – ناشرون" للقارىء العربي ليس لتغنيه عن قراءة الكتاب الأصلي، بل لتدعوه إلى أن يمنح وقته وجهده لسفر كبير مفيد من أهم أسفار التراث العربي.

مُحَّد على سعيد

١
ذكر المائة الصوت المختارة

الرشيد يأمر المغنين باختيار ثلاثة أصوات

أخبرنا أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي أن أباه أخبره أن الرشيد رحمة الله عليه أمر المغنين وهم يومئذ متوافرون أن يختاروا له ثلاثة أصوات من جميع الغناء فأجمعوا على ثلاثة أصوات أنا أذكرها بعد هذا إن شاء الله قال إسحاق فجرى هذا الحديث يوما وأنا عند أمير المؤمنين الواثق بالله فأمرني باختيار أصوات من الغناء القديم فاخترت له من غناء أهل كل عصر ما اجتمع علماؤهم على براعته وإحكام صنعته ونسبته إلى من شدا به ثم نظرت إلى ما أحدث الناس بعد ممن شاهدناه في عصرنا وقبيل ذلك فاجتبيت منه ما كان مشبها لما تقدم أو سالكا طريقه فذكرته ولم أبخسه ما يجب له وإن كان قريب العهد لأن الناس قد يتنازعون الصوت في كل حين وزمان وإن كان السبق للقدماء إلى كل إحسان.

وأخبرني أحمد بن جعفر جحظة قال حدثني هارون بن الحسن بن سهل وأبو العبيس بن حمدون وابن دقاق وهو مُحَمَّد بن أحمد بن يحيى المعروف بابن دقاق بهذا الخبر فزعم أن الرشيد أمر هؤلاء المغنين أن يختاروا له مائة صوت فاختاروها ثم أمرهم باختيار عشرة منها فاختاروها ثم أمرهم أن يختاروا منها ثلاثة ففعلوا.

المغنون يختارون لحن ابن محرز

أخبرني الحسن بن علي الأدمي قال حدثنا مُحَمَّد بن القاسم بن مَهْرُويه قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد الوراق قال حدثني أبو توبة صالح بن مُحَمَّد قال

حدثني مُحَمَّد بن جبر المغني قال حدثني إبراهيم بن المهدي أن الرشيد أمر المغنين أن يختاروا له أحسن صوت غُنِّيَ فيه فاختاروا له لحن ابن مُحرز في شعر نُصَيب (أهاج هواك المنزل المتقادمُ ...) قال وفيه دور كثير أي صنعة كثيرة والذي ذكره أبو أحمد يحيى بن علي أصح عندي ويدل على ذلك تباين ما بين الأصوات التي ذكرها والأصوات الأُخر في جودة الصنعة وإتقانها وإحكام مباديها ومقاطعها وما فيها من العمل وأن الأخرى ليست مثلها ولا قريبة منها.

ذكر معبد وبعض أخباره

هو معبد بن وهب وقيل ابن قطني مولى ابن قطر وقيل ابن قطن مولى العاص بن وابصة المخزومي وقيل بل مولى معاوية بن أبي سفيان أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني عبد الرحمن بن عبد الله الزهري قال معبد المغني ابن وهب مولى عبد الرحمن بن قطر وأخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه قال قال ابن الكلبي معبد مولى ابن قطر والقطريون موالي معاوية بن أبي سفيان وأخبرني إسماعيل بن يونس قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثنا أبو غسان قال معبد بن وهب مولى ابن قطن وهم موالي آل وابصة من بني مخزوم وكان أبوه أسود وكان هو خلاسيا مديد القامة أحول. وذكر ابن خُرْداذبه أنه غنى في أول دولة بني أمية وأدرك دولة بني العباس وقد أصابه الفالج وارتعش وبطل فكان إذا غنى يضحك منه ويهزأ به وابن خُرْدَاذْبَه قليل التصحيح لما يرويه ويضمنه كتبه والصحيح أن معبدا مات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده وقد قيل إنه أصابه الفالج قبل موته وارتعش وبطل صوته فأما إدراكه دولة بني العباس فلم يروه أحد سوى ابن خُرْدَاذْبه ولا قاله ولا رواه عن أحد وإنما جاء به مجازفة.

سلامة القس ترثي معبدا

أخبرني مُحَمَّد بن العباس اليزيدي قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثني أيوب ابن عمر أبو سلمة المديني قال حدثنا عبد الله بن عمران بن أبي فروة قال حدثني كردم بن معبد المغني مولى ابن قطن قال مات أبي وهو في عسكر الوليد بن يزيد وأنا معه فنظرت حين أُخْرِجَ نعشه إلى سلامة القس جارية يزيد بن عبد الملك وقد أضرب الناس عنه ينظرون إليها وهي آخذة بعمود السرير وهي تبكي أبي وتقول:

قـــد لَعَمْـــرِي بِـــتُّ لَيْلـــي ... كـــأخي الـــدّاءِ الوَجيـــعِ

ونَجِـــــيُّ الهَـــــمِّ مـــــنّي ... بات أدنى مـــــن ضَـــــجيعِي

كُلَّمـــــا أبصـــــرتُ ربعـــــاً ... خاليـــــاً فاضـــــتْ دمـــــوعي

قـــد خَـــلاَ مـــن سَـــيِّدٍ كـــان ... لنـــــا غـــــيرَ مُضِـــــيعِ

لا تَلُمْنـــــا إن خَشَـــــعْنا ... أو هَمَمْنـــــا بخُشُـــــوع

قال كردم وكان يزيد أمر أبي أن يعلمها هذا الصوت فعلمها إياه فندبته به يومئذ قال فلقد رأيت الوليد بن يزيد والغمر أخاه متجردين في قميصين ورداءين يمشيان بين يدي سريره حتى أخرج من دار الوليد لأنه تولى أمره وأخرجه من داره إلى موضع قبره.

معبد أمير الغناء

قال إسحاق كان معبد من أحسن الناس غناء وأجودهم صنعة وأحسنهم حلقا وهو فحل المغنين وإمام أهل المدينة في الغناء وأخذ عن سائب خاثر ونشيط مولى عبد الله بن جعفر وعن جميلة مولاة بهز بطن من سليم وكان زوجها

مولى لبني الحارث بن الخزرج فقيل لها مولاة الأنصار لذلك وفي معبد يقول الشاعر:

أجـــاد طُـــوَيْسٌ والسُّـــرَيْجِيُّ بعـــدَه   ومـــا قَصَـــبَاتُ السَّـــبْقِ إلا لمَعْبَـــدِ

قال إسحاق قال ابن الكلبي عن أبيه كان ابن أبي عتيق خرج إلى مكة فجاء معه ابن سريج إلى المدينة فأسمعوه غناء معبد وهو غلام وذلك في أيام مسلم بن عقبة المري وقالوا ما تقول فيه فقال إن عاش كان مغني بلاده ولمعبد صنعة لم يسبقه إليها من تقدم ولا زاد عليه فيها من تأخر وكانت صناعته التجارة في أكثر أيام رقه وربما رعى الغنم لمواليه وهو مع ذلك يختلف إلى نشيط الفارسي وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر حتى اشتهر بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت وصنع الألحان فأجاد واعترف له بالتقدم على أهل عصره

قال إسحاق وبلغني أن معبدا أتى ابن سريج وابن سريج لا يعرفه فسمع منه ما شاء ثم عرض نفسه عليه وغناه وقال له كيف كنت تسمع جعلت فداءك فقال له لو شئت كنت قد كفيت بنفسك الطلب من غيرك قال وسمعت من لا أحصي من أهل العلم بالغناء يقولون لم يكن فيمن غنى أحد أعلم بالغناء من معبد قال وحدثني أيوب بن عباية قال دخلت على الحسن بن مسلم أبي العراقيب وعنده جاريته عاتكة فتحدث فذكر معبدا فقال أدركته يلبس ثوبين ممشقين وكان إذا غنى علا منخراه فقالت عاتكة يا سيدي أو أدركت معبدا قال إي والله وأقدم من معبد فقالت استحييت لك من هذا الكبر.

أخبرني الحسين بن يحيى قال نسخت من كتاب حماد قرأت على أبي أخبرني محمد بن سلام قال حدثني جرير قال قال معبد قدمت مكة فقيل لي إن ابن صفوان قد سبق بين المغنين جائزة فأتيت بابه فطلبت الدخول فقال لي آذنه قد تقدم إلي ألا آذن لأحد عليه ولا أؤذنه به قال فقلت دعني أدنو من الباب

فأغني صوتا قال أما هذا فنعم فدنوت من الباب فغنيت صوتا فقالوا معبد وفتحوا لي فأخذت الجائزة يومئذ.

كيف يغني معبد

قال إسحاق قيل لمعبد كيف تصنع إذا أردت أن تصوغ الغناء قال أرتحل قعودي وأوقع بالقضيب على رحلي وأترنم عليه بالشعر حتى يستوي لي الصوت فقيل له ما أبين ذلك في غنائك، قال معبد كنت غلاما مملوكا لآل قطن مولى بني مخزوم وكنت أتلقى الغنم بظهر الحرة وكانوا تجارا أعالج لهم التجارة في ذلك فآتي صخرة بالحرة ملقاة بالليل فأستند إليها فأسمع وأنا نائم صوتا يجري في مسامعي فأقوم من النوم فأحكيه فهذا كان مبدأ غنائي.

أخبرني الحسين بن يحيى قال نسخت من كتاب حماد قال أبي قال مُحَمَّد بن سعيد الدوسي عن أبيه ومُحَمَّد بن يزيد عن سعيد الدوسي عن الربيع بن أبي الهيثم قال كنا جلوسا مع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقال إنسان لمالك أنشدك الله أنت أحسن غناء أم معبد فقال مالك والله ما بلغت شراكه قط والله لو لم يغن معبد إلا قوله:

لَعَمْـــرُ أبيهـــا لا تقـــولُ حَلِيلَـــتي ... ألاَ فَـرَّ عَـنِّي مالـكُ بـن أبي كَعْـبِ

وهُـمْ يضـرِبون الكـبْشَ تَبْـرُقُ بيضُـه ... تَـرَى حَوْلَـه الأبطـالَ في حَلَـقٍ شُـهْبِ

لكان حسبه قال وكان مالك إذا غنى غناء معبد يخفف منه ثم يقول أطال الشعر معبد ومطله وحذفته أنا وتمام هذا الصوت.

٢

أخبار مجنون بني عامر ونسبه

هو على ما يقول من صحح نسبه وحديثه قيس وقيل مهدي والصحيح أنه قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة..

ومن الدليل على أن اسمه قيس قول ليلى صاحبته فيه:

ألا ليتَ شِعْرِي والخطوبُ كثيرةٌ　　　متى رَحْلُ قَيْسٍ مُستِقلٌ فراجعُ

وأخبرني الحسن بن علي قال حدثنا أحمد بن زهير قال سمعت من لا أحصي يقول اسم المجنون قيس بن الملوح، وأخبرني هاشم بن مُحَمَّد الخزاعي قال حدثنا الرياشي وأخبرني الجوهري عن عمر بن شبة أنهما سمعا الآصمعي يقول وقد سئل عنه لم يكن مجنونا ولكن كانت به لوثة كلوثة أبي حية النميري.

اختلاف الرواة في وجود قيس وجنونه

وأخبرني حبيب ابن نصر المهلبي وأحمد بن عبد عزيز الجوهري عن ابن شبة عن الحزامي قال حدثني أيوب بن عباية قال سألت بني عامر بطنا بطنا عن مجنون بني عامر فما وجدت أحدا يعرفه.

وأخبرني عمي قال حدثنا أحمد بن الحارث عن المدائني عن ابن دأب قال قلت لرجل من بني عامر أتعرف المجنون وتروي من شعره شيئا قال أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين إنهم لكثير فقلت ليس هؤلاء أعني

إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق فقال هيهات بنو عامر أغلظ أكبادا من ذاك إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعاف قلوبها السخيفة عقولها الصعلة رؤوسها فأما نزار فلا.

أخبرني هاشم بن مُحَمَّد قال حدثنا الرياشي قال سمعت الآصمعي يقول رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا بالاسم مجنون بني عامر وابن القرية وإنما وضعهما الرواة .

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال حدثنا أبو سعيد السكري قال حدثنا إسماعيل بن مجمع عن المدائني قال المجنون المشهور بالشعر عند الناس صاحب ليلى قيس بن معاذ من بني عامر ثم من بني عقيل أحد بني نمير بن عامر ابن عقيل قال ومنهم رجل آخر يقال له مهدي بن الملوح من بنى جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

وأخبرني عمي عن الكراني قال حدثنا ابن أبي سعد عن علي بن الصباح عن ابن الكلبي قال حدثت أن حديث المجنون وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يرويها الناس للمجنون ونسبها إليه.

أخبرني الحسين بن يحيى وأبو الحسن الأسدي قال حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه قال اسم المجنون قيس بن معاذ أحد بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

اختلاف الآراء حول اسم المجنون

وأخبرني أبو سعد الحسن بن علي بن زكريا العدوي قال حدثنا حماد بن طالوت بن عباد أنه سأل الآصمعي عنه فقال لم يكن مجنونا بل كانت به لوثة

أحدثها العشق فيه كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليلى واسمه قيس بن معاذ وذكر عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه أن اسمه قيس بن معاذ وذكر شعيب بن السكن عن يونس النحوي أن اسمه قيس بن الملوح قال أبو عمرو الشيباني وحدثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقيه وسأله عن اسمه ونسبه فذكر أنه قيس بن الملوح وذكر إبراهيم بن المنذر الحزامي وأبو عبيدة معمر بن المثنى أن اسمه البحتري بن الجعد وذكر مصعب الزبيري والرياشي وأبو العالية أن اسمه الأقرع بن معاذ وقال خالد بن كلثوم اسمه مهدي بن الملوح. وأخبرني الأخفش عن السكري عن أبي زياد الكلابي قال ليلى صاحبة المجنون هي ليلى بنت سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة وأخبرني مُحَمَّد بن خلف وكيع قال حدثنا أبو قلابة الرقاشي قال حدثني عبد الصمد بن المعدل قال سمعت الأصمعي وقد تذاكرنا مجنون بني عامر يقول لم يكن مجنونا وإنما كانت به لوثة. وقال الأصمعي سألت أعرابيا من بني عامر بن صعصعة عن المجنون العامري فقال عن أيهم تسألني فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون فعن أيهم تسأل فقلت عن الذي كان يشبب بليلى فقال كلهم كان يشبب بليلى.

إنكار وجود المجنون

وأخبرني عمي عن الكوراني عن العمري عن العتبي عن عوانة أنه قال المجنون اسم مستعار لا حقيقة له وليس له في بني عامر أصل ولا نسب فسئل من قال هذه الأشعار فقال فتى من بني أمية وقال الجاحظ ما ترك الناس شعرا مجهول القائل قيل في ليلى إلا نسبوه إلى المجنون ولا شعرا هذه سبيله قيل في لبنى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح.

وأخبرني مُحَمَّد بن خلف وكيع قال حدثنا هارون بن مُحَمَّد بن عبد الملك قال

حدثني أبو أيوب المديني قال حدثني الحكم بن صالح قال قيل لرجل من بني عامر هل تعرفون فيكم المجنون الذي قتله العشق فقال هذا باطل إنما يقتل العشق هذه اليمانية الضعاف القلوب.

أخبرنا أحمد بن عمر بن موسى قال حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي قال حدثني أيوب بن عباية قال حدثني من سأل بني عامر بطنا بطنا عن المجنون فما وجد فيهم أحدا يعرفه.

أخبرني مُحَمَّد بن مزيد بن أبي الأزهر قال حدثنا أحمد بن الحارث عن ابن الأعرابي أنه ذكر عن جماعة من بن عامر أنهم سئلوا عن المجنون فلم يعرفوه وذكروا أن هذا الشعر كله مولد عليه.

أخبرني أبو الحسن الأسدي قال حدثنا الرياشي قال سمعت الأصمعي يقول الذي ألقي على المجنون من الشعر وأضيف أليه أكثر مما قاله هو.

العاشقان الصغيران ليلى والمجنون

فممن أخبرني بخبره أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبي قالا حدثنا عمر بن شبة عن رجاله وإبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة ونسخت أخباره من رواية خالد بن كلثوم وأبي عمرو الشيباني وابن دأب وهشام بن مُحَمَّد الكلبي وإسحاق بن الجصاص وغيرهم من الرواة.

وقال أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة كان المجنون يهوى ليلى بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك وهما حينئذ صبيان فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلهما فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه قال ويدل على ذلك قوله:

تَعَلّقــتُ لَيْلَــى وهــي ذاتُ ذُؤَابــةٍ ولم يَبْـدُ للأتـراب مـن ثَـدْيِها حجـمُ

صـغيرَيْن نَرعَـى الـبَهْمَ ياليـتَ أننـا إلى اليـوم لم نَكْبَـرْ ولم تَكْبَرِ الـبَهْمُ

في هذين البيتين للأخضر الجدي لحن من الثقيل الثاني بالوسطى ذكره هارون بن مُحَمَّد بن عبد الملك الزيات والهشامي.

أخبرنا الحسين بن يحيى عن حماد بن إسحاق عن أبيه عن أيوب بن عباية ونسخت هذا الخبر بعينه من خط هارون بن مُحَمَّد بن عبد الملك الزيات قال حدثنا عبد الله بن عمرو بن أبي سعد قال حدثنا الحسن بن علي قال حدثني أبو عتاب البصري عن إبراهيم بن مُحَمَّد الشافعي قال بينا ابن مليكة يؤذن إذ سمع الأخضر الجدي يغني من دار العاص بن وائل :

وعُلِّقتُهـــا غَـــرَّاءَ ذاتَ ذوائـــبٍ ولم يَبـدُ للأتـراب مـن ثـديها حجـمُ

صـغيرينِ نرعـى الـبَهْمَ ياليـتَ أننـا إلى اليـوم لم نكْبَـرْ ولم تَكـبر الـبَهمُ

قال فأراد أن يقول حي على الصلاة فقال حي على البهم حتى سمعه أهل مكة فغدا يعتذر إليهم وقال ابن الكلبي حدثني معروف المكي والمعلى بن هلال وإسحاق بن الجصاص قالوا كان سبب عشق المجنون ليلى أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حلل الملوك فمر بامرأة من قومه يقال لها كريمة وعندها جماعة نسوة يتحدثن فيهن ليلى فأعجبهن جماله وكماله فدعونه إلى النزول والحديث فنزل وجعل يحدثهن وأمر عبدا له كان معه فعقر لهن ناقته وظل يحدثهن بقية يومه فبينا هو كذلك إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برد الأعراب يقال له منازل يسوق معزى له فلما رأينه أقبلن عليه وتركن المجنون فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول:

أأعقِــرُ مِــنْ جَــرَّا كَرِيمَــةَ ناقَــتِي وَوَصْــلِيَ مَفْــروشٌ لِوَصْــلِ مُنَــازِلِ

إذا جــاء قَعْقَعْــنَ الحُلــيَّ ولم أكُــنْ إذا جئتُ أرضَى صوتَ تلكَ الخلاخِلِ

مــتى مــا انتضَــلْنا بالسِّــهام نَضَــلتُه وإن نَــرْمِ رَشْــقاً عنــدها فهــو ناضِــلي

قال فلما أصبح لبس حلته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضا لهن فألفى ليلى قاعدة بفناء بيتها وقد علق حبه بقلبها وهويته وعندها جويريات يتحدثن معها فوقف بهن وسلم فدعونه إلى النزول وقلن له هل لك في محادثة من لا يشغله عنك منازل ولا غيره فقال إي لعمري فنزل وفعل مثل ما فعله بالأمس فأرادت أن تعلم هل لها عنده مثل ما له عندها فجعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره وقد كان علق بقلبه مثل حبها إياه وشغفته واستملحها فبينا هي تحدثه إذا أقبل فتى من الحي فدعته وسارته سرارا طويلا ثم قالت له انصرف ونظرت إلى وجه المجنون قد تغير وانتقع لونه وشق عليه فعلها فأنشأت تقول :

كــلانا مُظهــرٌ للنــاس بغضــاً وكــلٌ عنــدَ صــاحبهِ مَكِــينُ

تُبلِّغُنَــا العيــونُ بمــا أردنا وفي القلبــين ثَمَّ هَــوىً دَفِــينُ

فلما سمع البيتين شهق شهقة شديدة وأغمي عليه فمكث على ذلك ساعة ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ .

المجنون يخطب ليلى وأهلها يزوجونها وردا

أخبرني الحسن بن علي قال حدثني هارون بن محمد بن عبدالملك قال حدثني عبد الرحمن بن إبراهيم عن هشام بن محمد بن موسى المكي عن محمد بن سعيد

المخزومي عن أبي الهيثم العقيلي قال لما شهر أمر المجنون وليلى وتناشد الناس شعره فيها خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء وخطبها ورد بن مُحَمَّد العقيلي وبذل لها عشرا من الأبل وراعيها فقال أهلها نحن مخيروها بينكما فمن اختارت تزوجته ودخلوا إليها فقالوا والله لئن لم تختاري وردا لنمثلن بك فقال المجنون:

ألا يا لَيْـــــلَ إن مُلِّكْـــــتِ فينـــــا   خِيـــارَكِ فـــانظُرِي لِمَـــن الخِيـــارُ

ولا تَسْـــــتَبْدِلِي مـــــنّي دَنيّـــــاً   ولا بَرَمـــــاً إذا حُـــــبَّ القُتَـــــارُ

يُهَـــــرْوِلُ في الصـــــغير إذا رآه   وتُعجِـــــزُه مُلِمَّـــــاتٌ كِبَـــــارُ

فمثـــــلُ تأيُّم منـــــه نكـــــاحٌ   ومثـــــلُ تَمَـــــوُّلٍ منـــــه افتِقَـــــارُ

فاختارت وردا فتزوجته على كره منها.

وأخبرني أحمد بن عبد العزيز وحبيب بن نصر قالا حدثنا عمر بن شبة قال ذكر الهيثم بن عدي عن عثمان بن عمارة بن حريم المري قال خرجت إلى أرض بني عامر لألقى المجنون فدللت عليه وعلى محلته فلقيت أباه شيخا كبيرا وحوله إخوة للمجنون مع أبيهم رجالا فسألتهم عنه فبكوه وقال الشيخ أما والله لهو كان آثر عندي من هؤلاء جميعا وإنه عشق امرأة من قومه والله ما كانت تطمع في مثله فلما فشا أمره وأمرها كره أبوها أن يزوجه إياها بعد ما ظهر من أمرهما فزوجها غيره وكان أول ما كلف بها يجلس إليها في نفر من قومها فيتحدثون كما يتحدث الفتيان وكان أجملهم وأظرفهم وأرواهم لأشعار العرب فيفيضون في الحديث فيكون أحسنهم فيه إفاضة فتعرض عنه وتقبل على غيره وقد وقع له في قلبها مثل ما وقع لها في قلبه فظنت به ما هو عليه من حبها فأقبلت عليه يوما وقد خلت فقالت:

كِــلانا مُظهِـــرٌ للنـــاس بغضـــاً وكـــلٌ عنـــد صـــاحبه مَكِـــينُ

وأســـرارُ المَلاَحِـــظِ لـــيس تَخْفَـــى إذا نَطَقَـــتْ بمـــا تُخْفِـــي العيـــونُ

غنت في الأول عريب خفيف رمل وقيل إن هذا الغناء لشارية والبيت الأخير ليس من شعره قال فخر مغشيا عليه ثم أفاق فاقدا عقله فكان لا يلبس ثوبا إلا خرقه ولا يمشي إلا عاريا ويلعب بالتراب ويجمع العظام حوله فإذا ذكرت له ليلى أنشأ يحدث عنها عاقلا ولا يخطيء حرفا وترك الصلاة فإذا قيل له مالك لا تصلي لم يرد حرفا وكنا نحبسه ونقيده فيعض لسانه وشفته حتى خشينا عليه فخلينا سبيله فهو يهيم.

المجنون في الحج اللهم زدني لليلى حبا

وأخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبي قالا حدثنا عمر بن شبة قال ذكر هشام ابن الكلبي ووافقه في روايته أبو نصر أحمد بن حاتم وأخبرنا الحسن بن علي حدثنا ابن أبي سعد قال حدثني علي بن الصباح عن هشام بن الكلبي عن أبيه.

أن أبا المجنون وأمه ورجال عشيرته اجتمعوا إلى أبي ليلى فوعظوه وناشدوه الله والرحم وقالوا له إن هذا الرجل لهالك وقبل ذلك ففي أقبح من الهلاك بذهاب عقله وإنك فاجع به أباه وأهله فنشدناك الله والرحم أن تفعل ذلك.

فوالله ما هي أشرف منه ولا لك مثل مال أبيه وقد حكمك في المهر وإن شئت أن يخلع نفسه إليك من ماله فعل فأبى وحلف بالله وبطلاق أمها إنه لا يزوجه إياها أبدا وقال أفضح نفسي وعشيرتي وآتي ما لم يأته أحد من العرب وأسم ابنتي بميسم فضيحة فانصرفوا عنه وخالفهم لوقته فزوجها رجلا من قومها وأدخلها إليه فما أمسى إلا وقد بنى بها وبلغه الخبر فأيس منها حينئذ وزال عقله

جملة فقال الحي لأبيه احجج به إلى مكة وادع الله عز و جل له ومره أن يتعلق بأستار الكعبة فيسأل الله أن يعافيه مما به ويبغضها إليه فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء فحج به أبوه فلما صاروا بمنى سمع صائحا في الليل يصيح يا ليلى فصرخ صرخة ظنوا أن نفسه قد تلفت وسقط مغشيا عليه فلم يزل كذلك حتى أصبح ثم أفاق حائل اللون ذاهلا فأنشأ يقول:

عَرَضتُ على قلبي العزاءَ فقال لي ... من الآنَ فايأسْ لا أعزّكَ مِن صَبْرِ

إذا بان مَنْ تَهوَى وأصبح نائياً ... فلا شيءَ أجدَى من حُلُولكَ في القبر

وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيْفِ مِن منًى ... فهيَّجَ أطرابَ الفؤاد وما يدرِي

دعا باسم ليلى غيرِهَا فكأنَّما ... أطاراً بليلى طائراً كان في صدرِي

دعا باسم ليلى ضلَّل اللهُ سعيَه ... وليلَى بأرضٍ عنه نازحةٍ قفرِ

خبر اتصال المجنون بليلى

قال وحدثني بعض العشيرة قال قلت لقيس بن الملوح قبل أن يخالط ما أعجب شيء أصابك في وجدك بليلى قال طرقنا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا لهم أدم فبعثني أبي إلى منزل أبي ليلى وقال لي اطلب لنا منه أدما فأتيته فوقفت على خبائه فصحت به فقال ما تشاء فقلت طرقنا ضيفان ولا أدم عندنا لهم فأرسلني أبي نطلب منك أدما فقال يا ليلى أخرجي إليه ذلك النحي فاملئي له إناءه من السمن فأخرجته ومعي قعب فجعلت تصب السمن فيه ونتحدث فألهانا الحديث وهي تصب السمن وقد امتلأ القعب ولا نعلم جميعا وهو يسيل حتى استنقعت أرجلنا في السمن قال فأتيتهم ليلة ثانية أطلب نارا وأنا متلفع ببرد لي فأخرجت لي نارا في عطبة فأعطتنيها ووقفنا نتحدث فلما

احترقت العطبة خرقت من بردي خرقة وجعلت النار فيها فكلما احترقت خرقت أخرى وأذكيت بها النار حتى لم يبق علي من البرد إلا ما وارى عورتي وما أعقل ما أصنع وأنشدني:

أمُسْـتَقْبِلي نَفْـحُ الصَّـبَا ثم شَـائقي ... ببَـــرْدِ ثَنَـــايَا أُمّ حَسّـــانَ شـــائِق

كـأنَّ علـى أنيابهـا الخمـرَ شَـجَّهَا ... بمـاء النـدى مـن آخـرِ الليـلِ عَـاتِقُ

ومـــا شِمْتُـــهُ إلا بعيـــني تَفَرُّســـاً ... كمـا شِـيم في أعلـى السّـحابةِ بَارِقٌ

هل جن قيس بن الملوح

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا مُحَمَّد بن طاهر القرشي عن ابن عائشة قال إنما سمي المجنون بقوله:

مـا بالُ قلبِـكَ يا مجنـونُ قـد خُلِعَـا ... في حـبِّ مَـنْ لا تَـرَى في نَيْلِـه طَمَعَـا

الحـبُّ والـودّ نِيطـا بالفـؤاد لهـا ... فأصـبحا في فـؤادِي ثابتَـيْنِ معَـا

قال قال الأصمعي لم يكن المجنون مجنونا إنما جننه العشق وأنشد له:

يُسَـمُّونني المجنـونَ حـين يَـرَوْنَنِي ... نعـم بِيَ مِـن ليلـى الغـداةَ جنـونُ

لَيَـالِيَ يُزْهَـى بِي شَـبَابٌ وشِـرَّةٌ ... وإذا بِي مِـنْ خَفْـضِ المَعيشـةِ لِـينُ

أخبرني مُحَمَّد بن المرزبان عن إسحاق بن مُحَمَّد بن أبان قال حدثني علي ابن سهل عن المدائنى أنه ذكر عنده مجنون بني عامر فقال لم يكن مجنونا وإنما قيل له المجنون بقوله:

وإِنّي لمجنـــونٌ بليلَـــى مُوَكَّـــلٌ ... ولسـتُ عَزُوفـاً عـن هواهـا ولا جَلْـدَا

إذا ذُكِـرَتْ ليلَـى بكيـتُ صَـبَابةً لِتَـذْكِارها حـتى يَبُـلَّ البُكَـا الخـدَّا

عون ابن عبد الله العامري أنه قال ما كان والله المجنون الذي تعزونه إلينا مجنونا إنما كانت به لوثة وسهو أحدثهما به حب ليلى وأنشد له:

وبي مِـنْ هـوى ليلَـى الـذي لـو أبُثُّـه جماعـةَ أعـدائِي بكـتْ لِي عُيونُهَـا

أَرى النفس عن ليلى أبتْ أن تُطِيعَني فقـد جُـنَّ مِـن وَجْدِي بليلَـى جُنونُهَا

قال العتبي إنما سمي المجنون بقوله:

يقـولُ أُناسٌ عَـلَّ مجنـونَ عـامرٍ يـرومُ سُـلُوًّا قلـتُ أَنىّ لِمَـا بِيَـا

وقـد لامـني في حُـبِّ ليلَـى أقـاربي أخِي وابنُ عمّي وابـنَ خـالِي وخالِيَا

يقولـون ليلَـى أهـلُ بيـتِ عَـدَاوةٍ بنفسـيَ ليلِـى مِـن عَـدُوٍّ ومالِيَـا

ولـو كـان في ليلـى شَـذاً مِـن خصومةٍ لَلَوَّيـتُ أعنـاقَ المَطِـيّ المَـلاوِيَا

قال ابن سلام لو حلفت أن مجنون بني عامر لم يكن مجنونا لصدقت ولكن توله لما زوجت ليلى وأيقن اليأس منها ألم تسمع إلى قوله:

أيا ويـحَ مَـنْ أمسـى تُخُلِّـسَ عَقلُـه فأصـبح مـذهوباً بـه كـلَّ مـذهبِ

خَلِيعـاَ مِـنَ الخُـلاَّنِ إلا مُجَـامِلا يُسـاعِدنِي مَـنْ كـان يَهْـوَى تَجَنُّـبِي

إذا ذُكِـرْت ليلَـى عَقَلـتُ وراجَعَـتْ عَـوازِبُ قلـبي مِـنْ هَـوىً مُتَشَـعِّبِ

قيس الهائم على وجهه

أخبرني هاشم الخزاعي عن العباس بن الفرج الرياشي قال:

ذكر العتبي عن أبيه قال كان المجنون في بدء أمره يرى ليلى ويألفها ويأنس

بها ثم غيبت عن ناظره فكان أهله يعزونه عنها ويقولون نزوجك أنفس جارية في عشيرتك فيأبى إلا ليلى ويهذي بها ويذكرها فكان ربما استراح إلى أمانيهم وركن إلى قولهم وكان ربما هاج عليه الحزن والهم فلا يملك مما هو فيه أن يهيم على وجهه وذلك قبل أن يتوحش مع البهائم في القفار فكان قومه يلومونه ويعذلونه فأكثروا عليه في الملامة والعذل يوما فقال:

يا لَلرِّجـــال لهـــمٍّ بات يَعْـــرُونِي مُســـتطرفٍ وقـــديمٍ كـــان يَعْنِيـــني

علـى غَـرِيمٍ مَلـيء غـيرِذي عُـدُمٍ يأبَى فيمْطُلُـــني دَيْـــنِي ويَلْـــوِينِي

لا يـذكُر الـبعضَ مـن دَيـنِي فَيُنكِـره ولا يُحَـــدِّثنِي أنْ ســـوف يَقْضِـــينِي

ومـا كَشُـكْرِي شُـكرٌ لـو يُـوافِقُني ولا مُـــنًى كَمُنَـــاهُ إذ يُمَنِّيـــنِي

أطعتُـه وعَصَـيتُ النـاسَ كُلَّهُـمُ في أمـــره ثم يأبَى فهـــو يَعْصِـــينِي

خَـيرِي لمـن يبتغِـي خـيري ويأمُلُـه مـن دون شَـرِّي وشَـرِّي غـيرُ مـأمونِ

ومـا أُشـارِكُ في رأيِـي أخـا ضَـعَفٍ ولا أقـولُ أخِـي مَـنْ لا يُـوَاتِينِي

وقال أبو عمرو الشيباني حدثني رباح العامري قال كان المجنون أول ما علق ليلى كثير الذكر لها والإتيان بالليل إليها والعرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان إلى الفتيات فلما علم أهلها بعشقه لها منعوه من إتيانها وتقدموا إليه فذهب لذلك عقله ويئس منه قومه واعتنوا بأمره واجتمعوا إليه ولاموه وعذلوه على ما يصنع بنفسه وقالوا والله ما هي لك بهذه الحال فلو تناسيتها رجونا أن تسلوا قليلا فقال لما سمع مقالتهم وقد غلب عليه البكاء:

فواكبِـدَا مِـن حـب مـن لا يُحِبّـنِي ومِـــن زَفَـــرَاتٍ مـــالهنَّ فَنَـــاءُ

أَرَيْتِكِ إن لم أُعطِكِ الحبَّ عن يدٍ ولم يكُ عندي إذ أبيْتِ إباءُ

أتارِكَتِي للموت أنتِ فميّتٌ وما للنفوس الخائفاتِ بَقَاءُ

ثم أقبل على القوم فقال إن الذي بي ليس بهيّن فأقلوا من ملامكم فلست بسامع فيها ولا مطيع لقول قائل أخبرني عمي ومُحَمَّد بن حبيب وابن المرزبان عن عبد الله بن أبي سعد عن عبد العزيز بن صالح عن أبيه عن ابن دأب عن رباح بن حبيب العامري أنه سأله عن حال المجنون وليلى فقال كانت ليلى من بني الحريش وهي بنت مهدي بن سعيد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش وكانت من أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن جسما وعقلا وأفضلهن أدبا وأملحهن شكلا وكان المجنون كلفا بمحادثة النساء صباًبهن فبلغه خبرها ونعتت له فصبا إليها وعزم على زيارتها فتأهب لذلك ولبس أفضل ثيابه ورجل جمته ومس طيبا كان عنده وارتحل ناقة له كريمة برحل حسن وتقلد سيفه وأتاها فسلم فردت عليه السلام وتحفت في المسألة وجلس إليها فحادثته وحادثها فأكثرا وكل واحد منهما مقبل على صاحبه معجب به فلم يزالا كذلك حتى أمسيا فانصرف إلى أهله فبات بأطول ليلة شوقا إليها حتى إذا أصبح عاد إليها فلم يزل عندها حتى أمسى ثم انصرف إلى أهله فبات بأطول من ليلته الأولى واجتهد أن يغمض فلم يقدر على ذلك فأنشأ يقول:

نَهارِي نهارُ الناسِ حتى إذا بدا ليَ الليلُ هَزَّتْني إليكِ المضاجعُ

أُقَضِّي نهارِي بالحديث وبالمُنَى ويَجمَعُنِي والهمَّ بالليلِ جامِعُ

لَقَد ثَبَتَتْ في القلب منكِ محبَّةٌ كما ثَبَتَتْ في الراحتينِ الأصابعُ

عروضه من الطويل والغناء لإبراهيم الموصلي رمل بالوسطى عن عمرو قال وأدام زيارتها وترك من كان يأتيه فيتحدث إليه غيرها وكان يأتيها في كل يوم فلا

يزال عندها نهاره أجمع حتى إذا أمسى انصرف فخرج ذات يوم يريد زيارتها فلما قرب من منزلها لقيته جارية عسراء فتطير منها وأنشأ يقول:

وكيف يُرَجَّى وصلُ لَيْلَى وقد جرى بِجَـدِّ القُـوَى والوصـلِ أعسـرُ حاسـرُ

صَدِيعُ العَصَا صَعْبُ المرام إذا انتحى لوصـلِ امرىءٍ جُـذَّت عليه الأواصِرُ

ثم سار إليها في غد فحدثها بقصته وطيرته ممن لقيه وأنه يخاف تغير عهدها وانتكاثه وبكى فقالت لا ترع حاش لله من تغير عهدي لا يكون والله ذلك أبدا إن شاء الله فلم يزل عندها يحادثها بقية يومه ووقع له في قلبها مثل ما وقع لهافي قلبه فجاءها يوما كما كان يجيء وأقبل يحدثها فأعرضت عنه وأقبلت على غيره بحديثها تريد بذلك محنته وأن تعلم ما في قلبه فلما رأى ذلك جزع جزعا شديدا حتى بان في وجهه وعرف فيه فلما خافت عليه أقبلت عليه كالمسرة إليه فقالت:

كِـــلاَنا مُظهـــرٌ للنـــاس بغضـــا وكـــلٌ عنـــد صـــاحبه مَكِـــينُ

فسري عنه وعلم ما في قلبها فقالت له إنما أردت أن أمتحنك والذي لك عندي أكثر من الذي لي عندك وأعطي الله عهدا إن جالست بعد يومي هذا رجلا سواك حتى أذوق الموت إلا أن أكره على ذلك قال فانصرفت عنه وهو من أشد الناس سرورا وأقرهم عينا وقال:

أظُـــنُّ هواهـــا تارِكِـــي بِمَضَـــلَّةٍ مـن الأرض لا مـالٌ لـديَّ ولا أهـلُ

ولا أحـــدٌ أُفضِـــي إليـــه وصـــيّتي ولا صـــاحبٌ إلا المطيَّـــةُ والرَّحْـــلُ

مَحَـا حبُّهـا حـبَّ الأُلَى كُـنَّ قبلهـا وحَلَّـتْ مكـانا لم يكـن حُـلَّ مِـنْ قبـلُ

زواج ليلى ودعاء المجنون بطلاقها

أخبرني جعفر بن قدامة عن أبي العيناء عن العتبي قال : لما حجبت ليلى عن المجنون خطبها جماعة فلم يرضهم أهلها وخطبها رجل من ثقيف موسر فزوجوه وأخفوا ذلك عن المجنون ثم نمي إليه طرف منه لم يتحققه فقال:

دعَوْتُ إلهي دعوةً ما جهلتُها ... وربِّي بما تُخفِي الصدورُ بصيرُ

لئن كنتَ تُهدِي بردَ أنيابها العُلا ... لأفقرَ مِنِّي إنَّني لَفَقِيرُ

فقد شاعتِ الأخبارُ أنْ قد تَزَوجَتْ ... فهل يأتِيَنِّي بالطلاق بشِيرُ

وقال أيضا:

ألا تِلك لَيلَى العامِرِيَّةُ أصبَحَتْ ... تَقَطَّعُ إلا مِن ثَقِيفٍ حِبالُها

هُم حبسوُها محْبس البُدْن وابتغى ... بها المال أقوامٌ ألا قلَّ مالُها

إذا التفتتْ والعيِسُ صُعْرٌ من البُرى ... بنخلة جلّت عبرة العينِ حالُها

قال وجعل يمر ببيتها فلا يسأل عنها ولا يلتفت إليه ويقول إذا جاوزه يا جبل التوباد.

كان المجنون وليلى وهما صبيان يرعيان غنما لأهلهما عند جبل في بلادهما يقال له التوباد فلما ذهب عقله وتوحش كان يجيء إلى ذلك الجبل فيقيم به فإذا تذكر أيام كان يطيف هو وليلى به جزع جزعاً شديدا واستوحش فهام على وجهه حتى يأتي نواحي الشأم فإذا ثاب إليه عقله رأى بلدا لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم بأبي أنتم أين التوباد من أرض بني عامر فيقال له وأين أنت من أرض بني عامر أنت بالشام عليك بنجم كذا فأمه فيمضي على وجهه نحو

ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن فيرى بلادا ينكرها وقوما لا يعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بني عامر فيقولون وأين أنت من أرض بني عامر عليك بنجم كذا و كذا فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد فإذا رآه قال في ذلك :

وأجْهَشْتُ للتَّوبادِ حين رأيتُه ... وكَبَّرَ للرحمن حينَ رآني

وأذرَيتُ دمعَ العين لمّا عرفتُه ... ونادى بأعلى صوته فدعاني

فقلتُ له قد كان حولَك جيرةٌ ... وعهدِي بذاكَ الصّرم منذ الزمانِ

فقال مَضَوْا واستودَعُوني بلادَهم ... ومَنْ ذا الذي يبقَى على الحَدَثانِ

وإني لأبكي اليومَ من حَذَرِي غداً ... فِراقَكَ والحيَّانِ مُجْتَمِعانِ

سِجَالاً وَهْتَاناً وَوبْلاً ودِيمَةً ... وسَحًّا وتَسْجاماً إلى هَمَلانِ

أخبرني عمي عن عبد الله بن شبيب عن هارون بن موسى الفروي عن موسى بن جعفر بن أبي كثير قال لما قال المجنون:

خليليّ لا واللهِ لا أملكُ الذي ... قضى اللهُ في ليلى ولا ما قَضَى لِيَا

قضاها لغيري وابتلاني بحبّها ... فَهَلاَّ بشيءٍ غير لَيلى ابتلانِيَا

سلب عقله

وحدثني جحظة عن ميمون بن هارون عن إسحاق الموصلي أنه لما قالهمابرص

قال موسى بن جعفر في خبره المذكور وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحا يصيح يا ليلى في ليلة ظلماء أو توهم ذلك فقال لبعض من معه أما تسمع هذا الصوت فقال ما سمعت شيئا قال بلى والله هاتف يهتف بليلى ثم

أنشأ يقول:

أقـــولُ لأدْنى صـــاحِبيَّ كُلَيمـــةٌ أُسِرَّتْ من الأقصى أجِبْ ذا المَنادِيَا

إذا سِـرْتُ في الأرْضِ الفَضـاءِ رأيتِـني أُصـــانِعُ رَحْلـــي أن يَمِيـــلَ حِيَالِيَـــا

يمينـــاً إذا كانـــت يمينـــاً وإن تكـــن شِمـــالاً يُنـــازِعْني الهـوَى عـــن شِمَالِيَـــا

حدثني هارون بن موسى قال قلت لغرير بن طلحة الخزومي من أشعر الناس ممن قال شعرا في منى ومكة وعرفات فقال أصحابنا القرشيون ولقد أحسن المجنون حيث يقول:

وداعٍ دعـا إذ نحـن بالخَيْـفِ مـن مِـنىً فهـيَّجَ أحـزانَ الفـؤادِ ومـا يـدري

دعـا باســم ليلــى غيرَهــا فكأنمــا أطـارَ بليلـى طـائراً كـان في صـدري

فقلت له هل تروي للمجنون غير هذا قال نعم وأنشدني له:

أمــا والــذي أرْسَــى ثَبِــيراً مكانــه عليــه السَّــحابُ فوقــه يَتَنَصَّــبُ

نهاية عاشق

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبي قالا حدثنا عمر بن شبة قال ذكر الهيثم بن عدي عن عثمان بن عمارة وأخبرني عثمان عن الكراني عن العمري عن لقيط وحدثنا إبراهيم بن أيوب عن عبد الله بن مسلم قال ذكر الهيثم بن عدي عن عثمان بن عمارة وذكر أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي وأبو مسلم المستملي عن ابن الأعرابي يزيد بعضهم على بعض أن عثمان بن عمارة المري أخبرهم أن شيخا منهم من بني مرة حدثه أنه خرج إلى أرض بني عامر ليلقى المجنون قال فدللت على محلته فأتيتها فإذا أبوه

شيخ كبير وإخوة له رجال وإذا نعم كثير وخير ظاهر فسألتهم عنه فاستعبروا جميعا وقال الشيخ والله لهو كان آثر في نفسي من هؤلاء وأحبهم إلي وإنه هوي امرأة من قومه والله ما كانت تطمع في مثله فلما أن فشا أمره وامرها كره أبوها أن يزوجها منه بعد ظهور الخبر فزوجها من غيره فذهب عقل ابني ولحقه خبل وهام في الفيافي وجدا عليها فحبسناه وقيدناه فجعل يعض لسانه وشفتيه حتى خفنا عليه أن يقطعها فخلينا سبيله فهو يهيم في هذه الفيافي مع الوحوش يذهب إليه كل يوم بطعامه فيوضع له حيث يراه فإذا تنحوا عنه جاء فأكل منه

قال فسألتهم أن يدلوني عليه فدلوني على فتى من الحي كان صديقا له وقالوا إنه لا يأنس إلا به ولا يأخذ أشعاره عنه غيره فأتيته فسألته أن يدلني عليه فقال إن كنت تريد شعره فكل شعر إلى أمس عندي وأنا ذاهب إليه غدا فإن كان قال شيئا أتيتك به فقلت بل أريد أن تدلني عليه لآتيه فقال لي إنه إن نفر منك نفر مني فيذهب شعره فأبيت إلا أن يدلني عليه فقال اطلبه في هذه الصحارى ، فإذا رأيته فادن منه مستأنسا ولا تره أنك تهابه فإنه يتهددك ويتوعدك أن يرميك بشيء فلا يروعنك واجلس صارفا بصرك عنه والحظه أحيانا فإذا رأيته قد سكن من نفاره فأنشده شعرا غزلا وإن كنت تروي من شعر قيس بن ذريح شيئا فأنشده إياه فإنه معجب به فخرجت فطلبته يومي إلى العصر فوجدته جالسا على رمل قد خط فيه بأصبعه خطوطا فدنوت منه غير منقبض فنفر مني نفور الوحش من الإنس وإلى جانبه أحجار فتناول حجرا فأعرضت عنه فمكث ساعة كأنه نافر يريد القيام فلما طال جلوسي سكن وأقبل يخط بأصبعه فأقبلت عليه وقلت أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول:

ألا يا غــرابَ البــينِ ويحــك نبِّــني   بعلمــك في لبُــنى وأنــت خبــيرُ

فـإن أنـتَ لم تُخـبِر بشـيءٍ علمتـه فـلا طِـرْتَ إلا والجنـاحُ كسـيُر

ودُرْتَ بأعـداد حبيبُـك فـيهمُ كمـا قـد تَـراني بالحبيـب أَدورُ

فأقبل علي وهو يبكي فقال أحسن والله وأنا أحسن منه قولا حيث أقول:

كـأنّ القلـبَ ليلـةَ قِيـلَ يغُـدَى بليلـى العامريَّـةِ أو يُـراحُ

قطـاةٌ عزّهـا شَـرَكٌ فباتـت تُجاذِبـه وقـد عَلِـقَ الجنـاحُ

فأمسكت عنه هنيهة ثم أقبلت عليه فقلت وأحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول:

وإني لَمُفْـنٍ دمـعَ عَيْـنَيَّ بالبكـا حِـذَاراً لِمَـا قـد كـان أو هـو كـائنُ

وقـالوا غـداً أو بعـد ذاكَ بليلـةٍ فـراقُ حبيـبٍ لم يَـبِن وهـو بائـنُ

ومـا كنـتُ أخشـى أن تكـونَ مَنِيّـتِي بكفّيـكِ إلا أن مَـنْ حَـانَ حَـائِنُ

قال فبكى والله حتى ظننت أن نفسه قد فاضت وقد رأيت دموعه قد بلت الرمل الذي بين يديه .

٣

أخبار بشار بن برد ونسبه

هو بشار بن برد بن يرجوخ بن أزدكرد بن شروستان بن بهمهن بن دارا بن فيروز بن كرديه بن ماهفيدان بن داذان بن بهمن بن أزدكرد بن حسيس بن مهران ابن خسروان بن أخشين بن شهرداد بن نبوذ بن ما خرشيدا نماذ بن شهريار بن بنداد سيحان بن مكرر بن ادريوس بن يستاسب بن لهراسف قال وكان يرجوخ بن طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة ويكنى بشار أبا معاذ ومحله في الشعر وتقدمه طبقات المحدثين فيه بإجماع الرواة ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك يغني عن وصفه وإطالة ذكر محله وهو من مخضرمي شعراء الدولتين العباسية والأموية قد شهر فيهما ومدح وهجا وأخذ سني الجوائز مع الشعراء.

وأخبرني يحيى بن علي ومُحَمَّد بن عمران الصيرفي وغيرهما عن الحسن بن عليل العنزي عن خالد بن يزيد بن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه قال كان بشار بن برد بن يرجوخ وأبوه برد من قن خيرة القشيرية امرأة المهلب بن أبي صفرة وكان مقيما لها في ضيعتها بالبصرة المعروفة بخيرتان مع عبيد لها وإماء فوهبت بردا بعد أن زوجته لامرأة من بني عقيل كانت متصلة بها فولدت له امرأته وهو في ملكها بشارا فأعتقته العقيلية.

وأخبرني الحسن بن علي الخفاف قال حدثنا العنزي قال حدثنا مُحَمَّد بن زيد العجلي قال أخبرني بدر بن مزاحم أن بُرداً أبا بشار كان طيانا يضرب اللبن وأراني أبي بيتين لنا فقال لي لبن هذين البيتين من ضرب برد أبي بشار فسمع

هذه الحكاية حماد عجرد فهجاه فقال:

يابنَ بُردٍ إخْسَأْ إليكَ فمثلُ الكلبِ   في النـــاس أنـــتَ لا الإنســـانِ
بـل لَعَمْـرِي لأنـتَ شـرّ مـن الكلـب   وأَوْلَى منـــــه بكـــــلّ هَـــــوَان
ولَـرِيحُ الخنزيـرِ أهـونُ مـن رِيحـكَ   يابـــــنَ الطيّـــانِ ذِي التُّبَّـــانِ

أخبرني يحيى بن علي قال حدثنا أبو أيوب المديني عن أبي الصلت البصري عن أبي عدنان قال حدثني يحيى بن الجون العبدي راوية بشار قال: قال لما دخلت على المهدي قال لي فيمن تعتد يا بشار فقلت أما اللسان والزي فعربيان وأما الأصل فعجمي كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين:

ونُبِّئـــتُ قومـــاً بهـــم جِنَّـــةٌ   يقولـــونَ مَـــنْ ذا وكنـــتُ العَلَـــم
ألا أَيُّهـــا الســـائِلي جاهـــداً   لِيَعْـــرِفَنِي أنا أنـــفُ الكَـــرَمْ
نَمَـــتْ في الكـــرامِ بَـــنِي عـــامرٍ   فُروعِـــي وأصْـــلِي قـــريشُ العَجَـــمْ
فـــإني لأُغْـــنِي مَقـــامَ الفـــتى   وأُصْـــبِي الفتـــاةَ فمـــا تَعتَصِـــمْ

قال وكان أبو دلامة حاضرا فقال كلا لوجهك أقبح من ذلك ووجهي مع وجهك فقلت كلا والله ما رأيت رجلا أصدق على نفسه وأكذب على جليسه منك والله إني لطويل القامة عظيم الهامة تام الألواح أسجح الخدين ولرب مسترخي المذروين للعين فيه مراد قد جلس من الفتاة حجرة وجلست منها حيث أريد فأنت مثلي يا مرضعان قال فسكت عني، ثم قال لي المهدي فمن أي العجم أصلك فقلت من أكثرها في الفرسان وأشدها على الأقران أهل طخارستان فقال بعض القوم أولئك الصغد فقلت لا الصغد تجار فلم يردد ذلك المهدي .

وكان بشار كثير التلون في ولائه شديد الشغب والتعصب للعجم مرة يقول يفتخر بولائه في قيس:

أَمِنْتُ مَضَرَّةَ الفُحَشَاء أني ... أرى قيساً تَضُرُّ ولا تُضَارُ

كأن الناسَ حين تَغِيبُ عنهم ... نباتُ الأرضِ أخطأهُ القِطارُ

وقد كانت بتَدْمُرَ خيلُ قيسٍ ... فكان لِتَدْمُرٍ فيها دَمَارُ

بحيٍّ من بني عَيْلانَ شُوسٍ ... يَسيرُ الموتُ حيث يقالُ سَارُوا

وما نَلَقَاهُمُ إلا صَدَرْنا ... بِرِيًّ منهمُ وهُمُ حِرَارُ

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول:

أصبحت مولَى ذي الجلالِ وبعضُهمْ ... مولَى العُرَيبِ فخذْ بفضلك فافَخر

مَولاكَ أكرمُ من تميم كلِّها ... أهلِ الفَعَالِ ومن قُريش المشْعر

فارجِعْ إلى مولاكَ غيرَ مُدَافَع ... سُبحانَ مَولاكَ الأجلِّ الأكبر

لقبه وسبب ذلك

وقال يفتخر بولاء بني عقيل:

إنّي من بني عُقَيلِ بن كعبٍ ... مَوضِعَ السّيفِ مِنْ طُلَى الأعناقِ

ويكنى بشار أبا معاذ ويلقب بالمرعث، أخبرني عمي ويحيى بن علي قالا محمد بن سلام قال بشار المرعث هو بشار بن برد وإنما سمي المرعث بقوله:

قال رِيمٌ مُرَعَّثٌ ... ساحرُ الطَّرفِ والنَّظْر

لستَ واللَّهِ نائلي ... قلتُ أو يَغْلِبُ القَدَرْ

أنـــــتَ إن رُمـــــتَ وَصْـــــلَنا   فـــانجُ هــــل تُـــدْرِكُ القَمَـــرْ

قال ابن سلام مرة أخرى إنما سمي بشار المرعث لأنه كان لقميصه جيبان جيب عن يمينه وجيب عن شماله فإذا أراد لبسه ضمه عليه من غير أن يدخل رأسه فيه وإذا أراد نزعه حل أزرار وخرج منه فشبهت تلك الجيوب بالرعاث لاسترسالها وتدليها وسمي من أجلها المرعث، وقال أبو عبيدة لقب بشار بالمرعث لأنه كان في أذنه وهو صغير رعاث والرعاث القرطة واحدتها رعثة وجمعها رعاث ورعثات، ورعثات الديك اللحم المتدلي تحت حنكه قال الشاعر:

سَـــــقَيْتُ أبا المصـــــرَّعِ إذ أتاني   وذُو الرّعَثَـــاتِ مُنتَصِـــبٌ يَصـــيحُ

شـــراباً يهـــرُبُ الـــذِّبَّانُ منـــه   ويَلْثَـــغُ حـــين يشـــرَبه الفَصـــيحُ

قال والرعث الاسترسال والتساقط فكأن اسم القرطة اشتق منه.. أخبرني مُحَمَّد بن عمران قال حدثني العنزي قال حدثنا مُحَمَّد بن بدرالعجلي قال سمعت الأصمعي يذكر أن بشارا كان من أشد الناس تبرما بالناس وكان يقول الحمد لله الذي ذهب ببصري فقيل له ولم يا أبا معاذ قال لئلا أرى من أبغض

وكان يلبس قميصا له لبنتان فإذا أراد أن ينزعه نزعه من أسفله فبذلك سمي المرعث.

أخبرني هاشم بن مُحَمَّد أبو دلف الخزاعي قال حدثنا قعنب بن محرز عن الأصمعي قال كان بشار ضخما عظيم الخلق والوجه مجدورا طويلا جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر فكان أقبح الناس عمى وأفظعه منظرا وكان إذا أراد أن ينشد صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتي بالعجب.

وأخبرنا يحيى بن علي بن يحيى وأحمد بن عبد العزيز الجوهري قالا حدثنا عمر بن شبة قال كان الأصمعي يقول بشار خاتمة الشعراء والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم قال أبو زيد كان راجزا مقصدا.

عدد قصائده

قال بشار لي اثنا عشر ألف بيت عين فقيل له هذا ما لم يكن يدعيه أحد قط سواك فقال لي اثنتا عشرة ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين وأخبرنا يحيى بن علي قال حدثنا علي بن مهدي عن أبي حاتم قال: قلت لأبي عبيدة أمروان عندك أشعر أم بشار فقال حكم بشار لنفسه بالاستظهار أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام هذا العدد وما أحسبهم برزوا في مثلها ومروان أمدح للملوك.

قال الأصمعي: قال بشار الشعر وله عشر سنين فلما بلغ الحلم إلا وهو مخشي معرة اللسان بالبصرة، وكان يقول هجوت جريرا فاستصغرني وأعرض عني ولو أجابني لكنت أشعر أهل زماني.

حدثنا أبو العواذل زكريا بن هارون قال: قال بشار لي اثنا عشر ألف بيت جيدة فقيل له كيف قال لي اثنتا عشرة ألف قصيدة أما في كل قصيدة منها بيت جيد.

وقال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين وقد ذكره كان بشار شاعرا خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المفتنين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه قال الشعر في حياة جرير وتعرض له وحكى عنه أنه قال هجوت جريرا فأعرض عني ولو

هاجاني لكنت أشعر الناس.

قال الجاحظ وكان بشار يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين وذكر ذلك في شعره فقال:

الأَرْضُ مُظْلِمَـــةٌ والنـــارُ مُشْـــرِقَةٌ والنـــارُ معبـــودةٌ مـــذ كانـــتِ النـــارُ

قال وبلغه عن أبي حذيفة واصل بن عطاء إنكار لقوله وهتف به فقال يهجوه:

مـــا لي أُشـــايِعُ غَـــزّالاً لـــه عُنُـــقٌ كنِقْنِـــقِ الـــدَّوِّ إنْ وَلَّى وإنْ مـــثَلا

عُنْـــقَ الزّرافـــةِ مـــا بالي وبالُكُـــم تُكَفِّـــرُون رجـــالاً كَفَّـــرُوا رَجُـــلا

قال فلما تتابع على واصل منه ما يشهد على إلحاده خطب به واصل وكان ألثغ على الراء فكان يجتنبها في كلامه فقال أما لهذا الأعمى الملحد أما لهذا المشنف المكني بأبي معاذ من يقتله أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه في جوف منزله أو في حفله ثم كان لا يتولى ذلك إلا عقيلي أو سدوسي فقال أبا معاذ ولم يقل بشارا وقال المشنف ولم يقل المرعث وقال من سجايا الغالية ولم يقل الرافضة وقال في منزله ولم يقل في داره وقال يبعج بطنه ولم يقل يبقر للثغة التي كانت به في الراء.

قال وكان واصل قد بلغ من اقتداره على الكلام وتمكنه من العبارة أن حذف الراء من جميع كلامه وخطبه وجعل مكانها ما يقوم مقامها.

هجاؤه للمنصور

حدثنا مُحَمَّد بن علي بن يحيى قال حدثنا مُحَمَّد بن زكريا قال حدثنا مُحَمَّد بن عبد الرحمن التيمي قال دخل بشار إلى إبراهيم بن عبد الله بن حسن فأنشده قصيدة

يهجو فيها المنصور ويشير عليه برأي يستعمله في أمره فلما قتل إبراهيم خاف بشار فقلب الكنية وأظهر أنه كان قالها في أبي مسلم وحذف منها أبياتا وأولها:

أبا جَعفرٍ ما طولُ عيشٍ بدائمٍ ولا سالمٌ عمَّا قَليلٍ بسَالمِ

قلب هذا البيت فقال أبا مسلم :

على المَلِك الجبّار يَقتحِمُ الردى ويصرَعُه في المأزِقِ المتلاحمِ

كأنك لم تَسمَعْ بقتل مُتوَّجٍ عظيم ولم تسمع بفَتكِ الأعاجمِ

تَقَسَّمَ كِسرَى رهطُه بسيوفهم وأمسى أبو العباسِ أحلامَ نائمِ

يعني الوليد بن يزيد:

وقد كان لا يَخْشَى انقلابَ مكيدةٍ عليه ولا جَرْيَ النُّحُوسِ الأَشائمِ

مقيماً على اللّذاتِ حتى بَدتْ له وجوهُ المنايا حاسِرَاتِ العمائمِ

وقد تَرِدُ الأيامُ غُرّاً وربَّمَا وَرَدْنَ كُلُوحاً باديات الشَّكائمِ

ومَرْوانُ قد دارتْ على رأسه الرحى وكان لِمَا أجرمْتَ نَزْرَ الجرائمِ

فأصبحتَ تجري سادراً في طريقهم ولا تَتَّقِي أشباهَ تلكَ النقائمِ

تجرَّدتَ للإسلام تَعفُو سبيلَه وتُعْرِي مَطاهُ للُّيوثِ الضَّراغِم

فما زِلتَ حتى استنصرَ الدينُ أهلَه عليكَ فعاذُوا بالسَّيوفِ الصوارمِ

فَرُمْ وَزراً يُنْجِيكَ يابنَ سَلاَمةٍ فلستَ بِنَاجٍ من مَضِيم وضَائِم

جعل موضع يابن سلامة يابن وشيكة وهي أم أبي مسلم :

لَحَا اللهُ قوماً رأَسُوكَ عليهمُ ... وما زِلتَ مَرْؤوساً خبيثَ المطاعِم

أَقُولُ لِبَسَّامٍ عليه جَلاَلَةٌ ... غَدَا أَرْيحيَّا عاشِقاً للمكارم

من الفاطمّيينَ الدُّعاة إلى الهدَى ... جِهَاراً ومَنْ يَهْدِيكَ مثلُ ابنِ فاطمِ

هذا البيت الذي خافه وحذفه بشار من الأبيات :

سِراجٌ لعين المستضِيءِ وتارة ... يكون ظَلاَماً للعدوِّ المزاحِمِ

إذا بلغَ الرأيُ المَشُورة فاستعِنْ ... برَأْيِ نَصِيح أو نَصِيحةِ حازمِ

ولا تعجَلِ الشُّورى عليكَ غضَاضَةً ... فإنّ الخَوافِي قُوّةٌ للقَوادِمِ

وما خيرُ كفٍّ أمسكَ الغُلُّ أختَها ... وما خيرُ سَيفٍ لم يُؤَيَّدْ بقائمِ

وخَلِّ الهُوينَا للضَّعيف ولا تكُنْ ... نَؤُوماً فإن الحَزْمَ ليس بنائمِ

وحَارِبْ إذا لم تُعطَ إلا ظُلاَمَةً ... شَبَا الحربِ خيرٌ من قَبُول المظالمِ

قال مُحَمَّد بن يحيى فحدثني الفضل بن الحباب قال سمعت أبا عثمان المازني يقول سمعت أبا عبيدة يقول ميمية بشار هذه أحب إلي من ميميتي جرير والفرزدق

خبره مع أبي جعفر المنصور.

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا مُحَمَّد بن القاسم بن مهرويه قال حدثنا زكريا بن يحيى أبو السكين الطائي قال حدثني زحر بن حصن قال حج المنصور فاستقبلناه بالرضم الذي بين زبالة والشقوق فلما رحل من الشقوق رحل في

وقت الهاجرة فلم يركب القبة وركب نجيبا فسار بيننا فجعلت الشمس تضحك بين عينيه فقال إني قائل بيتا فمن أجازه وهبت له جبتي هذه فقلنا يقول أمير المؤمنين فقال:

وهـــاجرةٍ نَصـــبْتُ لهـــا جَبِيـــنِي يُقطِّـــعُ ظهرُهـــا ظَهْـــرَ العظايـــهْ

فبدر بشار الأعمى فقال:

وقَفْـتُ بهـا القُلـوصَ ففـاضَ دمعـي علـــى خـــدِّي وأَقْصَـــرَ واعِظايَـــهْ

فنزع الجبة وهو راكب فدفعها إليه فقلت لبشار بعد ذلك ما فعلت بالجبة فقال بشار بعتها والله بأربعمائة دينار.

المهدي يأمر بقتله بعد أن هجاه

خليفـــــــةٌ يـــــــزني بعمّاتـــــــه يلعـــــب بالـــــدَّبُّوق والصّـــــوْلجانْ

أبـــــــدلنا الله بـــــــه غـــــــيرَه ودسّ مُوســـــى في حِـــــر الخَيْـــــزُرانْ

وأنشدها في حلقة يونس النحوي فسعي إلى يعقوب بن داود وكان بشار قد هجاه فقال:

بـــني أميّـــة هُبّـــوا طـــال نـــومُكُم إنّ الخليفـــة يعقـــوبُ بـــنُ داودِ

ضـاعتْ خلافـتكم يا قـوم فالتمسـوا خليفـــةَ الله بـــينَ الـــزِّق والعـــودِ

فدخل يعقوب على المهدي فقال له يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى الملحد الزنديق قد هجاك فقال بأي شيء فقال بما لا ينطق به لساني ولا يتوهمه فكري قال له بحياتي إلا أنشدتني فقال والله لو خيرتني بين إنشادي إياه وبين ضرب عنقي لاخترت ضرب عنقي فحلف عليه المهدي بالأيمان التي لا فسحة فيها أن يخبره فقال

أما لفظا فلا ولكني أكتب ذلك فكتبه ودفعه إليه فكاد ينشق غيظا وعمد على الانحدار إلى البصرة للنظر في أمرها وما وكده غير بشار فانحدر فلما بلغ إلى البطيحة سمع أذانا في وقت ضحى النهار فقال انظروا ما هذا الأذان فإذا بشار يؤذن سكران فقال له يا زنديق يا عاض بظر أمه عجبت أن يكون هذا غيرك أتلهو بالأذان في غير وقت صلاة وأنت سكران ثم دعا بابن نهيك فأمره بضربه بالسوط فضربه بين يديه على صدر الحراقة سبعين سوطا أتلفه فيها فكان إذا أوجعه السوط يقول حس وهي كلمة تقولها العرب للشيء إذا أوجع فقال له بعضهم انظر إلى زندقته يا أمير المؤمنين يقول حس ولا يقول بسم الله فقال ويلك أطعام هو فأسمي الله عليه فقال له الآخر أفلا قلت الحمد لله قال أو نعمة هي حتى أحمد الله عليها فلما ضربه سبعين صوتا بان الموت فيه فألقي في سفينة حتى مات ثم رمي به في البطيحة فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة فدفن بها.

نعي بشار

قال عمر بن شبة حدثني سالم بن علي قال كنا عند يونس فنعى بشارا إلينا نا ع فأنكر يونس ذلك وقال لم يمت فقال الرجل أنا رأيت قبره فقال أنت رأيته قال نعم وإلا فعلي وعلي وحلف له حتى رضي فقال يونس لليدين وللفم.

قال أبو زيد وحدثني جماعة من أهل البصرة منهم مُحَمَّد بن عون بن بشير وكان يتهم بمذهب بشار فقال لما مات بشار ألقيت جثته بالبطيحة في موضع يعرف بالخرارة فحمله الماء فأخرجه إلى دجلة البصرة فأخذ فأتي به أهله فدفنوه.

قال وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح رأيتها خلف جنازته تصيح واسيداه واسيداه

٤

ذكر نسب أبي العتاهية وأخباره

أبو العتاهية لقب غلب عليه واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان مولى عنزة .. وكنيته أبو إسحاق وأمه أم زيد بنت زياد المحاربي مولى بني زهرة وفي ذلك يقول أبو قابوس النصراني وقد بلغه أن أبا العتاهية فضل عليه العتابي:

قُـــــلْ لِلمُكــــــنّي نفســــــه	مُتَخـــــــــيّرا بعَتَاهِيــــــــــهْ
والمرسِـــــل الكلِــــم القبـــــيح	وعتْـــــــــه أُذْنٌ واعيـــــــــهْ
إن كنـــــــت سِــــــرّا ســــؤتني	أو كــــــــان ذاك علانيــــــــهْ
فعليـــــك لعنــــــةُ ذي الجـــــلال	وأُمُّ زيـــــــــــدٍ زانيـــــــــهْ

ومنشؤه بالكوفة وكان في أول أمره يتخنث ويحمل زاملة المخنثين ثم كان يبيع الفخار بالكوفة ثم قال الشعر فبرع فيه وتقدم.

ويقال أطبع الناس بشار والسيد وأبو العتاهية وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته، وأكثر شعره في الزهد والأمثال وكان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد وله أوزان طريفة قالها مما لم يتقدمه الأوائل فيها وكان أبخل الناس مع يساره وكثرة ما جمعه من الأموال

سبب لقبه

حدثني محمد بن يحيى الصولي قال أخبرني محمد بن موسى بن حماد قال قال

المهدي يوما لأبي العتاهية أنت إنسان متحذلق معته فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته وسارت له في الناس، ويقال للرجل المتحذلق عتاهية كما يقال للرجل الطويل شناحية ويقال أبو عتاهية بإسقاط الألف واللام.

قال مُحَمَّد بن يحيى وأخبرني مُحَمَّد بن موسى قال أخبرني ميمون بن هارون عن بعض مشايخه قال كني بأبي العتاهية أن كان يحب الشهرة والمجون والتعته

وبلده الكوفة وبلد آبائه وبها مولده ومنشؤه وباديته.

قال مُحَمَّد بن سلام وكان مُحَمَّد بن أبي العتاهية يذكر أن أصلهم من عنزة وأن جدهم كيسان كان من أهل عين التمر فلما غزاها خالد بن الوليد كان كيسان جدهم هذا يتيما صغيرا يكفله قرابة له من عنزة فسباه خالد مع جماعة صبيان من أهلها فوجه بهم إلى أبي بكر فوصلوا إليه وبحضرته عباد بن رفاعة العنزي بن أسد بن ربيعة بن نزار فجعل أبو بكر ﷺ يسأل الصبيان عن أنسابهم فيخبره كل واحد بمبلغ معرفته حتى سأل كيسان فذكر له أنه من عنزة فلما سمعه عباد يقول ذلك استوهبه من أبي بكر ﷺ وقد كان خالصا له فوهبه له فأعتقه فتولى عنزة.

أخبرني مُحَمَّد بن عمران الصيرفي قال حدثنا الحسن بن عليل العنزي قال لم أر قط مندل بن علي العنزي وأخاه حيان بن علي غضبا من شيء قط إلا يوما واحدا دخل عليها أبو العتاهية وهو مضمخ بالدماء فقالا له ويحك ما بالك فقال لهما من أنا فقالا له أنت أخونا وابن عمنا ومولانا فقال إن فلانا الجزار قتلني وضربني وزعم أني نبطي فإن كنت نبطيا هربت على وجهي وإلا فقوما فخذا لي بحقي فقام معه مندل بن علي وما تعلق نعله غضبا وقال له والله لو كان حقك على عيسى بن موسى لأخذته لك منه ومر معه حافيا حتى أخذ له بحقه.

صنعة أبي العتاهية

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا مُحَمَّد بن القاسم بن مهرويه قال قال أبو عون أحمد بن المنجم أخبرني خيار الكاتب قال كان أبو العتاهية وإبراهيم الموصلي من أهل المذار جميعا وكان أبو العتاهية وأهله يعملون الجرار الخضر فقدما إلى بغداد ثم افترقا فنزل إبراهيم الموصلي ببغداد ونزل أبو العتاهية الحيرة.

قال مُحَمَّد بن موسى فولاء أبي العتاهية من قبل أبيه لعنزة ومن قبل أمه لبني زهرة ثم لمحمد بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وكانت أمه مولاة لهم يقال لها أم زيد

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا مُحَمَّد بن مهرويه قال قال الخليل بن أسد كان أبو العتاهية يأتينا فيستأذن ويقول أبو إسحاق الخزاف وكان أبوه حجاما من أهل ورجة ولذلك يقول أبو العتاهية:

أَلاَ إنّما التَّقْوَى هو العزّ والكَرَمْ   وحُبُّك للدّنيا هو الفقر والعَدَمْ

وليس على عبدٍ تَقِيّ نقيصةٌ   إذا صحّح التّقوى وإن حاك أو حَجْم

مذهب أبي العتاهية

وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب ويتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة لا يتنقص أحدا ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان.

قال الصولي فحدثني يموت بن المزرع قال حدثني الجاحظ قال قال أبو العتاهية لثمامة بين يدي المأمون وكان كثيرا ما يعارضه بقوله في الإجبار أسألك عن مسألة فقال له المأمون عليك بشعرك فقال إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في مسألته ويأمره بإجابتي فقال له أجبه إذا سألك فقال أنا أقول إن كل ما فعله العباد من خير وشر فهو من الله وأنت تأبى ذلك فمن حرك يدي هذه وجعل

أبو العتاهية يحركها فقال له ثمامة حركها من أمه زانية فقال شتمني والله يا أمير المؤمنين.

مارس صنعة الحجامة

أخبرني عيسى بن الحسين الوراق قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال ذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أن بشر بن المعتمر قال يوما لأبي العتاهية بلغني أنك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل أكذلك كان قال نعم قال له فما أردت بذلك قال أردت أن أضع من نفسي حسبما رفعتني الدنيا وأضع منها ليسقط عنها الكبر وأكتسب بما فعلته الثواب وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة فقال له بشر دعني من تذليلك نفسك بالحجامة فإنه ليس بحجة لك أن تؤدبها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك أحب أن تخبرني هل كنت تعرف الوقت الذي كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم قال لا قال هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرجه على قدر طبعه مما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضر المحجوم قال لا قال فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين.

أخبرني مُحَمَّد بن يحيى الصولي قال حدثنا أبو ذكوان قال حدثنا العباس بن رستم قال كان حمدويه صاحب الزنادقة قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية ففزع من ذلك وقعد حجاما.

أوصافه

أخبرني مُحَمَّد بن يحيى قال حدثنا شيخ من مشايخنا قال حدثني مُحَمَّد بن موسى قال كان أبو العتاهية قضيفا أبيض اللون أسود الشعر له وفرة جعدة وهيئة حسنة ولباقة وحصافة وكان له عبيد من السودان ولأخيه زيد أيضا عبيد منهم

يعملون الخزف في أتون لهم فإذا اجتمع منه شيء ألقوه على أجير لهم يقال له أبو عباد اليزيدي من أهل طاق الجرار بالكوفة فيبيعه على يديه ويرد فضله إليهم وقيل بل كان يفعل ذلك أخوه زيد لا هو وسئل عن ذلك فقال أنا جرار القوافي وأخي جرار التجارة.

قال مُحَمَّد بن موسى وحدثني عبد الله بن مُحَمَّد قال حدثني عبد الحميد بن سريع مولى بني عجل قال أنا رأيت أبا العتاهية وهو جرار يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيها.

حدثني مُحَمَّد بن يحيى الصولي قال لما هاجى أبو قابوس النصراني كلثوم بن عمرو العتابي جعل أبو العتاهية يشتم أبا قابوس ويضع منه ويفضل العتابي عليه فبلغه ذلك فقال فيه:

قُـــــلْ للمُكَـــــنّي نفسَـــــه ... مُتخـــــــــيّراً بعتاهيـــــــــهْ

والمرسِـــــل الكَلِـــــمَ القبـــــيحَ ... وعَتْـــــــــه أُذْنٌ واعيـــــــهْ

إن كنـــــتَ ســـــرّاً ســـــؤتَني ... أو كـــــــان ذاك عَلانيـــــــهْ

فعليـــــك لعنـــــةُ ذي الاجـــــلاَل ... وأُمّ زيـــــــــدٍ زانيـــــــهْ

يعني أم أبي العتاهية وهي أم زيد بنت زياد فقيل له أتشتم مسلما فقال لم أشتمه وإنما قلت:

فعليـــــك لعنـــــةُ ذي الجـــــلال ... ومَـــــــنْ عَنينْـــــا زانيـــــهْ

قال وفيه يقول والبة بن الحباب وكان يهاجيه:

كـــان فينـــا يُكْـــنَى أبا إســـحاقِ ... وبهـــا الرّكْـــبُ ســـارَ في الآفـــاقِ

فتكـــــنَّ مَعْتُوهُنَـــــا بعَتَـــــاهٍ   يا لهـــا كُنْيـــةً أتـــت باتّفـــاقِ

خلـــق الله لِحْيـــةً لـــك لا تنفـــكّ   معقـــــودةً بـــــداء الحُـــــلاَقِ

أبو نواس يفضله على نفسه

حضرت أبا نواس في مجلس وأنشد شعرا فقال له من حضر في المجلس أنت أشعر الناس .. قال أما والشيخ حي فلا يعني أبا العتاهية.

أخبار عن بخله

أخبرني يحيى بن علي إجازة قال حدثني علي بن المهدي قال قال الجاحظ حدثني ثمامة قال دخلت يوما إلى أبي العتاهية فإذا هو يأكل خبزا بلا شيء فقلت كأنك رأيته يأكل خبزا وحده قال لا ولكني رأيته يتأدم بلا شيء فقلت وكيف ذلك فقال رأيت قدامه خبزا يابسا من رقاق فطير وقدحا فيه لبن حليب فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها من اللبن ويخرجها ولم تتعلق منه بقليل ولا كثير فقلت له كأنك اشتهيت أن تتأدم بلا شيء وما رأيت أحدا قبلك تأدم بلا شيء.

قال الجاحظ وزعم لي بعض أصحابنا قال دخلت على أبي العتاهية في بعض المتنزهات وقد دعا عياشا صاحب الجسر وتهيأ له بطعام وقال لغلامه إذا وضعت قدامهم الغداء فقدم إلي ثريدة بخل وزيت فدخلت عليه وإذا هو يأكل منها أكل متكمش غير منكر لشيء فدعاني فمددت يدي معه فإذا بثريدة بخل بزر بدلا من الزيت فقلت له أتدري ما تأكل قال نعم ثريدة بخل وبزر فقلت ما دعاك إلى هذا قال غلط الغلام بين دبة الزيت ودبة البزر فلما جاءني كرهت التجبر وقلت دهن كدهن فأكلت وما أنكرت شيئا.

أخبرني يحيى بن علي قال حدثني علي بن مهدي قال حدثنا عبد الله بن عطية الكوفي قال حدثنا مُحَّد بن عيسى الخزيمي وكان جار أبي العتاهية قال كان لأبي العتاهية جار يلتقط النوى ضعيف سيئ الحال متجمل عليه ثياب فكان يمر بأبي العتاهية طرفي النهار فيقول أبو العتاهية اللهم أغنه عما هو بسبيله شيخ ضعيف سيئ الحال عليه ثياب متجمل اللهم أغنه إصنع له بارك فيه فبقي على هذا إلى أن مات الشيخ نحوا من عشرين سنة ووالله إن تصدق عليه بدرهم ولا دانق قط وما زاد على الدعاء شيئا فقلت له يوما يا أبا إسحاق إني أراك تكثر الدعاء لهذا الشيخ وتزعم أنه فقير مقل فلم لا تتصدق عليه بشيء فقال أخشى أن يعتاد الصدقة والصدقة أخر كسب العبد وإن في الدعاء لخيرا كثيرا.

رمي بالزندقة

أخبرني يحيى بن علي إجازة قال حدثني ابن مهرويه قال حدثني العباس بن ميمون قال حدثني رجاء بن سلمة قال سمعت أبا العتاهية يقول قرأت البارحة "عم يتساءلون" ثم قلت قصيدة أحسن منها قال وقد قيل إن منصور بن عمار شنع عليه بهذا .

قال يحيى بن علي حدثنا ابن مهرويه قال حدثني أبو عمر القرشي قال: لما قص منصور بن عمار على الناس مجلس البعوضة قال أبو العتاهية إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفي فبلغ قوله منصورا فقال أبو العتاهية زنديق أما ترونه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار وإنما يذكر الموت فقط فبلغ ذلك أبا العتاهية فقال فيه:

يا واعظَ الناس قد أصبحتَ مُتَّهَماً ... إذ عِبتَ منهم أُموراً أنت تأتيها

كالمُلْبِس الثوبِ من عُرْيٍ وعورتُه ... للناس باديةٌ ما إنْ يُواريها

فـأعظمُ الإِثْمِ بعـد الشِّـرك نَعلَمُـه   في كُـلّ نفـسٍ عَماها عـن مَساويها

عِرفانُهـا بعيـوب النـاس تُبصـرها   مـنهم ولا تُبصِـر العيبَ الـذي فيهـا

فلم تمض إلا أيام يسيرة حتى مات منصور بن عمار فوقف أبو العتاهية على قبره وقال يغفر الله لك أبا السري ما كنت رميتني به.

أخبرني مُحَمَّد بن يحيى قال حدثنا مُحَمَّد بن موسى قال أخبرني النسائي عن مُحَمَّد بن أبي العتاهية قال كانت لأبي العتاهية جارة تشرف عليه فرأته ليلة يقنت فروت عنه أنه يكلم القمر واتصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة فصار إلى منزلها وبات وأشرف على أبي العتاهية ورآه يصلي ولم يزل يرقبه حتى قنت وانصرف إلى مضجعه وانصرف حمدويه خاسئا.

شعره الذي يدل على توحيده

حدثنا مُحَمَّد بن يحيى قال حدثنا مُحَمَّد بن الرياشي قال حدثنا الخليل بن أسد النوشجاني قال جاءنا أبو العتاهية إلى منزلنا فقال زعم الناس أني زنديق والله ما ديني إلا التوحيد فقلنا له فقل شيئا نتحدث به عنك فقال:

ألاَ إنّنـا كلّنـا بائـدُ   وأيّ بـني آدمٍ خالـدُ

وبَـدْؤُهُم كـان مـن ربّهـم   وكـلٌّ إلى ربّـه عائـدُ

فيـا عجبـا كيـف يُعْصَـى الإِلـهُ   أم كيـف يَجْحَـدُه الجاحـدُ

وفي كـلّ شـيءٍ لـه آيـةٌ   تـدلّ علـى أنـه واحـدُ

أخبرني أبو دلف هاشم بن مُحَمَّد الخزاعي قال تذاكروا يوما شعر أبي العتاهية بحضرة الجاحظ إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التي سماها ذات الأمثال فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله:

يا للشَّــــبابِ المَــــرِح التَّصـــابي روائــــحُ الجنَّــــة في الشَّــــبابِ

فقال الجاحظ للمنشد قف ثم قال انظروا إلى قوله:

روائحُ الجنّة في الشَّباب...

فإن له معنى كمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه وهذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية ويقال إن له فيها أربعة آلاف مثل.

ارتجاله الشعر

أخبرني يحيى بن علي إجازة قال حدثني علي بن مهدي قال حدثني مُحَمَّد بن يحيى قال حدثني عبد الله بن الحسن قال جاءني أبو العتاهية وأنا في الديوان فجلس إلي فقلت يا أبا إسحاق أما يصعب عليك شيء من الألفاظ فتحتاج فيه إلى استعمال الغريب كما يحتاج إليه سائر من يقول الشعر أو إلى ألفاظ مستكرهة قال لا فقلت له إني لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافي السهلة قال فاعرض علي ما شئت من القوافي الصعبة فقلت قل أبياتا على مثل البلاغ فقال من ساعته:

أيُّ عـيشٍ يكـون أبلَـغ مـن عـيشِ كَفــافٍ قُــوتٍ بقَــدْر الــبلاغِ

صـاحبُ البَغْـي لـيس يسـلَمُ منـه وعلــى نَفْســه بَغَــى كــلُّ باغِــي

رُبَّ ذي نِعمـــة تَعـــرَّضَ منهـــا حائـــلٌ بينـــه وبـــين المَســـاغِ

أَبْلَـــغ الـــدهرُ في مَوَاعظِـــهِ بـــل زاد فـــيهنّ لي علـــى الإبـــلاغِ

غَبَنَتْـــني الأيَامُ عقلـــي ومـــالي وشَـــبابي وصِــحّتي وفرَاغـــي

أنشد المأمون أحسن ما قاله في الموت

أخبرني مُحَمَّد بن عمران الصيرفي قال حدثنا الحسن بن عليل العنزي قال حدثني يحيى بن عبد الله القرشي قال حدثني المعلى بن أيوب قال دخلت على المأمون يوما وهو مقبل على شيخ حسن اللحية خضيب شديد بياض الثياب على رأسه لاطئة فقلت للحسن بن أبي سعيد قال وهو ابن خالة المعلى بن أيوب وكان الحسن كاتب المأمون على العامة من هذا فقال أما تعرفه فقلت لو عرفته ما سألتك عنه فقال هذا أبو العتاهية فسمعت المأمون يقول له أنشدني أحسن ما قلت في الموت فأنشده :

أَنســـاكَ مَحْيــاكَ الممـــاتَا فطَلَبْـــتَ في الـــدنيا الثَّبـــاتَا

أَوَثِقْـــتَ بالـــدنيا وأنـــت تـــرى جَماعَتهـــا شَـــتاتَا

وعَزمـــتَ منـــك علـــى الحيـــاةِ وطُولِهـــا عَزْمـــاً بتَـــاتا

يا مَـــنْ رأى أبَوَيْـــه فـــيمَنْ قـــد رأى كـــانا فمـــاتا

هـــل فيهمـــا لـــك عِـــبْرةٌ أم خِلْـــتَ أنّ لـــك انفِـــلاتا

ومَـــن الـــذي طَلَـــب التَّفَلُّـــتَ مـــن مَنيّتِـــه ففـــاتا

كـــلٌّ تُصَـــبِّحه المنيَّـــةُ أو تُبَيِّتُـــه بَيـــاتا

آخر شعر قاله قبل موته

نسخت من كتاب هارون بن علي حدثني علي بن مهدي قال حدثني عبد

الله بن عطية قال حدثني مُحَمَّد بن أبي العتاهية قال آخر شعر قاله أبي في مرضه الذي مات فيه :

إلهـــــي لا تُعَـــــذِّبْنِي فــــإِنِّ مُقِــــرٌّ بالَّـــذي قـــد كـــان مِـــنِّي

فمـــــا لي حيلــــــةٌ إلاّ رجــــــائي لِعَفْــوِك إنْ عَفَــوْتَ وحُسْــنُ ظَــنِّي

وكَـــم مِـــنْ زَلَـــةٍ لي في الخَطَـــايا وأنـــتَ علـــيَّ ذو فَضْـــلٍ ومَـــنِّ

إذَا فَكَّـــرتُ في نَــــدَمي عليهــــا عَضِضْــتُ أَنامِلــي وقَرَعْــتُ سِــنِّي

أجـــنُّ بِزَهْـــرةِ الـــدُّنْيا جُنـــونا وأَقْطَــعُ طــولَ عُمْــري بالتَّمــنِّي

ولَـــوْ أَنِّ صَـــدَقْتُ الزُّهْـــدَ عنهـــا قلبـــتُ لأهلِهـــا ظَهْـــرَ المِجَـــنِّ

يَظُـــــنّ النـــــاسُ بي خـــــيراً وإِنِّ لَشَــرُّ الخَلْــقِ إنْ لم تَعْــفُ عــنِّي

أخبرني مُحَمَّد بن عمران الصيرفي قال حدثنا الحسن بن عليل قال حدثني أحمد بن حمزة الضبعي قال أخبرني أبو مُحَمَّد المؤدب قال قال أبو العتاهية لابنته رقية في علته التي مات فيها قومي يا بنية فاندبي أباك بهذه الأبيات فقامت فندبته بقوله:

لَعِـــبَ البِلَـــى بمَعَـــالِمِي ورُسُـــومي وقُـــبِرْتُ حَيًّـــا تحـــت رَدْمِ هُمـــومي

لَــزِمَ البِلَــى جِسْــمِي فَــأَوْهَنَ قُــوَّتي إنّ البِلَــــى لَمُوَكَّـــــلٌ بِلُزومــــــي

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال حدثنا مُحَمَّد بن داود بن الجراح قال حدثني عل بن مُحَمَّد قال حدثني مخارق المغني قال توفي أبو العتاهية وإبراهيم الموصلي وأبو عمرو الشيباني عبد السلام في يوم واحد في خلافة المأمون وذلك في سنة ثلاث عشرة ومائتين.

وذكر الحارث بن أبي أسامة عن مُحَمَّد بن سعد كاتب الواقدي أن أبا العتاهية مات في يوم الاثنين لثمان خلون من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة ومائتين ودفن حيال قنطرة الزياتين في الجانب الغربي ببغداد.

الشعر الذي كتب على قبره

أخبرني الصولي قال حدثني مُحَمَّد بن موسى عن مُحَمَّد بن القاسم عن إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد عن إسحاق بن عبد الله بن شعيب قال أمر أبو العتاهية أن يكتب على قبره:

أُذْنَ حَـــــــيٌّ تَسَـــــــمَّعِي ... إسْمَعِـــــي ثُمّ عِـــــي وعِـــــي

أنا رَهْـــــــنٌ بِمَضْـــــــجَعِي ... فَاحـــــذَرِي مِثْـــــلَ مَصْـــــرَعِي

عِشْـــــتُ تســـــعينَ حِجَّـــــةً ... أَسْـــــــلِمَتْني لمَضْـــــــجَعي

كَـــــمْ تـــــرى الحـــــيَّ ثابتـــــاً ... في دِيَارِ التزَعْـــــــــــزُعِ

لـــــيس زادٌ ســـــوى التُّقـــــى ... فخُـــــذِي منـــــه أوْ دَعِـــــي

٥

ذكر الأحوص وأخباره ونسبه

هو الأحوص وقيل إن اسمه عبد الله وإنه لقب الأحوص لحوص كان في عيينه.

وهو ابن مُحَّد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح واسم أبي الأقلح قيس بن عصيمة بن النعمان بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن مالك ابن عوف بن عمر بن عوف بن مالك بن الأوس وكان يقال لبني ضبيعة بن زيد في الجاهلية بنو كسر الذهب .. وقال الأحوص حين نفي إلى اليمن:

بَــدّل الــدّهْرُ مــن ضُــبَيْعةَ عَكًّــا　　　جِــيرةً وهــو يُعْقِــبُ الأبْــدالاَ

وكان جده عاصم يقال له حمي الدبر وكان رسول الله بعثه بعثا فقتله المشركون وأرادوا أن يصلبوه فحمته الدبر وهي النحل فلم يقدروا عليه حتى بعث الله عز و جل الوادي في الليل فاحتمله فذهب به، وفي ذلك يقول الأحوص مفتخرا:

وأنا ابــنُ الــذي حَمَــتْ لحمَــه الــدّبْرُ　　　قتيــلِ اللَّحيْــانِ يــومَ الرّجيــعِ

حدثنا بالخبر في ذلك مُحَّد بن جرير الطبري قال حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة بن الفضل قال حدثنا مُحَّد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة قال

قدم على رسول الله بعد أحد رهط من عضل والقارة فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاما وخيرا فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهونا في الدين ويقرئونا القرآن.

ويعلمونا شرائع الإسلام فبعث رسول الله معهم نفرا من ستة من أصحابه مرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب وخالد بن البكير حليف بني عدي بن كعب وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخا بني عمرو ابن عوف وخبيب بن عدي أخا بني جحجبى بن كلفة بن عمرو بن عوف وزيد ابن الدثنة أخا بني بياضة بن عامر وعبد الله بن طارق حليفا لبني ظفر من بلي وأمر رسول الله عليهم مرثد بن أبي مرثد فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع ماء لهذيل بناحية من الحجاز من صدر الهدأة غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا بالرجال في أيديهم السيوف قد غشوهم فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم فقالوا إنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم.

فأما مرثد ابن أبي مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقالوا إنا والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا فقاتلوهم حتى قتلوهم جميعا

وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي وعبد الله بن طارق فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم فأسروهم ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القرآن ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه فقبره بالظهران.

وأما خبيب بن عدي وزيد ابن الدثنة فقدموا بهما مكة فباعوهما فابتاع خبيبا حجير بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل وكان حجير أخا الحارث بن عامر بن نوفل لأمه ليقتله بأبيه.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأمية بن خلف أبيه وقد كانت هذيل حين قتل عاصم بن ثابت قد أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت

سعد بن شهيد وكانت قد نذرت حين قتل عاصم ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر فمنعته الدبر فلما حالت بينهم وبينه قالوا دعوه حتى يمسي فتذهب عنه فنأخذه فبعث الله عز وجل الوادي فاحتمل عاصما فذهب به.

وكان عاصم قد أعطى الله عز و جل عهدا لا يمسه مشرك أبدا ولا يمس مشركا أبدا تنجسا منه فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول حين بلغه أن الدبر منعته عجبا لحفظ الله عز و جل العبد المؤمن كان عاصم نذر ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا في حياته فمنعه الله بعد مماته كما امتنع منه في حياته.

بعض صفات الأحوص

أخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثنا إسماعيل بن عبد الله عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه قال كنية الأحوص أبو محمد وأمه أثيلة بنت عمير بن مخشي وكان أحمر أحوص العينين.

ماذا قال الفرزدق في شعر الأحوص ؟

قدم الفرزدق المدينة ثم خرج منها فسئل عن شعرائها فقال رأيت بها شاعرين وعجبت لهما أحدهما أخضر يسكن خارجا من بطحان يريد ابن هرمة والآخر أحمر كأنه وحرة على برودة في شعره يريد الأحوص، والوحرة يعسوب أحمر ينزل الأنبار.. وقال الأحوص يهجو نفسه ويذكر حوصه:

أَقْبِحْ بِهِ مِن وَلَدٍ وأَشْقِحِ ... مِثْلِ جُرَيِّ الكلب لم يُفَقِّحِ

إنْ يَرَ سُوءاً لم يَقُمْ فَيَنْبَحِ ... بالبابِ عند حاجةِ المُسْتَفْتِحِ

قال الزبير ولم يبق للأحوص من ولده غير رجلين .

رأي أبي الفرج فيه

قال الزبير وجعل مُحَّد بن سلام الأحوص وابن قيس الرقيات ونصيبا وجميل بن معمر طبقة سادسة من شعراء الإسلام وجعله بعد ابن قيس وبعد نصيب قال أبو الفرج والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنيء الأخلاق والأفعال أشد تقدما منهم عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة وهو أسمح طبعا وأسهل كلاما وأصح معنى منهم ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ ليست لواحد منهم وكان قليل المروءة والدين هجاء للناس مأبونا فيما يروى عنه تعرضه للخبازين وجلده من قبل عامل المدينة.

أخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثني عبد الرحمن بن عبد الله عن عمه موسى بن عبد العزيز قال وفد الأحوص على الوليد بن عبد الملك وامتدحه فأنزله منزلا وأمر بمطبخه أن يمال عليه ونزل على الوليد بن عبد الملك شعيب بن عبد الله بن عمرو بن العاصي فكان الأحوص يراود وصفاء للوليد خبازين عن أنفسهم ويريدهم أن يفعلوا به وكان شعيب قد غضب على مولى له ونحاه فلما خاف الأحوص أن يفتضح بمراودته الغلمان اندس لمولى شعيب ذلك فقال ادخل على أمير المؤمنين فاذكر له أن شعيبا أرادك عن نفسك ففعل المولى فالتفت الوليد إلى شعيب فقال ما يقول هذا فقال لكلامه غورا يا أمير المؤمنين فاشدد به يدك يصدقك فشدد عليه فقال أمرني بذلك الأحوص، فقال قيم الخبازين أصلحك الله إن الأحوص يراود الخبازين عن أنفسهم فأرسل به الوليد إلى ابن حزم بالمدينة وأمره أن يجلده مائة ويصب على رأسه زيتا ويقيمه على البلس ففعل ذلك به فقال وهو على البلس أبياته التي يقول فيها:

مـا مِـنْ مُصِـيبةِ نَكْبَـةٍ أمْـنَى بِهـا ... إلاّ تُشَـرِّفُني وتَرْفَـعُ شـاني

رفض عمر بن عبد العزيز أن يأذن له بالقدوم

فأما خبره في بقية أيام سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز فأخبرني به أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي قال حدثنا عون بن مُحَمَّد بن سلام قال حدثني أبي عمن حدثه عن الزهري وأخبرني به الطوسي والحرمي بن أبي العلاء قالا حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني عمي مصعب عن مصعب بن عثمان قال كان الأحوص ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة ويتغنى في شعره معبد ومالك ويشيع ذلك في الناس فنهي فلم ينته فشكي إلى عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة وسألوه الكتاب فيه إليه ففعل ذلك وكتب سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ويقيمه على البلس للناس ثم يصيره إلى دهلك ففعل ذلك به فثوى هناك سلطان سليمان بن عبد الملك ثم ولي عمر بن عبد العزيز فكتب إليه يستأذنه في القدوم ويمدحه فأبى أن يأذن له، وكتب فيما كتب إليه به :

أيا راكبـــاً إمّـــا عَرَضْـــتَ فَـــبلّغَنْ هُـــدِيتَ أمـــيرَ المـــؤمنين رســـائلي

وقُـــلْ لأبي حَفِـــصٍ إذا مـــا لَقيتَـــهُ لقـــد كنـــت نَفّاعـــاً قليـــلَ الغوائـــل

وكيـــف تـــرى للعـــيش طِيبـــاً ولـــذّةً وخالُـــك أمسَـــى مُوثَقـــاً في الحبائـــل

هذه الأبيات من رواية الزبير وحده ولم يذكرها ابن سلام قال فأتى رجال من الأنصار عمر بن عبد العزيز فكلموه فيه وسألوه أن يقدمه وقالوا له قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه وقد أخرج إلى أرض الشرك فنطلب إليك أن ترده إلى حرم رسول الله ودار قومه فقال لهم عمر فمن الذي يقول:

فمـــا هُـــوَ إلاّ أن أرَاهـــا فُجَـــاءةً فأُبْهَـــت حـــتَّى مـــا أكـــادُ أُجِيـــبُ

قالوا الأحوص ، قال فمن الذي يقول:

أَدُورُ ولـــــولا أنْ أرى أُمَّ جَعْفَـــــرٍ بأبيـــاتكم مـــا دُرْتُ حيـــث أدورُ

ومـــا كنـــتُ زَوَّاراً ولكِـــنّ ذا الهـــوى إذا لم يــــزرْ لا بُــــدَّ أنْ سَــــيَزُورُ

قالوا الأحوص .. قال فمن الذي يقول :

كـــأنّ لُبْـــنَى صَـــبِير غاديـــةٍ أو دُمْيـــةٌ زُيّنَـــتْ بهـــا البيـــعُ

اللهُ بيـــــني وبـــــين قَيِّمهـــــا يَفْـــرُّ مـــنّي بهـــا وأَتّبِـــعُ

قالوا الأحوص .. قال بل الله بين قيمها وبينه .. قال فمن الذي يقول:

ستَبْقى لها في مُضْمَرِ القلبِ والحَشَا ســريرةُ حُــبٍّ يــومَ تُبْلَــى السَّــرَائر

قالوا الأحوص .. قال إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول والله لا أرده ما كان لي سلطان ، قال فمكث هناك بقية ولاية عمر وصدرا من ولاية يزيد بن عبد الملك.

شعره الذي غنته حبابة

أخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير بن بكار قال كتب إلي إسحاق بن إبراهيم أن أبا عبيدة حدثه أن الأحوص لم يزل مقيما بدهلك حتى مات عمر بن عبد العزيز فدس إلى حبابة فغنت يزيد بأبيات له قال أبو عبيدة أظنها قوله:

أيُّهـــذا المُخَـــبِّري عـــن يزيـــدٍ بصَـــلاَحٍ فِـــدَاكَ أهلـــي ومـــالي

مـــا أُبالي إذا يزيـــدُ بقَـــي لي مَـــنْ تَولَّـــتْ بـــه صُـــروفُ الليـــالي

لم يجنسه كذا جاء في الخبر أنها غنته به ولم يذكر طريقته قال أبو عبيدة أراه عرض بعمر بن عبد العزيز ولم يقدر أن يصرح مع بني مروان فقال من يقول هذا

قالت الأحوص وهونت أمره وكلمته في أمانه فأمنه ، فلما أصبح حضر فاستأذنت له ثم أعطاه مائة ألف درهم.

أخبرنا الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن الهيثم بن عدي عن صالح ابن حسان أن الأحوص دس إلى حبابة فغنت يزيد قوله:

كـريمُ قُـرَيْشٍ حـين يُنْسَـبُ والـذي أقـرَّتْ لـه بالمُلْـكِ كُهْـلاً وأَمْـرِدَا

ولـيس وإن أعطـاك في اليـوم مانِعـاً إذا عُدْتَ مـن أضعاف أضعافِه غَدَا

أهـان تِـلادَ المـالِ في الحمـد إنَّـه إمـامُ هُـدىً يجـري علـى مـا تَعَـوَّدا

تَشـرَّف مجـداً مـن أبيـه وجَـدّه وقـد وَرِثا بُنْيَـان مجـدٍ تَشَـيّدا

فقال يزيد ويلك يا حبابة من هذا من قريش قالت ومن يكون أنت هو يا أمير المؤمنين فقال ومن قال هذا الشعر قالت الأحوص يمدح به أمير المؤمنين فأمر به أمير المؤمنين أن يقدم عليه من دهلك وأمر له بمال وكسوة.

إعجاب يزيد بن عبد الملك بشعره

دخل الأحوص على يزيد بن عبد الملك وهو خليفة فقال له يزيد والله لو لم تمت إلينا بحرمة ولا توسلت بدالة ولا جددت لنا مدحا غير أنك مقتصر على البيتين اللذين قلتهما فينا لكنت مستوجبا لجزيل الصلة مني حيث تقول:

وإنِّي لأَسـتحيِيكُمُ أنْ يقـودَني إلى غـيركم مـن سـائر النـاس مُطْمَـعُ

وأنْ أَجْتـدِي للنفـع غـيرَك مـنهمُ وأنـت إمـامُ للرعيّـة مَقْنَـعُ

قال وهذه قصيدة مدح بها عمر بن عبد العزيز:

إكرام يزيد له

أخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثني عبد الرحمن بن عبد الله الزهري قال حدثني عمر بن موسى بن عبد العزيز قال لما ولي يزيد بن عبد الملك بعث إلى الأحوص فأقدم عليه فأكرمه وأجازه بثلاثين ألف درهم فلا قدم قباء صب المال على نطع ودعا جماعة من قومه وقال إني قد عملت لكم طعاما فلما دخلوا عليه كشف لهم عن ذلك المال وقال "أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون"

قال الزبير وقال في يزيد بن عبد الملك يمدحه حينئذ بهذه القصيدة:

صَـــرَمتْ حَبْلَـــك الغـــداةَ نَـــوَارُ   إنّ صَـــرْماً لكـــلِّ حبـــلٍ قُصَـــارُ

وهي طويلة يقول فيها:

مَـــنْ يَكُـــنْ ســـائلاً فـــإنّ يزيـــداً   مَلِـــكٌ مِـــنْ عطَائـــه الإِكثـــارُ

عـــمَّ معروفُـــه فعَـــزَّ بـــه الـــدِّينُ   وذَلَّـــتْ لمُلْكِـــه الكُفَّـــارُ

وأقـــامَ الصِّـــراطَ فـــابتهَج الحَـــقُّ   منـــيراً كمـــا أنار النَّهـــارُ

عبد الملك بن مروان يتمثل بشعره

لما قدم عبد الملك بن مروان حاجا سنة خمس وسبعين وذلك بعدما اجتمع الناس عليه بعامين جلس على المنبر فشتم أهل المدينة ووبخهم ثم قال إني والله يا أهل المدينة قد بلوتكم فوجدتكم تنفسون القليل وتحسدون على الكثير وما وجدت لكم مثلا إلا ما قال مخنثكم وأخوكم الأحوص.

وكَـمْ نزلـتْ بي مـن خُطُـوبٍ مُهِمّـةٍ   خَـــذَلْتُمْ عليهـــا ثم لم أَتَخَشَّـــع

فـــأَدْبَر عـــنِّي شَـــرّها لم أُبَـــلْ بهـــا   ولم أَدْعُكُـــمْ في كَرْبِهـــا المُتَطلِّـــعِ

فقام إليه نوفل بن مساحق فقال يا أمير المؤمنين أقررنا بالذنب وطلبنا المعذرة فعد بحلمك فذلك ما يشبهنا منك ويشبهك منا فقد قال من ذكرت من بعد بيتيه الأولين.

وإِنّي لَمُسْـــتأنٍ ومُنْتَظِـــرٌ بكـــم وإنْ لم تقولـــوا في المُلمَّـــاتِ دَعْ دعِ

أُؤمِّـلُ مـنكم أنْ تَـرَوْا غـيرَ رأيكـم وشـيكاً وكيمـا تَنْزِعُـوا خـيرَ مَنْـزَعِ

رأي أبي الفرج فيه

قال أبو الفرج الأصبهاني وليس ما جرى من ذكر الأحوص إرادة للغض منه في شعره ولكنا ذكرنا من كل ما يؤثر عنه ما تعرف به حاله من تقدم وتأخر وفضيلة ونقص فأما تفضيله وتقدمه في الشعر فمتعالم مشهور وشعره ينبئ عن نفسه ويدل على فضله فيه وتقدمه وحسن رونقه وتهدبه وصفائه.

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء والطوسي قالا حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز قال حدثني عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلي قال حدثنا شيخ لنا من هذيل كان خالا للفرزدق من بعض أطرافه قال سمعت بالفرزدق وجرير على باب الحجاج فقلت لو تعرضت ابن أختنا فامتطيت إليه بعيرا حتى وجدتهما قبل أن يخلصا ولكل واحد منهما شيعة فكنت في شيعة الفرزدق فقام الآذان يوما فقال أين جرير فقال جرير هذا أبو فراس فأظهرت شيعته لومه وأسرته فقال الآذن أين الفرزدق فقام فدخل فقالوا لجرير أتناوئه وتهاجيه وتشاخصه ثم تبدى عليه فتأبى وتبديه قضيت له على نفسك فقال لهم إنه نزر القول ولم ينشب أن ينفد ما عنده وما قال فيه فيفاخره ويرفع نفسه عليه فما جئت به بعد حمدت عليه واستحسن.

شعره في مرض موته

قال الأحوص في مرضه الذي مات فيه وقال عامر بن صالح حين هرب من عبد الواحد النصري إلى البصرة:

يا بِشْـــرُ يا رُبَّ مَحْـــزونٍ بمَصـــرَعنا وشَــامِتٍ جَــذِلٍ مــا مَسَّــهُ الحَــزَنُ

ومـا شَمَـاتُ امْـرئٍ إن مـاتَ صـاحبهُ وقــد يَــرَى أنَّــه بالمــوت مُــرْتَهَنُ

يا بشْــرُ هُــبِّي فــإنّ النَّــوْمَ أرّقَــهُ نأْي مُشِــتٌّ وأرضٌ غيرُهــا الــوَطَنُ

٦

ذكر النابغة الجعدي ونسبه وأخباره

هو على ما ذكر أبو عمرو الشيباني والقحذمي وهو الصحيح حبان بن قيس بن عبد الله بن وحوح بن عدس وقيل ابن عمرو بن عدس مكان وحوح ابن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ابن مضر هذا النسب الذي عليه الناس اليوم مجتمعون.

وقد روى ابن الكلبي وأبو اليقظان وأبو عبيدة وغيرهم في ذلك روايات تخالف هذا فمنها أن ابن الكلبي ذكر عن أبيه أن خصفة الذي يقول الناس إنه ابن قيس بن عيلان ليس كما قالوا وأن عكرمة ابن قيس بن عيلان وخصفة أمه وهي امرأة من أهل هجر وقيل بل هي حاضنته وكان قيس بن عيلان قد مات وعكرمة صغير فربته حتى كبر وكان قومه يقولون هذا عكرمة بن خصفة فبقيت عليه ومن لا يعلم يقول عكرمة بن خصفة بن قيس كما يقال خندف وإنما هي امرأة وزوجها إلياس بن مضر.

وقالوا في صعصعة بن معاوية إن الناقمية بنت عامر بن مالك وهو الناقم سمي بذلك لأنه انتقم بلطمة لطمها وهو ابن سعد بن جدان بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار كانت عند معاوية بن بكر بن هوازن فمات عنها أو طلقها وهي نسء فتزوجها سعد بن زيد مناة بن تميم فولدت على فراشه صعصعة ابن معاوية ثم ولدت هبيرة ونجدة وجنادة فلما مات سعد اقتسم بنوه الميراث وأخرجوا صعصعة منه وقالوا أنت ابن معاوية بن بكر فلما رأى ذلك أتى بني

معاوية بن بكر فأقروا بنسبه ودفعوه عن الميراث فلما رأى ذلك أتى سعد بن الظرب العدواني فشكا إليه ما لقي فزوجه بنت أخيه عمرة بنت عامر بن الظرب وأبوها عامر الذي يقال له ذو الحلم وعمرة ابنته هذه هي التي كانت تقرع له العصا إذا سها في الحكم وله يقول الشاعر:

لذي الحِلْم قبلَ اليومِ ما تُقَرع العصا ... ومـــا عُلِّـــم الإنســـانُ إلا ليَعْلَمَـــا

قال وكانت عمرة يوم زوجها عمها نسئا من ملك من ملوك اليمن يقال له الغافق بن العاصي الأزدي والمُلك يومئذ في الأزد فولدت على فراش صعصعة عامر بن صعصعة فسماه صعصعة عامرا بجده عامر ابن الظرب ويكنى النابغة أبا ليلى.

وقال ابن الأعرابي هو قيس بن عبد الله بن عمرو بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة ووافق ابن سلام في باقي نسبه وهذا وهم ممن قال إن اسمه قيس وليس يشك في أنه كان له أخ يقال له وحوح بن قيس وهو الذي قتله بنو أسد وخبره يذكر بعد هذا ليصدق نسب النابغة ، وأمه فاخرة بنت عمرو بن جابر بن شحنة الأسدي.

سبب لقبه النابغة

وإنما سمي النابغة لأنه أقام مدة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله أخبرني الحسين بن يحيى قال قال حماد قرأت على القحذمي قال الجعدي الشعر في الجاهلية ثم أجبل دهرا ثم نبغ بعد في الشعر في الإسلام.

قال ابن الأعرابي أقام النابغة الجعدي ثلاثين سنة لا يتكلم ثم تكلم بالشعر قال القحذمي في رواية حماد عنه كان الجعدي أسن من نابغة بني ذبيان..

قال ابن سلام في رواية أبي خليفة عنه كان الجعدي النابغة قديما شاعرا طويلا مفلقا طويل البقاء في الجاهلية والإسلام وكان أكبر من الذبياني ويدل

على ذلك قوله:

ومـــن يـــكُ ســـائلاً عـــنّي فـــإني مــــــن الفِتيــــــان أيامَ الخُنَــــــانِ

أتـــت مائـــةٌ لعـــامَ وُلـــدتُ فيـــه وعَشْـــــرٌ بعـــــد ذاك وحِجّتَــــان

فقــد أَبقــتْ خطــوبُ الــدّهر مــنّي كمــا أبقــتْ مــن الســيفِ اليَمــانِي

سئل مُحَمَّد بن حبيب عن أيام الخنان ما هي فقال وقعة لهم فقال قائل منهم وقد لقوا عدوهم خنوهم بالرماح فسمي ذلك العام الخنان ويدل على أنه أقدم من النابغة الذبياني أنه عمر مع المنذر بن المحرق قبل النعمان بن المنذر وكان النابغة الذبياني مع النعمان بن المنذر وفي عصره ولم يكن له قدم إلا أنه مات قبل الجعدي ولم يدرك الإسلام.

النابغة يعمر طويلا

وأخبرني بعض أصحابنا عن أبي بكر بن دريد عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي عن عمه قال أنشد رجل من العجم قول النابغة الجعدي:

لبِســــــتُ أُناســـــــاً فـــــــأفنيتُهم وأفنيـــــــتُ بعـــــــد أُناس أناسَـــــا

وفسر له فقال بدين شان بود أي هذا رجل مشؤوم .. وأما ابن قتيبة فإنه ذكر ما رواه لنا عنه إبراهيم بن مُحَمَّد أنه عمر مائتين وعشرين سنة ومات بأصبهان وما ذاك بمنكر لأنه قال لعمر رضي الله تعالى عنه إنه أفنى ثلاثة قرون كل قرن ستون سنة فهذه مائة وثمانون ثم عمر بعده فمكث بعد قتل عمر خلافة عثمان وعلي ومعاوية ويزيد وقدم على عبد الله بن الزبير بمكة وقد دعا لنفسه فاستماحه ومدحه وبين عبد الله ابن الزبير وبين عمر نحو مما ذكر ابن قتيبة بل لا أشك أنه قد بلغ هذه السن وهاجى أوس بن مغراء بحضرة الأخطل

والعجاج وكعب بن جعيل فغلبه أوس وكان مغلبا.

حدثنا أحمد بن عمر بن موسى القطان المعروف بابن زنجوية قال حدثنا إسماعيل بن عبد الله السكري قال حدثنا يعلى بن الأشدق العقيلي قال حدثني نابغة بني جعدة قال: أنشدت النبي هذا الشعر فأعجب به :

بلغنـــا الســـماء مَجــدُنا وجـــدودُنا   وإنا لنَبْغِـــي فـــوقَ ذلـــك مَظْهَـــرَا

فقال النبي " فأين المظهر يا أبا ليلى " فقلت الجنة فقال " قل إن شاء الله " فقلت إن شاء الله :

ولا خَيْــرَ في حِلْــم إذا لم يكــن لــه   بَـــوَادِرُ تَحْمِـــي صَـــفْوَه أن يُكـــدَرَا

ولا خــيرَ في جهــلٍ إذا لم يكــن لــه   حَلــيمٌ إذا مــا أَوْردَ الأمــرَ أَصْــدَرَا

فقال النبي " أجدت لا يفضض الله فاك " قال فلقد رأيته وقد أتت عليه مائة سنة أو نحوها وما انفض من فيه سن.

النابغة ممن أنكر الخمر والسكر في الجاهلية

كان النابغة الجعدي ممن فكر في الجاهلية وأنكر الخمر والسكر وما يفعل بالعقل وهجر الأزلام والأوثان وقال في الجاهلية كلمته التي أولها:

الحمـــــد لله لا شـــــريكَ لَـــــهُ   مـــن لم يقُلْهـــا فنفسَـــه ظَلَمـــا

وكان يذكر دين إبراهيم والحنيفية ويصوم ويستغفر ويتوقى أشياء لعواقبها

ووفد على النبي فقال:

أتيــتُ رســولَ الله إذ جــاء بالهُــدى   ويتلـــو كتـــاباً كـــالمَجَرّة نَـــيّرًا

وجاهـدتُ حتى مـا أُحِسّ ومـن معي   سُـــهَيْلاً إذا مـــا لاح ثُمَّـــتَ غَـــوّرا

أُقـيم علـى التقـوى وأرضـى بفعلهـا وكنـتُ مِـنَ النـار المخَوُفـة أَوْجَـرَا

وحسن إسلامه وأنشد النبي فقال له " لا يفضض الله فاك " وشهد مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه صفين وقد ذكر خبره مع عمر ﷺ وأما خبره مع عثمان فأخبرنا به أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبة قال قال مسلمة بن محارب دخل النابغة الجعدي على عثمان رضي الله تعالى عنه فقال أستودعك الله يا أمير المؤمنين قال وأين تريد يا أبا ليلى قال ألحق بإبلي فأشرب من ألبانها فإني منكر لنفسي فقال أتعربا بعد الهجرة يا أبا ليلى أما علمت أن ذلك مكروه قال ما علمته وما كنت لأخرج حتى أعلمك قال فأذن له وأجل له في ذلك أجلا فدخل على الحسن والحسين ابني علي فودعهما فقالا له أنشدنا من شعرك يا أبا ليلى فأنشدهما:

الحمـــــدُ لله لا شـــــريكَ لـــــهُ مـــن لم يقُلْهـــا فنفْسَـــه ظلَمَـــا

فقالا يا أبا ليلى ما كنا نروي هذا الشعر إلا لأمية بن أبي الصلت فقال يا بني رسول الله إني لصاحب هذا الشعر وأول من قاله وإن السروق لمن سرق شعر أمية.

سبب مهاجاته ليلى الأخيلية

وقال أبو عمرو الشيباني كان سبب المهاجاة بين ليلى الأخيلية وبين الجعدي أن رجلا من قشير يقال له ابن الحيا وهي أمه واسمه سوار بن أوفى بن سبرة هجاه وسب أخواله من أزد في أمر كان بين قشير وبين بني جعدة وهم بأصبهان متجاورون فأجابه النابغة بقصيدته التي يقال لها الفاضحة سميت بذلك لأنه ذكر فيها مساوي قشير وعقيل وكل ما كانوا يسبون به وفخر بمآثر قومه وبما كان لسائر بطون بني عامر سوى هذين الحيين من قشير وعقيل:

جَهِلـتَ علـيّ ابـنَ الحيـا وظلمتَـني وجَمّعـت قـولاً جـاء بيتـاً مُضـلّلا

وقال في هذه القصة أيضا قصيدته التي أولها:

إمّا تَـرَىْ ظُلَـلَ الأيّامِ قـد حَسِـرتْ عـــنّي وشَمّـــرتُ ذَيـــلاً كـــان ذَيَالا

وهي طويلة يقول فيها:

ويـــومَ مكّـــةَ إذْ ماجَـــدْتُمُ نَفَـــراً حَـامَوْا علـى عُقَـد الأحسـابِ أَزْوَالا

عنـد النّجاشـيّ إذ تُعطـون أيـديَكم مُقـــرَّنين ولا تَرجُـــون إرْســـالا

إذ تَسـتحِبُّونَ عنـد الحَـذْل أنّ لكـم مِـنْ آل جَعْـدة أعمامـاً وأخْـوَالا

لـو تسـتطيعون أنْ تُلْقـوا جُلـودَكُم وتجعلـوا جِلْـدَ عبـد الله سِـرْبالا

يعني عبد الله بن جعدة بن كعب:

إذاً تســـرْبلتُم فيـــه ليُنجـــيَكم ممّـا يقـولُ ابـنُ ذي الجَـدّين إذْ قَـالا

حـــتّى وَهبـــتم لعبـــد الله صـــاحبَه والقـولُ فـيكم بإذن الله مـا فـالا

تلـك المكـارمُ لاقَعْبَـانِ مـن لَـبنٍ شِـيبَا بمـاءٍ فعـادَا بعـدُ أبْـوالا

يعني بهذا البيت أن ابن الحيا فخر عليه بأنهم سقوا رجلا من جعدة أدركوه في سفر وقد جهد عطشا لبنا وماء فعاش وقال في هذه القصة أيضا قصيدته التي أولها :

أبلـــغ قُشَـــيراً والحَـــرِيشَ فمـــا ذا ردّ في أيـــــديكم شَـــــتْمي

وفخر عليهم بقتل علقمة الجعفي يوم وادي نساح وقتل شراحيل بن الأصهب الجعفي وبيوم رحرحان أيضا فقال فيه:

هَـلاّ سـألتَ بيـومَيْ رَحْرحـان وقـد ظنّـتْ هَـوازنُ أنّ العِـزَ قـد زَالا

فلما ذكر ذلك النابغة قال:

تلــك المكــارم لا قَعبَــانِ مــن لــبن　　　شِــيبَا بمــاءٍ فعــادا بعــدُ أبــوالا

ففخر بما له وغض مما لهم ، ودخلت ليلى الأخيلية بينهما فقالت:

ومـا كنـتُ لـو قاذفـتُ جـلّ عشـيرتي　　　لأذكــر قَعْــبَيْ حــازرٍ قــد تَــثَمَّلا

وهي كلمة ، فلما بلغ النابغة قولها قال:

ألا حَيِّيــا ليلَــى وقُــولا لهــا هَــلا　　　فقــد رَكِبــتْ أيْــراً أغــرَّ مُحَجَّــلا

وقــد أكلــتْ بقــلاً وخيمــاً نباتُــه　　　وقـد شَـرِبتْ مـن آخـر الصـيف أَيّـلا

يعني ألبان الأيل:

دَعِـي عنـكِ تَهْجَـاءَ الرجـال وأَقْبِلـي　　　علــى أَذْلِغــيٍّ يمــلأ اســتَكِ فَيْشَــلا

وكيــف أُهــاجي شــاعراً رُمحــه اســتُه　　　خَضِــيبَ البَنــانِ لا يــزال مُكَحَّــلا

فردت عليه ليلى الأخيلية فقالت:

أنابــغُ إن تَنْبــغ بلؤمــك لا تجــدْ　　　للؤمــك إلاّ وسْــط جَعْــدة مَجْعَــلا

تُعـــــيِّرني داءً بأمّـــــك مثلُـــــه　　　وأيّ حَصَــانٍ لا يُقــال لهــا هَــلا

فغلبته ، فلما أتى بني جعدة قولها هذا اجتمع ناس منهم فقالوا والله لنأتين صاحب المدينة أو أمير المؤمنين فليأخذن لنا بحقنا من هذه الخبيثة فإنها قد شتمت أعراضنا وافترت علينا فتهيؤوا لذلك وبلغها أنهم يريدون أن يستعدوا عليها فقالت :

أتَانِي مـــن الأنبـــاء أنّ عشـــيرةً　　　بَشــورانَ يُزْجــون المطــيّ المُــذَلَّلا

يــروح ويغــدو وفــدُهم بصــحيفةٍ		ليَســتجلدوا لي ســاء ذلــك مَعْمَــلا

النابغة وابن الزبير

وحدثني خبره مع ابن الزبير جماعة منهم حبيب بن نصر المهلبي عمر بن عبد العزيز بن أحمد والحرمي بن أبي العلاء ووكيع ومُحَّد بن جرير الطبري حدثنيه من حفظه قالوا حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا أخي هارون بن أبي بكر عن يحيى بن إبراهيم عن سليمان بن مُحَّد بن يحيى بن عروة عن أبيه عن عمه عبد الله بن عروة قال أَقْحمت السنةُ نابغةَ بني جعدة فدخل على ابن الزبير المسجد الحرام فأنشده:

حَكَيــتَ لنــا الصِّــدِّيق لمّــا وَليتَنــا		وعمثــانَ والفــاروقَ فــارتاح مُعــدمُ

أتاك أبــو ليلــى يجُــوب بــه الــدُّجى		دُجــىَ الليــلَ جــوّابُ الفــلاة عَثَمْــثَمُ

لتجُــبر منــه جانبــاً زَعْزَعــت بــه		صُــروفُ الليــالي والزمــانُ المُصــمَّم

فقال له ابن الزبير هون عليك أبا ليلى فإن الشعر أهون وسائلك عندنا أما صفوة مالنا فلآل الزبير وأما عفوته فإن بني أسد بن عبد العزى تشغلها عنك وتيما معها ولكن لك في مال الله حقان حق برؤيتك رسول الله وحق بشركتك أهل الإسلام في فيئهم ثم أخذ بيده فدخل به دار النعم فأعطاه قلائص سبعا وجملا رجيلا وأوقر له الإبل برا وتمرا وثيابا فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحب صرفا فقال ابن الزبير ويح أبي ليلى لقد بلغ به الجهد فقال النابغة أشهد أني سمعت رسول الله يقول " ما وليت قريش فعدلت واسترحمت فرحمت وحدثت فصدقت ووعدت خيرا فأنجزت فأنا والنبيون فراط القاصفين ".

٧

حرب بكر وتغلب

حرب البسوس

وكان السبب في قتل كليب بن ربيعة فيما ذكره أبو عبيدة عن مقاتل الأحول بن سنان بن مرثد بن عبد بن عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد أخي بني قيس بن ثعلبة ونسخت بعضه من رواية الكلبي وأخبرنا به مُحَمَّد ابن العباس اليزيدي عن عمه عبيد الله عن ابن حبيب عن ابن الأعرابي عن المفضل فجمعت من روايتهم ما احتيج إلى ذكره مختصر اللفظ كامل المعنى أن كليبا كان قد عز وساد في ربيعة فبغى بغيا شديدا وكان هو الذي ينزلهم منازلهم ويرحلهم ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره.

فبلغ من عزه وبغيه أنه اتخذ جرو كلب فكان إذا نزل منزلا به كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردها أحد إلا بإذنه أو من آذن بحرب فضرب به المثل في العز فقيل أعز من كليب وائل وكان يحمي الصيد ويقول صيد ناحية كذا وكذا في جواري فلا يصيد أحد منه شيئا وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس ولا يحتبي أحد في مجلسه غيره فقتله جساس بن مرة.

وكان كليب بن ربيعة ليس على الأرض بكري ولا تغلبي أجار رجلا ولا بعيرا إلى بإذنه ولا يحمي حمى إلا بأمره وكان إذا حمى حمى لا يقرب وكان لمرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة عشرة بنين جساس أصغرهم وكانت أختهم عند كليب.

وقال مقاتل وفراس وأم جساس هيلة بنت منقذ بن سليمان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة ثم خلف عليها سعد ابن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بعد مرة بن ذهل فولدت له مالكا وعوفا وثعلبة قال فراس بن خندق البسوسي فهي أمنا وخالة جساس البسوس وقال أبو برزة البسوسية وهي التي يقال لها أشأم من البسوس فجاءت فنزلت على ابن أختها جساس فكانت جارة لبني مرة ومعها ابن لها ولهم ناقة خوارة من نعم بني سعد ومعها فصيل.

أخبرني علي بن سليمان قال قال أبو برزة وقد كان كليب قبل ذلك قال لصاحبته أخت جساس هل تعلمين على الأرض عربيا أمنع مني ذمة فسكتت ثم أعاد عليها الثانية فسكتت ثم أعاد عليها الثالثة فقالت نعم أخي جساس وندمانه ابن عمه عمرو المزدلف بن أبي ربيعة بن ذهل ابن شيبان وزعم مقاتل أن امرأته كانت أخت جساس فبينا هي تغسل رأس كليب وتسرحه ذات يوم إذ قال من أعز وائل فصمتت فأعاد عليها فلما أكثر عليها قالت أخواي جساس وهمام فنزع رأسه من يدها وأخذ القوس فرمى فصيل ناقة البسوس خالة جساس وجارة بني مرة فقتله فأغمضوا على ما فيه وسكتوا على ذلك، ثم لقي كليب ابن البسوس فقال ما فعل فصيل ناقتكم قال قتلته وأخليت لنا لبن أمه فأغمضوا على هذه أيضا ثم إن كليبا أعاد على امرأته فقال من أعز وائل فقالت أخواي فأضمرها وأسرها في نفسه وسكت حتى مرت به إبل جساس فرأى الناقة فأنكرها فقال ما هذه الناقة قالوا لخالة جساس قال أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير علي بغير إذني ارم ضرعها يا غلام قال فراس فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر فقال احلبوا لها مكيالي لبن بمحلبها ولا تذكروا لها من هذا شيئا ثم أغمضوا عليها أيضا.

قال مقاتل حتى أصابتهم سماء فغدا في غبها يتمطر وركب جساس بن مرة وابن عمه عمرو بن الحارث ابن ذهل وقال أبو برزة بل عمرو بن أبي ربيعة وطعن عمرو كليبا فحطم صلبه وقال أبو برزة فسكت جساس حتى ظعن ابنا وائل فمرت بكر ابن وائل على نهي يقال له شبيث فنفاهم كليب عنه وقال لا يذوقون منه قطرة ثم مروا على نهي آخر يقال له الأحص فنفاهم عنه وقال لا يذوقون منه قطرة ثم مروا على بطن الجريب فمنعهم إياه فمضوا حتى نزلوا الذنائب واتبعهم كليب وحيه حتى نزلوا عليه ثم مر عليه جساس وهو واقف على غدير الذنائب فقال طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشا فقال كليب ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون فمضى جساس ومعه ابن عمه المزدلف.

وقال بعضهم بل جساس ناداه فقال هذا كفعلك بناقة خالتي فقال له أو قد ذكرتها أما إني لو وجدتها في غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل بها فعطف عليه جساس فرسه فطعنه برمح فأنفذ حضنيه فلما تداءمه الموت قال يا جساس اسقني من الماء قال ما عقلت استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه قال أبو برزة فعطف عليه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة فاحتز رأسه وأما مقاتل فزعم أن عمرو بن الحارث بن ذهل الذي طعنه فقصم صلبه.

وكان همام بن مرة آخى مهلهلا وعاقده ألا يكتمه شيئا فجاءت إليه أمة له فأسرت إليه قتل جساس كليبا فقال له مهلهل ما قالت فلم يخبره فذكره العهد بينهما فقال أخبرت أن جساسا قتل كليبا فقال است أخيك أضيق من ذلك وزعم مقاتل أن هماما كان آخى مهلهلا وكان عاقده ألا يكتمه شيئا فكانا جالسين فمر جساس يركض به فرسه مخرجا فخذيه فقال همام إن له لأمرا والله ما رأيته كاشفا فخذيه قط في ركض فلم يلبث إلا قليلا حتى جاءته الخادم

فسارته أن جساسا قتل كليبا فقال له مهلهل ما أخبرتك قال أخبرتني أن أخي قتل أخاك قال هو أضيق استا من ذلك وتحمل القوم وغدا مهلهل بالخيل.

وقال المفضل في خبره فلما قتل كليب قالت بنو تغلب بعضهم لبعض لا تعجلوا على إخوتكم حتى تعذروا بينكم وبينهم فانطلق رهط من أشرافهم وذوي أسنانهم حتى أتوا مرة بن ذهل فعظموا ما بينهم وبينه وقالوا له اختر منا خصالا إما أن تدفع إلينا جساسا فنقتله بصاحبنا فلم يظلم من قتل قاتله وإما أن تدفع إلينا هماما وإما أن تقيدنا من نفسك فسكت وقد حضرته وجوه بني بكر بن وائل فقالوا تكلم غير مخذول فقال أما جساس فغلام حديث السن ركب رأسه فهرب حين خاف فلا علم لي به وأما همام فأبو عشرة وأخو عشرة ولو دفعته إليكم لصيح بنوه في وجهي وقالوا دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره وأما أنا فلا أتعجل الموت وهل تزيد الخيل على أن تجول جولة فأكون أول قتيل ولكن هل لكم في غير ذلك هؤلاء بني فدونكم أحدهم فاقتلوه به وإن شئتم فلكم ألف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل فغضبوا وقالوا إنا لم نأتك لترذل لنا بنيك ولا لتسومنا اللبن فتفرقوا ووقعت الحرب.

وتكلم في ذلك عند الحارث بن عباد فقال لا ناقة لي في هذا ولا جمل وهو أول من قالها وأرسلها مثلا قالوا جميعا كانت حربهم أربعين سنة فيهن خمس وقعات مزاحفات وكانت تكون بينهم مغاورات وكان الرجل يلقى الرجل والرجلان الرجلين ونحو هذا وكان أول تلك الأيام يوم غنيزة وهي عند فلجة فتكافؤوا فيه لا لبكر ولا لتغلب وتصديق ذلك قول مهلهل:

كـــأنّا غُـــدوةً وبَـــنى أبينـــا بجَنْـــب عُنَيـــزةٍ رَحَيَـــا مُـــدِيرِ

ولـــولا الـــريحُ أُسمِـــع مَـــنْ بحَجْـــرٍ صـــليلَ البِـــيض تُقـــرَع بالـــذُّكور

فتفرقوا ثم غبروا زمانا ثم التقوا يوم واردات وكان لتغلب على بكر وقتلوا بكرا أشد القتل وقتلوا بجيرا وذلك قول مهلهل:

فـــإني قـــد تركـــتُ بِـــوارِداتٍ   بُجَـــيراً في دَمٍ مثـــــلِ العَبَـــــيرِ

هتكـــتُ بـــه بيـــوتَ بـــني عُبَـــادٍ   وبعـــضُ الغَشْـــم أَشـــفَى للصـــدور

قال مقاتل إنه إنما التقط توا وسيجيء حديثه أسفل من هذا التو الفرد يقال وجدته توا أي وحده قال أبو برزة ثم انصرفوا بعد يوم واردات غير بني ثعلبة بن عكابة ورأسوا على أنفسهم الحارث بن عباد فاتبعتهم بنو ثعلبة بن عكابة حتى التقوا بالحنو فظهرت بنو ثعلبة على تغلب.

يوما القصيبات وقضة

قال مقاتل ثم التقوا يوم بطن السرو وهو يوم القصيبات وربما قبل يوم القصيبة وكان لبني تغلب على بكر حتى ظنت بكر أن سيقتلونها قال مقاتل وقتلوا يومئذ همام بن مرة ثم التقوا يوم قضة وهو يوم التحالق ويوم الثنية ويوم قضة ويوم الفصيل لبكر على تغلب.

قال أبو برزة اتبعت تغلب بكرا فقطعوا رملات خزازى والرغام ثم مالوا لبطن الحمارة فوردت بكر قضة فسقت وأسقت ثم صدرت وحلؤوا تغلب ونهضوا في نجعة يقال لها موبية لا يجوز فيها إلا بعير بعير فلحق رجل من الأوس بن تغلب بغليم من بني تيم اللات بن ثعلبة يطرد ذودا له فطعن في بطنه بالرمح ثم رفعه فقال تحد بي أم البو على بوك فرآه عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة فقال أنفذوا جمل أسماء ابنته فإنه أمضى جمالكم وأجودها منفذا فإذا نفذ تبعته النعم فوثب الجمل في الموبية حتى إذا نهض على يديه وارتفعت رجلاه ضرب عرقوبيه وقطع بطان الظعينة فوقع فسد الثنية ثم قال عوف أنا البرك

أبرك حيث أدرك فسمي البرك ووقع الناس إلى الأرض لا يرون مجازا وتحالقوا لتعرفهم النساء فقال جحدر بن ضبيعة بن قيس أبو المسامعة واسمه ربيعة قال وإنما سمي جحدرا لقصره لا تحلقوا رأسي فإني رجل قصير لا تشينوني ولكني أشتريه منكم بأول فارس يطلع عليكم من القوم فطلع ابن عناق فشد عليه فقتله.

مقتل همام بن مرة

وزعم مقاتل أن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان لم يزل قائد بكر حتى قتل يوم القصيبات وهو قبل يوم قضة ويوم قضة على أثره وكان من حديث مقتل همام أنه وجد غلاما مطروحا فالتقطه ورباه وسماه ناشرة فكان عنده لقيطا فلما شب تبين أنه من بني تغلب فلما التقوا يوم القصيبات جعل همام يقاتل فم يقاتل فإذا عطش رجع إلى قربة فشرب منها ثم وضع سلاحه فوجد ناشرة من همام غفلة فشد عليه بالعنزة فأقصده فقتله ولحق بقومه تغلب فقال باكي همام:

لقــد عَيّــل الأقــوامَ طعنــةُ ناشِــرَهْ أناشِــرُ لا زالــتْ يمِيُنــك آشِــرَهْ

ثم قتل ناشرة رجل من بني يشكر فلما كان يوم قضة وتجمعت إليهم بكر جاء إليهم الفند الزماني أحد بني زمان بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن وائل من اليمامة قال عامر بن عبد الملك المسمعي فرأسوه عليهم فقلت أنا لفراس بن خندق إن عامرا يزعم أن الفند كان رئيس بكر يوم قضة فقال رحم الله أبا عبد الله كان أقل الناس حظا في علم قومه.

وقال فراس كان رئيس بكر بعد همام الحارث بن عباد.

قال مقاتل وكان الحارث ابن عباد قد اعتزل يوم قتل كليب وقال لا أنا من هذا ولا ناقتي ولا جملي ولا عدلي وربما قال لست من هذا ولا جملي ولا رحلي

وخذل بكرا عن تغلب واستعظم قتل كليب لسؤدده في ناقة.

المهلهل وأسره ونجاته

وقال فراس بن خندق بل كان رئيسهم يوم قضة الحارث بن عباد قال مقاتل فأسر الحارث بن عباد عديا وهو مهلهل بعد انهزام الناس وهو لا يعرفه فقال له دلني على المهلهل قال ولي دمي قال ولك دمك قال ولي ذمتك وذمة أبيك قال نعم ذلك لك قال فأنا مهلهل .. قال دلني على كفء لبجير قال لا أعلمه إلا امرأ القيس بن أبان هذاك علمه فجز ناصيته وقصد قصد امرئ القيس فشد عليه فقتله ، فقال الحارث في ذلك :

لَهْفَ نفسي على عَدِيٍّ ولم أَعرِفْ عَدِيًّا إذ أمكنتْني اليدانِ

طُلَّ مَنْ طُلَّ في الحروب ولم أُوتِرْ بُجَيراً أَبَأْتُهُ ابنَ أبانِ

فارسٌ يَضرِب الكتيبةَ بالسيف وتسمو أَمامَه العينانِ

وزعم حجر أن مهلهلا قال لا والله أو يعهد لي غيرك قال الحارث أختر من شئت قال أختار الشيخ القاعد عوف بن محلم قال الحارث يا عوف أجره قال لا حتى يقعد خلفي فأمره فقعد خلفه فقال أنا مهلهل وأما مقاتل فقال إنما أخذه في دور الرحى وحومة القتال ولم يقعد أحد بعد فكيف يقول الشيخ القاعد قال مقاتل وشد عليهم جحدر فاعتوره عمرو وعامر فطعن عمرا بعالية الرمح وطعن عامرا بسافلته فقتلهما عداء وجاء ببزهما.

قال عامر بن عبد الملك المسمعي فحدثني رجل عالم قال سألني الوليد بن يزيد من قتل عمرا وأخاه عامرا قلت جحدر قال صدقت فهل تدري كيف قتلهما قلت نعم قتل عمرا بسنان الرمح وقتل عامرا بزجه قال وقتل جحدر أيضا أبا مكنف.

قال مقاتل فلما رجع مهلهل بعد الوقعة والأسر إلى أهله جعل النساء والولدان يستخبرونه تسأل المرأة عن زوجها وابنها وأخيها والغلام عن أبيه وأخيه فقال:

ليس مثلي يُخبِّر الناسَ عن آبائهم	قُتلِّوا ويَنْسَى القِتالاَ
لم أرِمْ عَرْصةَ الكتيبةِ حتّى انتعل	الوَرْدُ من دماءٍ نِعالا
عَرَفَتْه رِمَاحُ بكرٍ فما يأخُذن	إلا لَبَانَه والقَذَالا
غلَبونا ولا محالةَ يوماً	يَقلِبُ الدهرُ ذاك حالاً فحالاً

ثم خرج حتى لحق بأرض اليمن فكان في جنب فخطب إليه أحدهم ابنته فأبى أن يفعل فأكرهوه فأنكحها إياه فقال في ذلك مهلهل:

أنكحَها فقدُها الأرَاقِمَ في	جَنْبٍ وكان الحَباءُ من أَدَمِ
لو بأبَانَيْن جاء يخطُبها	ضُرِّج ما أَنفُ خاطبٍ بدَمِ
أصبحتُ لا مُنْفِساً أصبتُ ولا	أُبْتُ كريماً حُرًّا من النَّدَمِ
هان على تَغْلِبٍ بما لَقِيتْ	أختُ بني المالِكِين من جُشَمِ
ليسوا بأكفائنا الكرام ولا	يُغْنُون من عَيْلةٍ ولا عَدَمِ

ثم إن مهلهلا انحدر فأخذه عمرو بن مالك بن ضبيعة فطلب إليه أخواله بنو يشكر وأم مهلهل المرادة بنت ثعلبة بن جشم بن غبر اليشكرية وأختها منة بنت ثعلبة أم حيي بن وائل وكان المحلل بن ثعلبة خالهما فطلب إلى عمرو أن يدفعه إليه فيكون عنده ففعل فسقاه خمرا فلما طابت نفسه تغنى:

طَفْلــةٌ مــا ابنــةُ المُحلّــل بيضــاءُ   لَعُــــوبٌ لذيــــذةٌ في العِنــــاقِ

حتى فرغ من القصيدة فأدى ذلك من سمعه من المهلهل إلى عمرو فحوله إليه واقسم ألا يذوق عنده خمرا ولا ماء ولا لبنا حتى يرد ربيب الهضاب جمل له كان أقل وروده في الصيف الخمس فقالوا له يا خير الفتيان أرسل إلى ربيب فلتؤت به قبل وروده ففعل فأوجره ذنوبا من ماء فلما تحلل من يمينه سقاه من ماء الحاضرة وهو أوبأ ماء رأيته فمات فتلك الهضاب التي كان يرعاها ربيب يقال لها هضاب ربيب طالما رعيتهن ورأيتهن.

الهجرس بن كليب وخاله جساس

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال أخبرنا الحسن بن الحسين السكري قال حدثنا مُحَمَّد بن حبيب عن ابن الأعرابي عن المفضل عن أبي عبيدة أن آخر من قتل في حرب بكر وتغلب جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان وهو قاتل كليب بن ربيعة وكانت أخته تحت كليب فقتله جساس وهي حامل فرجعت إلى أهلها ووقعت الحرب فكان من الفريقين ما كان ثم صاروا إلى الموادعة بعد ما كادت القبيلتان تتفانيان فولدت أخت جساس غلاما فسمته الهجرس ورباه جساس فكان لا يعرف أبا غيره وزوجه ابنته.

فوقع بين الهجرس وبين رجل من بني بكر بن وائل كلام فقال له البكري ما أنت بمنته حتى نلحقك بأبيك فأمسك عنه ودخل إلى أمه كئيبا فسألته عما به فأخبرها الخبر فلما أوى إلى فراشه ونام إلى جنب امرأته وضع أنفه بين ثدييها فتنفس تنفسة تنفط ما بين ثدييها من حرارتها فقامت الجارية فزعة قد أقلتها رعدة حتى دخلت على أبيها فقصت عليه قصة الهجرس فقال جساس ثائر ورب الكعبة وبات جساس على مثل الرضف حتى أصبح فأرسل إلى الهجرس

فأتاه فقال له إنما أنت ولدي ومني بالمكان الذي قد علمت وقد زوجتك ابنتي وأنت معي وقد كانت الحرب في أبيك زمانا طويلا حتى كدنا نتفانى وقد اصطلحنا وتحاجزنا وقد رأيت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح وأن تنطلق حتى نأخذ عليك مثل ما أخذ علينا وعلى قومنا فقال الهجرس أنا فاعل ولكن مثلي لا يأتي قومه إلا بلأمته وفرسه فحمله جساس على فرس وأعطاه لأمة ودرعا فخرجا حتى أتيا جماعة من قومهما فقص عليهم جساس ما كانوا فيه من البلاء وما صاروا إليه من العافية ثم قال وهذا الفتى ابن أختي قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه ويعقد ما عقدتم فلما قربوا الدم وقاموا إلى العقد أخذ الهجرس بوسط رمحه ثم قال وفرسي وأذنيه ورمحي ونصليه وسيفي وغراريه لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه ثم طعن جساسا فقتله ثم لحق بقومه فكان آخر قتيل في بكر بن وائل.

قال أبو الفرج لما قتل جساس بن مرة كليب بن ربيعة وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب اجتمع نساء الحي للمأتم فقلن لأخت كليب رحلي جليلة عن مأتمك فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب فقالت لها يا هذه اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا فخرجت وهي تجر أعطافها فلقيها أبوها مرة فقال لها ما وراءك يا جليلة فقالت ثكل العدد وحزن الأبد وفقد حليل وقتل أخ عن قليل وبين ذين غرس الأحقاد وتفتت الأكباد فقال لها أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات فقالت جليلة أمنية مخدوع ورب الكعبة أبالبدن تدع لك تغلب دم ربها قال ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب رحلة المعتدي وفراق الشامت ويل غدا لآل مرة من الكرة بعد الكرة فبلغ قولها جليلة فقالت وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها أسعد الله جد أختي أفلا قالت نفرة الحياء وخوف الاعتداء ثم أنشأت تقول:

يا بنةَ الأقوامِ إنْ شئتِ فلا ... تَعْجَلِي باللَّوْم حتى تسألِي

فإذا أنتِ تَبيَّنتِ الذي ... يُوجِبُ اللَّومَ فلَومِي واعِذُلِي

إن تكن أُختُ امرئ لِيَمتْ على ... شَفَقٍ منها عليه فافعلي

جَلَّ عندي فعلُ جَسّاسٍ فيا ... حَسْرتِي عما انجلتْ أو تنجلي

فعلُ جَسّاسٍ على وَجْدِي به ... قاطعٌ ظَهْرِي ومُدْنٍ أجَلِي

لَوْ بِعَينٍ فُقِئتْ عيني سوى ... أُختِها فانفقأتْ لم أَحْفِلِ

تَحمِلُ العينُ قَذَى العينِ كما ... تَحمِلُ الأُمّ أذَىَ ما تَفْتَلِي

يا قتيلاً قَوّض الدهرُ به ... سَقفَ بيتّي جميعاً من عَلِ

هدمَ البيتَ الذي استحدثْتُه ... وانثنَى في هدمِ بيتي الأوّلِ

ورماني قتلُه من كَثَبٍ ... رميةَ المُصْمِي به المُستأصِلِ

يا نِسائي دونكنّ اليومَ قد ... خَصَّني الدهرُ برُزْءٍ مُعْضِلِ

خَصّني قتلُ كُلَيب بلَظىً ... مِن ورائي ولَظىً مُسْتقبِلي

ليس من يَبكِي ليومين كمن ... إنما يبكِي ليومٍ ينجلي

يشتفِي المدرِكُ بالثأر وفي ... دَرَكي ثأرِيَ ثُكْلُ المُثِكلِ

ليته كان دَمِي فاحتلبوا ... بَدَلاً منه دَماً من أَكْحَلي

إنني قاتلةٌ مقتولةٌ ... ولعلّ الله أن يرتاحَ لي

٨

أخبار حماد الراوية ونسبه

هو حماد بن ميسرة فيما ذكره الهيثم بن عدي وكان صاحبه وراويته وأعلم الناس به وزعم أنه مولى بني شيبان.

وذكر المدائني والقحذمي أنه حماد بن سابور وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها وكانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره فيفد عليهم وينادمهم ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ويجزلون صلته.

حدثنا مُحَمَّد بن العباس اليزيدي وعمي وإسماعيل العتكي قالوا حدثنا الرياشي قال قال الأصمعي كان حماد أعلم الناس إذا نصح قال وقلت لحماد ممن أنتم قال كان أبي من سبي سلمان بن ربيعة فطرحتنا سلمان لبني شيبان فولاؤنا لهم

أخبرني عمي قال حدثني الكراني قالوا قال الوليد بن يزيد لحماد الراوية بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية فقال بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ثم لا أنشد شعرا قديما ولا محدثا إلا ميزت القديم منه من المحدث فقال إن هذا لعلم وأبيك كثير فكم مقدار ما تحفظ من الشعر قال كثيرا ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام قال سأمتحنك في هذا وأمره بالإنشاد فأنشد الوليد حتى ضجر ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه

فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم.

حماد ومروان بن أبي حفصة

قال أبو بكر العامري عن الأثرم عن مروان بن أبي حفصة قال دخلت أنا وطريح بن إسماعيل الثقفي والحسين بن مطير الأسدي في جماعة من الشعراء على الوليد بن يزيد وهو في فرش قد غاب فيها وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعرا وقف الوليد بن يزيد على بيت بيت من شعره وقال هذا أخذه من موضع كذا وكذا وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان حتى أتى على أكثر الشعر فقلت من هذا فقالوا حماد الراوية فلما وقفت بين يدي الوليد أنشده قلت ما كلام هذا في مجلس أمير المؤمنين وهو لحنة لحانة فأقبل الشيخ علي وقال يابن أخي إني رجل أكلم العامة فأتكلم بكلامها فهل تروي من أشعار العرب شيئا فذهب عني الشعر كله إلا شعر ابن مقبل فقلت له نعم شعر ابن مقبل قال أنشد فأنشدته قوله:

سلِ الدارَ من جَنْبيْ حِبرٍّ فواهب   إذا ما رأى هَضْبَ القليب المُضَيَّحُ

ثم جزت فقال لي قف فوقفت فقال لي ماذا يقول فلم أدر ما يقول فقال لي حماد يابن أخي أنا أعلم الناس بكلام العرب.

حدثنا إبراهيم بن أيوب عن عبد الله بن مسلم وذكر عبد الله بن مسلم عن الثقفي عن إبراهيم بن عمر والعامري قالا كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون حماد عجرد وحماد بن الزبرقان وحماد الراوية يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة وكانوا كأنهم نفس واحدة وكانوا يرمون بالزندقة جميعا.

حماد البخيل

أخبرني الحسن بن يحيى المرداسي قال حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه قال دخل مطيع بن إياس ويحيى بن زياد على حماد الراوية فإذا سراجه على ثلاث قصبات قد جمع أعلاهن وأسفلهن بطين فقال له يحيى بن زياد يا حماد إنك لمسرف مبتذل لحر المتاع فقال له مطيع ألا تبيع هذه المنارة وتشتري أقل ثمنا منها وتنفق علينا وعلى نفسك الباقي وتتسع به فقال له يحيى ما أحسن ظنك به ومن أين له مثل هذه إنما هي وديعة أو عارية فقال له مطيع أما إنه لعظيم الأمانة عند الناس قال له يحيى وعلى عظيم أمانته فما أجهل من يخرج مثل هذه من داره ويأمن عليها غيره قال مطيع ما أظنها عارية ولا وديعة ولكني أظنها مرهونة عنده على مال وإلا فمن يخرج هذه من بيته فقال لهما حماد قوما عني يا بني الزانيتين واخرجا من منزلي فشر منكما من يدخلكما بيته.

انقطع ليزيد فجفاه هشام

حدثني الحسن بن علي قال حدثنا أحمد بن عبيد أبو عصيدة قال حدثني مُحَمَّد بن عبد الرحمن العبدي عن حميد بن مُحَمَّد الكوفي عن إبراهيم بن عبد الرحمن القرشي عن مُحَمَّد بن أنس وأخبرني الحسن بن يحيى عن حماد عن أبيه عن الهيثم بن عدي عن حماد الراوية وخبر حماد بن إسحاق أتم واللفظ له.

قال حماد الراوية كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك فكان هشام يجفوني لذلك دون سائر أهله من بني أمية في أيام يزيد فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام خفته فمكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخواني سرا فلما لم أسمع أحد يذكرني سنة أمنت فخرجت فصليت الجمعة ثم جلست عند باب الفيل فإذا للشرطين قد وقفا علي فقالا لي يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر فقلت في نفسي من هذا كنت أحذر ثم قلت للشريطيين هل لكما أن

تدعاني آتي أهلي فأودعهم وداع من لا ينصرف إليهم أبدا ثم أصير معكما إليه فقالا ما إلى ذلك من سبيل فاستسلمت في أيديهما وصرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر فسلمت عليه فرد علي السلام ورمى إلي كتابا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروع ولا متعتع وادفع إليه خمسمائة دينار وجملا مهريا يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق فأخذت الخمسمائة الدينار ونظرت فإذا جمل مرحول فوضعت رجلي في الغرز وسرت اثنتي عشرة ليلة حتى وافيت باب هشام فاستأذنت فأذن لي فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالزحام وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب خز حمر وقد تضمخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحه فسلمت فرد علي واستدناني فدنوت حتى قبلت رجله وإذا جاريتان لم أر قبلهما مثلهما في أذني كل واحدة منهما حلقتان من ذهب فيهما لؤلؤتان تتوقدان فقال لي كيف أنت يا حماد وكيف حالك فقلت بخير يا أمير المؤمنين قال أتدري فيم بعث إليك قلت لا قا لبعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر من قاله فقلت وما هو فقال:

فــدعَوْا بالصَّــبُوح يومــاً فجــاءت ... قَيْنـــــةٌ في يمينهـــــا إبريـــــقُ

قلت هذا يقوله عدي بن زيد في قصيدة له قال فأنشدنيها فأنشدته:

بكَــر العــاذلون في وَضَــح الصــبح ... يقولــــــون لي ألاَ تســــــتفيق

ويلومـــون فيـــك يابنـــةَ عبـــد الله ... والقلــــب عنــــدكم مَوْهــــوق

لست أدري إذ أكثروا العذلَ عندي ... أعــــدوٌّ يلــــومني أو صــــديق

زانها حسنُها وفَرْع عَمِيم وأثيثٌ صَلْتُ الجبين أنيق

وثنايا مُفلّجات عذاب لا قَصارٌ تُرى ولا هُنّ رُوق

فدعَوْا بالصَّبُوح يوماً فجاءت قيْنةٌ في يمينها إبريق

قدّمْته على عُقار كعين الديك صفَّى سُلافَها الرَّاووق

مُرّة قبل مزجها فإذا ما مُزجت لذّ طعمها من يذوق

وطفَت فوقها فقاقيعُ كالدرّ صِغار يُثيرها التَّصْفيق

ثم كان المِزاج ماء سماء غير ما آجنٍ ولا مَطْروق

قال فطرب ثم قال أحسنت والله يا حماد يا جارية أسقيه فسقتني شربة ذهبت بثلث عقلي.

وقال أعد فأعدت فاستخفه الطرب حتى نزل عن فرشه ثم قال للجارية الأخرى اسقيه فسقتني شربة ذهبت بثلث عقلي.

فقلت إن سقتني الثالثة افتضحت فقال سل حوائجك فقلت كائنة ما كانت قال نعم قلت إحدى الجاريتين فقال لي هما جميعا لك بما عليهما وما لهما ثم قال للأولى اسقيه فسقتني شربة سقطت معها فلم اعقل حتى أصحبت فإذا بالجاريتين عند رأسي وإذا عدة من الخدم مع كل واحد منهم بدرة فقال لي أحدهم أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك خذ هذه فانتفع بها فأخذتها والجاريتين وانصرفت.

طلبه المنصور فجاءه وأنشده شعرا

حدثني الحسن بن مُحَّد المادراني الكاتب قال حدثني الرياشي عن العتبي وأخبرني به هاشم بن مُحَّد عن الرياشي وليس خبره بتمام هذا قال طلب المنصور حمادا الراوية فطلب ببغداد فلم يوجد وسئل عنه إخوانه فعرفوا من سألهم عنه أنه بالبصرة فوجهوا إليه برسول يشخصه قال الرسول فوجدته في حانة وهو عريان يشرب نبيذا من إجانة وعلى سوأته رأس دستجة فقلت أجب أمير المؤمنين فما رأيت رسالة أرفع ولا حالة أوضع من تلك فأجاب فأشخصته إليه فلما مثل بين يديه قال له أنشدني شعر هفان بن همام بن نضلة يرثي أباه فأنشده:

خليلــيّ عُوجــا إنهــا حاجــةٌ لنــا ... علــى قــبر همّــامٍ ســقتْه الرواعــدُ

علـى قـبر مـنْ يُرجـى نـداه ويُبتغـى ... جــداه إذا لم يحمــد الأرض رائــد

كــريم الثَّنــا حلــو الشــمائل بينــه ... وبــين المزجَّــى نفْنــفٌ متباعــد

إذا نازع القــومَ الأحاديــث لم يكــن ... عيِيَّــا ولا ثِقْــلا علــى مــن يقاعــد

صــبورٌ علــى العِــلاّت يُصــبح بطنُــه ... خَميصــاً وآتِيــه علــى الــزاد حامــد

وضـعنا الفـتى كـلّ الفـتى في حَفِـيرة ... بحُــرِّين قــد راحــتْ عليــه العوائــد

صريعاً كنصل السيف تضرِبُ جلوه ... تــــرائبَهنّ المُعْـــوِلاتُ الفواقـــد

قال فبكى أبو جعفر حتى أخضل لحيته ثم قال هكذا كان أخي أبو العباس ﷺ

رأي المفضل الضبي بحماد

أخبرني مُحَمَّد بن خلف وكيع قال سمعت أحمد بن الحارث الخراز يقول سمعت ابن الأعرابي يقول سمعت المفضل الضبي يقول قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدا فقيل له وكيف ذلك أيخطىء في روايته أم يلحن قال ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك.

أخبرني رضوان بن أحمد الصيدلاني قال حدثنا يوسف بن إبراهيم قال حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي قال حدثني السعيدي الراوية وأبو إياد المؤدب وكان مؤدبي ثم أدب المعتصم بعد ذلك وقد تعالت سنه وحدثني بنحو من ذلك عبد الله بن مالك وسعيد بن سلم وحدثني به ابن غزالة أيضا واتفقوا عليه أنهم كانوا في دار أمير المؤمنين المهدي بعيساباذ وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها إذ خرج بعض أصحاب الحاجب فدعا المفضل الضبي الراوية فدخل فمكث مليا ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعا وقد بان في وجه حماد الإنكسار والغم وفي وجه المفضل السرور والنشاط ثم خرج حسين الخادم معهما فقال يا معشر من حضر من أهل العلم إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حمادا الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ووصل المفضل بخمسين ألفا لصدقه وصحة روايته فمن أراد أن يسمع شعرا جيدا محدثا فليسمع من حماد ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل فسألنا عن السبب فأخبرنا أن المهدي قال للمفضل لما دعا به وحده إني رأيت زهير بن أبي

سلمى افتتح قصيدته بأن قال (دع ذا وعدِّ القول في هَرِم ...)

ولم يتقدم له قبل ذلك قول فما الذي أمر نفسه بتركه فقال له المفضل ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئا إلا أني توهمته كان يفكر في قول يقوله أو يروي في أن يقول شعرا فعدل عنه إلى مدح هرم وقال دع ذا أو كان مفكرا في شيء من شأنه فتركه وقال دع ذا أي دع ما أنت فيه من الفكر وعد القول في هرم فأمسك عنه ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل فقال ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين قال فكيف قال فأنشده:

لمـــن الـــديار بقُنّـــة الحَجْـــر أَقْـــوَيْنَ مُـــذْحِجَج ومُـــذْ دَهْـــرِ

قفـــر بمُنـــدَفَع النحائـــت مـــن ضَـــفْوَى أُولاَت الضَّـــالِ والسِّـــدْر

دع ذا وعَـــــدِّ القـــول في هـــرم خـــيرِ الكهـــول وســـيّد الحَضْـــر

قال فأطرق المهدي ساعة ثم أقبل على حماد فقال له قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه ثم أستحلفه بأيمان البيعة وكل يمين محرجة ليصدقنه عن كل ما يسأله عنه فحلف له بما توثق منه.

قال له اصدقني عن حال هذه الأبيات ومن أضافها إلى زهير فأقر له حينئذ أنه قائلها فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه.

الوليد يسأله سبب تسميته بالراوية

أخبرني مُحَّد بن خلف بن المرزبان قال حدثنا أحمد بن الحارث الخراز عن المدائني قال قال الوليد بن يزيد لحماد الراوية لم سميت الراوية وما بلغ من حفظك حتى استحققت هذا الإسم فقال له يا أمير المؤمنين إن كلام العرب يجري على ثمانية وعشرين حرفا أنا أنشدك على كل حرف منها مائة قصيدة

فقال إن هذا لحفظ هات فاندفع ينشد حتى مل الوليد ثم استخلف على الإستماع منه خليفة حتى وفاه ما قال فأحسن الوليد صلته وصرفه.

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثني الحسين بن مُحَّد بن أبي طالب الديناري قال حدثني إسحاق الموصلي قال قال حماد الراوية أرسل الوليد بن يزيد إلي بمائتي دينار وأمر يوسف بن عمر بحملي إليه على البريد قال فقلت لا يسألني إلا عن طرفيه قريش وثقيف فنظرت في كتابي قريش وثقيف فلما قدمت عليه سألني عن أشعار بلي فأنشدته منها ما استحسنه ثم قال أنشدني في الشراب وعنده وجوه من أهل الشام فأنشدته:

إصْـــــبَحِ القـــــومَ قهـــــوةً	في أباريـــــــــق تُحتـــــــــذَى
مـــــن كُميــــــتٍ مُدامــــــةٍ	حَبّــــــذا تلـــــك حبــــــذا
يــــــــترك الأُذْنَ شـــــــــربُها	أرْجُـــــواناً بهــــــا خُــــــذا

فقال أعدها فأعدتها فقال لخدمه خذوا آذان القوم فأتينا بالشراب فسقينا حتى ما درينا متى نقلنا قال ثم حملنا وطرحنا في دار الضيفان فما أيقظنا إلا حر الشمس، وجعل شيخ من أهل الشأم يشتمني ويقول فعل الله بك وفعل أنت الذي صنعت بنا هذا.

٩

أخبار وضاح اليمن ونسبه

وضاح لقب غلب عليه لجماله وبهائه واسمه عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال بن داذ بن أبي جمد ثم يختلف في تحقيق نسبه فيقول قوم إنه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن مع وهرز لنصرة سيف بن ذي يزن على الحبشة ويزعم آخرون أنه من آل خولان بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج وهو حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب وهو المرعف بن قحطان فممن ذكر أنه من حمير خالد بن كلثوم قال كان وضاح اليمن من أجمل العرب وكان أبوه إسماعيل بن داذ بن ابي جمد من آل خولان بن عمرو بن معاوية الحميري فمات أبوه وهو طفل فانتقلت أمه إلى أهلها وانقضت عدتها فتزوجت رجلا من أهلها من أولاد الفرس بوشب وضاح في حجر زوج أمه فجاء عمه وجدته أم أبيه ومعهم جماعة من أهل بيته من حمير ثم من آل ذي قيفان ثم من آل ذي جدن يطلبونه فادعى زوج أمه أنه ولده فحاكموه فيه وأقاموا البينة أنه ولد على فراش إسماعيل بن عبد كلال أبيه فحكم به الحاكم لهم وقد كان اجتمع الحميريون والأبناء في أمره وحضر معهم. فلما حكم به الحاكم للحميريين مسح يده على رأسه وأعجبه جماله وقال له إذهب فأنت وضاح اليمن لا من أتباع ذي يزن يعني الفرس الذين قدم بهم ابن ذي يزن لنصرته فعلقت به هذه الكلمة منذ يومئذ فلقب وضاح اليمن.

أخبرني مُحَمَّد بن الحسن بن دريد قال حدثني عمي عن العباس بن هشام عن

أبيه قال كان وضاح اليمن والمقنع الكندي وأبو زبيد الطائي يردون مواسم العرب مقنعين يسترون وجوههم خوفا من العين وحذرا على أنفسهم من النساء لجمالهم.

قال خالد بن كلثوم فحدثت بهذا الحديث مرة وأبو عبيدة معمر بن المثنى حاضر ذلك وكان يزعم أن وضاحا من الأبناء فقال أبو عبيدة داذ اسم فارسي فقلت له عبد كلال اسم يمان وأبو جمد كنية يمانية والعجم لا تكتني وفي اليمن جماعة قد تسموا بأبرهة وهو اسم حبشي فينبغي أن تنسبهم إلى الحبشة وأي شيء يكون إذا سمي عربي بإسم فارسي وليس كل من كني أبا بكر هو الصديق ولا من سمي عمرا هو الفاروق وإنما الأسماء علامات ودلالات لا توجب نسبا ولا تدفعه قال فوجم أبو عبيدة وأفحم فما أجاب وممن زعم أنه من أبناء الفرس ابن الكلبي ومُحَمَّد بن زياد الكلابي.

وقال خالد بن كلثوم إن أم إسماعيل أبي الوضاح بنت ذي جدن وأم أبيه بنت فرعان ذي الدروع الكندي من بني الحارث بن عمرو.

شعره في حبيبته روضة

وكان وضاح يهوى امرأة من أهل اليمن يقال لها روضة ذكر هشام بن الكلبي أنها روضة بنت عمرو من ولد فرعان ذي الدروع الكندي وخطبها فامتنع قومها من تزويجه إياها وعاتبه أهله وعشيرته فقال في ذلك:

يأيهـــا القلـــبُ بعـــضَ مـــا تجِـــدُ قـــد يعشَـــق المـــرءُ ثم يتَئِّـــدُ

قـــد يكـــتم المـــرءُ حبَّـــه حِقَبـــاً وهُـــوَ عَميـــدٌ وقلبُـــه كَمِـــد

مـــاذا تريـــدين مـــن فـــتىً غَـــزِلٍ قـــد شَـــفّه السُّـــقْمُ فيـــكِ والسَّـــهَد

يهـــــدِّدوني كيمـــــا أخـــــافَهُم   هيهـــــات أَنّي يُهَــــدَّد الأســــد

أخبرني مُحَمَّد بن خلف بن المرزبان قال حدثني سالم بن زيد قال أخبرني التوزي قال حدثنا الأصمعي عن الخليل بن أحمد قال كان وضاح يهوى امرأة من كندة يقال لها روضة فلما اشتهر أمره معها خطبها فلم يزوجها وزوجت غيره فمكثت مدة طويلة ثم أتاه رجل من بلدها فأسر إليه شيئا فبكى فقال له أصحابه مالك تبكي وما خبرك فقال أخبرني هذا أن روضة قد جذمت وأنه رآها قد ألقيت مع المجذومين ولم نجد لهما خبرا يرويه أهل العلم إلا لمعا يسيرة وأشياء تدل على ذلك من شعره فأما خبر متصل فلم أجده إلا في كتاب مصنوع غث الحديث والشعر لا يذكر مثله وأصابها الجذام بعد ذلك فانقطع ما بينهما ثم شبب بأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك فقتله الوليد لذلك وأخبارهما تذكر في موضعها بعقب هذه الحكاية.

قال مصعب فحدثني بعض أهل العلم ممن كان يعرف خبر وضاح مع روضة من أهل اليمن أن وضاحا كان في سفر مع أصحابه فبينا هو يسير إذ استوقفهم وعدل عنهم ساعة ثم عاد إليهم وهو يبكي فسألوه عن حاله فقال عدلت إلى روضة وكانت قد جذمت فجعلت مع المجذومين وأخرجت من بلدها فأصلحت من شأنها وأعطيتها صدرا من نفقتي وجعل يبكي غما بها الغناء في الأبيات المذكورة في هذا الخبر ينسب مع تمام الأبيات فإن في جميعها غناء ومما قاله وضاح في روضة المذكورة وفيه غناء وأنشدنا حرمي عن الزبير عن عمه:

أيا روضــةَ الوَضّــاح يا خــيرَ رَوْضــةٍ   لأهلــكِ لــو جــادوا علينــا بمنــزِلِ

رهينُــــك وَضّــــاحٌ ذهبــــتِ بعقلــــه   فإن شئتِ فاحييه وإن شئت فاقتلي

وتُوقــــد حِينــــاً باليَلَنْجُــــوج نارَهــــا   وتوقِــــد أحيــــاناً بمســــك ومَنْــــدَل

رأته أم البنين فهويته

أخبرني مُحَمَّد بن خلف بن المرزبان قال أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان استأذنت الوليد بن عبد الملك في الحج فأذن لها وهو يومئذ خليفة وهي زوجته فقدمت مكة ومعها من الجواري ما لم ير مثله حسنا وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعا إن ذكرها أحد منهم أو ذكر أحدا ممن تبعها وقدمت فتراءت للناس وتصدى لها أهل الغزل والشعر ووقعت عينها على وضاح اليمن فهويته فبعثت إلى كثير وإلى وضاح اليمن أن انسبا بي فأما وضاح اليمن فإنه ذكرها وصرح بالنسيب بها فوجد الوليد عليه السبيل فقتله وأما كثير فعدل عن ذكرها ونسب بجاريتها غاضرة.

الوليد يدفنه حيا

وقال خالد بن كلثوم في خبره كان وضاح قد شبب بأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إمرأة الوليد بن عبد الملك وهي أم ابنة عبد العزيز بن الوليد والشرف فيهم فبلغ الوليد تشببه بها فأمر بطلبه فأُتي به فأمر بقتله فقال له ابنه عبد العزيز لا تفعل يا أمير المؤمنين فتحقق قوله ولكن افعل به كما فعل معاوية بأبي دهبل فإنه لما شبب بإبنته شكاه يزيد وسأله أن يقتله فقال إذاتحقق قوله ولكن تبره وتحسن إليه فيستحي ويكف ويكذب نفسه فلم يقبل منه وجعله في صندوق ودفنه حيا، فوقع بين رجل من زنادقة الشعوبية وبين رجل من ولد الوليد فخار خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابة وذلك في دولة بني العباس فوضع الشعوبي عليهم كتابا زعم فيه أن أم البنين عشقت وضاحا فكانت تدخله صندوقا عندها فوقف على ذلك خادم الوليد فأنهاه إليه وأراه الصندوق فدفنه هكذا ذكر خالد بن كلثوم والزبير بن بكار جميعا.

١٠

أخبار عبد الله بن علقمة وحبيشة

صوت من المائة المختارة

فـلا زِلْـنَ حَسْـرَى ظُلَّعـاً لِمْ حَمَلْنهـا   إلى بلـــدٍ ناءٍ قليـــلِ الأصـــادقِ

ولا ذَنـبَ لي إذ قلـتُ إذ نحـن جِـيرةٌ   أَثِيـبي بـوُدٍّ قبـل إحـدى البوائـق

قوله فلا زلن حسرى دعاء على الإبل التي ظعنت بها وأبعدتها عنه وحسرى قد حسرن أي بلغ منهن الجهد فلم يبق فيهم بقية يقال حسر ناقته فهو يحسرها وهي حسرى والذكر حسير قال الله عز و جل (يَنْقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) وفي الحديث فإن أتعبتها حسرتها والظلع في كل شيء أن تألم رجله فلا يقدر أن يمشي عليها فيغمز في مشيه كالأعرج إذا مشى ويقال ظلع فهو ظالع والنائي البعيد والنية الناحية التي تنوي إليها والنوى البعد والتنائي التباعد والبوائق الحوادث التي تأتي بما يحذر بغتة وهي مثل المصائب والنوائب البيت الأول من الشعر لكثير ويقال إنه لأبي جندب الهذلي والبيت والثاني لرجل من كنانة ثم من بني جذيمة وزعم ابن دأب أنه عبد الله بن علقمة أحد بني عامر بن عبد مناة بن كنانة وقيل أيضا إنه يقال له عمرو الذي قتله خالد بن الوليد في بعض مغازيه التي وجهه رسول الله.

عبد الله بن علقمة وحبيشة

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا مُحَمَّد بن زكريا الغلابي قال حدثنا العباس بن بكار قال حدثنا ابن دأب قال كان من حديث عبد الله بن علقمة أحد بني

عامر بن عبد مناة بن كنانة أنه خرج مع أمه وهو مع ذلك غلام يفعة دون المحتلم لتزور جارة لها وكان لها بنت يقال لها حبيشة بنت حبيش أحد بني عامر بن عبد مناة بن كنانة فلما رآها عبد الله بن علقمة أعجبته ووقعت في نفسه وانصرف وترك أمه عند جارتها فلبثت عندها يومين ثم أتاها عبد الله بن علقمة ليرجعها إلى منزلها فوجد حبيشة قد زينت لأمر كان في الحي فازداد بها عجبا وانصرف بأمه في غداة تمطر فمشى معها شيئا ثم أنشأ يقول:

ومـــــا أدري بَلَـــــى إنيّ لأدري أصَــوْبُ القَطْـر أحســنُ أم حُبَـيْشُ

حُبَيْشَـــةُ والـــذي خلـــق الهَــدَايا ومـا عــن بُعْـدها للصَّــبّ عــيشُ

فسمعت ذلك أمه فتغافلت عنه وكرهت قوله ثم مشيا مليا فإذا هو بظبي على ربوة من الأرض فقال:

يا أُمَّتـــاً أَخْبريـــني غــيرَ كاذبــةٍ ومـا يُريـد مَسُـولُ الحـقِّ بالكـذب

أتلـــك أحســـنُ أم ظـــبيٌ برابيـــةٍ لا بـــل حُبَيْشــةُ في عيـــني وفي أَرَبي

فزجرته أُمه وقالت له ما أنت وهذا نزوجك بنت عمك فهي أجمل من تلك وأتت امرأة عمه فأخبرتها خبره وقالت زيني ابنتك له ففعلت وأدخلتها عليه فلما رآها أطرق فقالت له أمه أيهما الآن أحسن فقال:

إذا غُيِّبـــتْ عـــنِّي حُبيشـــةُ مـــرّةً مـن الـدّهر لم أمْلِـك عـزاءً ولا صـبرا

كـأنّ الحشـى حَـرُّ السَّـعير يَحُشّـه وَقــود الغَضَــى والقلــبُ مســتعِرا

وجعل يراسل الجاريه وتراسله حتى علقته كما علقها وكثر قوله للشعر فيها فمن ذلك قال:

حُبَيشةُ هل جَدّي وجَدُّك جامعٌ ... بشَمْلِكُمُ شَمْلي وأهلِكُمُ أهلي

وهل أنا ملتفٌّ بثوبِك مَرّةً ... بصَحْراء بين الأَلْيَتَيْن إلى النخل

وهل أَشْتفِي من رِيق ثغرِكِ مَرّةً ... كراحٍ ومسكٍ خالطا ضَرَبَ النَّحْل

فلما بلغ أهلها خبرهما حجبوها عنه مدة وهو يزيد غراما بها ويكثر قول الشعر فيها فأتوها فقالوا لها عديه السرحة فإذا أتاك فقولي له نشدتك الله إن كنت أحببتني فوالله ما على الأرض شيء أبغض إلي منك ونحن قريب نستمع ما تقولين فوعدته وجلسوا قريبا يستمعون وجلست عند السرحة وأقبل عبد الله لوعدها فلما دنا منها دمعت عينها والتفتت إلى حيث أهلها جلوس فعرف أنهم قريب فرجع وبلغه ما قالوا لها أن تقوله فأنشأ يقول

لو قلتِ ما قالوا لَزِدتُ جَوًى بكم ... على أنه لم يَبْقِ ستر ولا صبرُ

ولم يك حبّي عن نوالٍ بذلتِه ... فيُسْلِيَني عنه التجهُّمُ والهجرُ

وما أنسَ مِ الأشياء لا أنسَ دمعَها ... ونظرتَها حتى يُغَيّبَني القبرُ

سرية خالد بن الوليد إلى بني عامر

(وبعث النبي أثر ذلك خالد بن الوليد إلى بني عامر بن عبد مناة ابن كنانة وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أجابوه وإلا قاتلهم فصبحهم خالد بن الوليد بالغميصاء وقد سمعوا به فخافوه فظعنوا وكانوا قتلوا أخاه الفاكه بن الوليد وعمه الفاكه بن المغيرة في الجاهلية وكانوا من أشد حي في كنانة بأسا يسمون لعقة الدم فلما صبحهم خالد ومعه بنو سليم وكانت بنو سليم طلبتهم بمالك بن خالد بن صخر بن الشريد وإخوته كرز وعمرو والحارث وكانوا قتلوهم في موطن واحد فلما صبحهم خالد في ذلك اليوم ورأوا معه بني سليم زادهم ذلك نفورا

فقال لهم خالد أسلموا تسلموا قالوا نحن قوم مسلمون قال فألقوا سلاحكم وانزلوا قالوا لا والله فقال جذيمة بن الحارث أحد بني أقرم يا قوم لا تضعوا سلاحكم والله ما بعد وضع السلاح إلا القتل قالوا لا والله لا نلقي سلاحنا ولا ننزل ما نحن منك ولا لمن معك بآمنين قال خالد فلا أمان لكم إن لم تنزلوا فنزلت فرقة منهم فأسرهم وتفرق بقية القوم فرقتين فأصعدت فرقة وسفلت فرقة أخرى.

قال ابن دأب فأخبرني من لا أتهم عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي قال كنت يومئذ في جند خالد فبعثنا في أثر ظعن مصعدة يسوق بهن فتية فقال أدركوا أولئك قال فخرجنا في أثرهم حتى أدركناهم وقد مضوا ووقف لنا غلام شاب على الطريق فلما انتهينا إليه جعل يقاتلنا وهو يقول:

بَــيِّنَّ أطــرافَ الــذُّيول وارْبَعْــنْ   مَشْــيَ حَيِيّــاتٍ كــأن لم يَفْــزَعْنْ

إن يُمْنَعِ اليومَ نساءٌ تُمْنَعْنْ ...

فقاتلنا طويلا فقتلناه ومضينا حتى لحقنا الظعن فخرج إلينا غلام كأنه الأول فجعل يقاتلنا ويقول:

أُقســم مــا إن خَــادِرٌ ذو لِبْــدَه   يــزأر بــين أيْكــةٍ ووَهْــدَهْ

يفــرِس شُــبّانَ الرجــال وحْــدَه   بأصــدق الغــداةَ مــنّي نَجْــدَهْ

فقاتلنا حتى قتلناه وأدركنا الظعن فأخذناهن فإذا فيهن غلام وضيء به صفرة في لونه كالمنهوك فربطناه بحبل وقدمناه لنقتله فقال لنا هل لكم في خير قلنا وما هو قال تدركون بي الظعن أسفل الوادي ثم تقتلونني قلنا نفعل فخرجنا حتى نعارض الظعن أسفل الوادي فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته اسلمي حبيش عند نفاد العيش فأقبلت إليه جارية بيضاء حسناء فقالت

وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء فقال سلام عليكم دهرا وإن بقيت عصرا قالت وأنت سلام عليك عشرا وشفعا تترى وثلاثا وترا.

علي يدي أهل قتلى خالد

قال ابن دأب فأخبرني صالح بن كيسان أن رسول الله هل أنكر عليه أحد ما صنع فقال نعم رجل أصفر ربعة ورجل أحمر طويل فقال عمر أنا والله يا رسول الله أعرفهما أما الأول فهو ابني وصفته وأما الثاني فهو سالم مولى أبي حذيفة وكان خالد قد أمر كل من أسر أسيرا أن يضرب عنقه فأطلق عبد الله بن عمر وسالم مولى أبي حذيفة أسيرين كانا معهما فبعث رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وبعث معه بإبل وورق وأمره أن يديهم فوداهم ثم رجع إلى رسول الله فسأله فقال علي قدمت عليهم فقلت لهم هل لكم أن تقبلوا هذا الجمل بما أصيب منكم من القتلى والجرحى وتحللوا رسول الله نعم فقلت لهم فهل لكم أن تقبلوا الثاني بما دخلكم من الروع والفزع قالوا نعم فقلت لهم فهل لكم أن تقبلوا الثالث وتحللوا رسول الله مما علم ومما لم يعلم قالوا نعم قال فدفعته إليهم وجعلت أديهم حتى إني لأدي ميلغة الكلب وفضلت فضلة فدفعتها إليهم فقال رسول الله أفقبلوها قال نعم قال فوالذي أنا عبده لهي أحب إلي من حمر النعم، وقالت سلمى بنت عميس:

وكم غادروا يومَ الغُمَيْصاء من فتىً	أُصِيب فلم يَجْرَح وقد كان جارحا
ومن سيّدٍ كهل عليه مَهابةٌ	أُصيب ولمّا يَعْلُه الشيبُ واضحا
أحاطت بخُطّابِ الأَيامى وطلَّقت	غَداتَئِذٍ من كان منهنّ ناكحا
ولولا مقالُ القوم للقوم أسلِموا	للاقَتْ سُلَيمٌ يوم ذلك ناطحا

قريش وبنو عامر

قال ابن دأب وأما سبب قتلهم القرشيين فإنه كان نفر من قريش بضعة عشر أقبلوا من اليمن حتى نزلوا على ماء من مياه بني عامر بن عبد مناة ابن كنانة وكان يقال لهم لعقة الدم وكانوا ذوي بأس شديد فجاءت إليهم بنو عامر فقالوا للقرشيين إياكم أن يكون معكم رجل من فهم لأنه كان له عندهم ذحل قالوا لا والله ما هو معنا وهو معهم فلما راحوا أدركهم العامريون ففتشوهم فوجدوا الفهمي معهم في رحالهم فقتلوه وقتلوهم وأخذوا أموالهم فقال راجزهم:

إنّ قريشــــاً غَـــدَرتْ وعــــادَهْ نحـــن قتلنـــا مـــنهمُ بِغَـــادَهْ

عشرين كهلاً ما لهم زيادَهْ ...

وكان فيمن قتل يومئذ عفان بن أبي العاصي أبو عثمان بن عفان وعوف ابن عوف أبو عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة والفاكه بن الوليد بن المغيرة فأرادت قريش قتالهم حتى خذلتهم بنو الحارث بن عبد مناة فلم يفعلوا شيئا وكان خالد بن عبيد الله أحد بني الحارث بن عبد مناة فيمن حضر الوقعة هو وضرار فأشار إلى ذلك ضرار بن الخطاب بقوله:

دعـــوتُ إلى خُطَّـــةٍ خالـــداً مـــن المجـــد ضـــيَّعها خالـــدُ

فــــوالله أدري أضَـــاهيَ بهـــا بَـــنِي العَـــمَ أم صـــدرهُ باردُ

ولـــو خالـــدٌ عـــاد في مثلهـــا لتابَعـــــــه عُنُـــــــقٌ وارِد

وقال ضرار أيضا

أرى ابْـنَيْ لُـؤَيٍّ أسـرَعا أن تَسـالما وقـد سـلكت أبناؤهـا كـلَّ مَسْـلَك

فـــإن أنـــتُم لم تَثْـــأَروا برجـــالكم فَـدُوكوا الـذي أنـتم عليـه بِمـدْوَك

فـإنّ أداةَ الحـرب مـا قـد جمعـتُم ومـن يَتَّـقِ الأقـوامَ بالشـرّ يُـتْرَكِ

سرايا النبي ص إلى قبائل كنانة

فلما كان يومُ فتح مكة بعث رسول الله بالجيوش إلى قبائل بني كنانة حوله فبعث إلى بني ضمرة نميلة بن عبد الله الليثي وإلى بني الدئل عمرو ابن أمية الضمري وبعث إلى بني مدلج عياش بن أبي ربيعة المخزومي وبعث إلى بني بغيض ومحارب بن فهر عبد الله بن نهيك أحد بني مالك بن حسل وبعث إلى بني عامر بن عبد مناة خالدا فوافاهم خالد بماء يقال له الغميصاء وقد كان خبره سقط إليهم فمضى منهم سلف قتله بقوم منهم يقال لهم بنو قيس بن عامر وبنو قعين بن عامر وهم خير القوم وأشرفهم فأصيب من أصيب فلما أقبل خالد ودخل المدينة قال له النبي خالد ما دعاك إلى هذا قال يا رسول الله آيات سمعتهن أنزلت عليك قال وما هي قال قول الله عز ذكره "قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ " وجاءني ابن أصرم فقال لي إن رسول الله أن تقاتل فحينئذ بعث رسول الله.

أخبرنا مُحَمَّد بن خلف وكيع قال حدثنا سعيد بن أبي نصر عن رجل من مزينة يقال له ابن عاصم عن أبيه قال بعثنا رسول الله سرية وأمرنا ألا نقتل أحدا إن رأينا مسجدا أو سمعنا أذانا قال وكيع وأخبرني أحمد بن أبي خيثمة قال حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادي قال حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن نوفل عن ابن عاصم هذا عن أبيه بهذا الحديث قال فبينا نحن نسير إذا بفتى يسوق ظعائن فعرضنا عليه الإسلام فإذا هو لا يعرفه فقال ما أنتم صانعون بي إن لم أسلم قلنا نحن قاتلوك قال فدعوني ألحق هذه الظعائن فتركناه فأتى هودجا منها

وأدخل رأسه فيه وقال اسلمي حبيش قبل نفاد العيش فقالت وأنت فاسلم تسعا وترا وثمانيا تترى وعشرا أخرى فقال لها:

فلا ذنبَ لي قد قلتُ إذ نحن جيرةٌ أثِيبي بوُدٍّ قبل إحدى البوائقِ

أثيبي بودّ قبل أن تَشْحَط النَّوَى ويَنْأى أميرٌ بالحبيب المُفارق

قال ثم جاء فضربنا عنقه فخرجت من ذلك الهودج جارية جميلة فجنأت عليه فما زالت تبكي حتى ماتت.

غزوة خالد لبني جذيمة

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري وعمرو بن عبد الله العتكي قالا حدثنا عمر بن شبة قال يروى أن خالد بن الوليد كان جالسا عند النبي عن غزوته بني جذيمة فقال إن أذن رسول الله فقال تحدث فقال لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح فقاتلناهم حتى كاد قرن الشمس يغيب فمنحنا الله أكتافهم فتبعناهم نطلبهم فإذا بغلام له ذوائب على فرس ذنوب في أخريات القوم فبوأت له الرمح فوضعته بين كتفيه فقال لا إله فقبضت عنه الرمح فقال إلا اللات أحسنت أو أساءت فهمسته همسة أذريته وقيذا ثم أخذته أسيرا فشددته وثاقا ثم كلمته فلم يكلمني واستخبرته فلم يخبرني فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بني جذيمة يسوق بهن المسلمون فقال أيا خالد قلت ما تشاء قال هل أنت واقفي على هؤلاء النسوة فأتيت على أصحابي ففعلت وفيهن جارية تدعى حبيشة فقال لها ناوليني يدك فناولته يدها في ثوبها فقال أسلمي حبيش قبل نفاد العيش؟ فقالت حييت عشرا وتسعا وترا وثمانيا تترى فقال:

أرَيْتَكِ إن طالبتُكم فوجدتكم بِحَلْيَةَ أو أدركتُكم بالخَوَانِق

ألم يَــكُ حقًّــا أن يُنَــوَّل عاشــقٌ تكلَّــف إدلاج السُّــرَى والودائــقِ

وقـد قلـتُ إذ أهلـي لأهلـكِ جـيرةٌ أثِيـبي بـودّ قبـل إحـدى الصّـعائق

أثيـبي بـوُدٍّ قبـل أن تَشْـحَط النَّـوى وينـأى أمـيرٌ بالحبيـب المفـارق

فـإنيَّ لا ضـيّعتُ سـرَّ أمـانتي ولا راقَ عيـني بعـد عينـك رائـقُ

سوى أنّ ما نال العشيرةَ شاغلٌ ... عن الوُدّ إلا أن يكون التَّوامُقُ) فلما جاء على حاله تلك قدّمته فضربت عنقه فأقبلت الجارية ووضعت رأسه في حجرها وجعلت ترشفه وتقول:

لا تَبْعَـدنْ يا عمـرو حيًّـا وهالكـاً فحقّ بحسن المدح مثلُك من مثلي

لا تَبْعَـدن يا عمـرو حيًّـا وهالكـاً فقد عشتَ محمودَ الثّنا ماجدَ الفعل

فمَـنْ لِطِـرَاد الخيـل تُشْـجَر بالقَنَـا وللفخـر يومـاً عنـد قَرْقَـرة البُـزْل

وجعلت تبكي وتردد هذه الأبيات حتى ماتت وإن رأسه لفي حجرها فقال رسول الله رفعت لي يا خالد وإن سبعين ملكا لمطيفون بك يحضونك على قتل عمرو حتى قتلته.

أخبرني مُحَمَّد بن العباس اليزيدي قال حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني عبد الله بن المنذر عن صفية بنت الزبير بن هشام قالت كان أبو السائب المخزومي رجلا صالحا زاهدا متقللا يصوم الدهر وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلا فوجه ابنه يوما يأتيه بما يفطر عليه فأبطأ الغلام إلى العتمة فلما جاء قال له يا عدو نفسه ما أخرك إلى هذا الوقت قال جزت بباب بني فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته فقال هات يا بني فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونك ولئن كنت أسأت لأضربنك فاندفع يغني بشعر كثير.

ولمــا عَلَــوْا شَــغْباً تبيّنــتُ أنــه تقطَّــع مــن أهــل الحجــاز علائِقــي

فــلا زِلْــن حَسْــرَى ظُلَّعــاً لِمْ حَمَلْنهــا إلى بلــــدٍ ناءٍ قليــــلِ الأصــــادِق

فلم يزل يغنيه إلى نصف الليل فقالت له زوجته يا هذا قد انتصف الليل وما أفطرنا قال لها أنت طالق إن كان فطورنا غيره فلم يزل يغنيه إلى السحر فلما كان السحر قالت له زوجته هذا السحر وما أفطرنا فقال أنت طالق إن كان سحورنا غيره فلما أصبح قال لابنه خذ جبتي هذه وأعطني خلقك ليكون الحباء فضل ما بينهما فقال له يا أبت أنت شيخ وأنا شاب وأنا أقوى على البرد منك قال يا بني ما ترك صوتك هذا للبرد علي سبيلا ما حييت.

١١

ذكر متيم الهشامية وبعض أخبارها

كانت متيم صفراء مولدة من مولدات البصرة وبها نشأت وتأدبت وغنت وأخذت عن إسحاق وعن أبيه من قبله وعن طبقتهما من المغنين وكانت من تخريج بذل وتعليمها وعلى ما أخذت عنها كانت تعتمد فاشتراها علي بن هشام بعد ذلك فازدادت أخذا ممن كان يغشاه من أكابر المغنين وكانت من أحسن الناس وجها وغناء وأدبا وكانت تقول الشعر ليس مما يستجاد ولكنه يستحسن من مثلها وحظيت عند علي بن هشام حظوة شديدة وتقدمت على جواريه جمع عنده وهي أم ولده كلهم.

وقال عبد الله بن المعتز فيما أخبرني عنه مُحَّد بن إبراهيم قريش قال أخبرني الحسن بن أحمد المعروف بأبي عبد الله الهشامي قال كانت متيم للبانة بنت عبد الله بن إسماعيل المراكبي مولى عريب فاشتراها علي بن هشام منها بعشرين ألف درهم وهي إذ ذاك جويرية فولدت له صفية وتكنى أم العباس ثم ولدت مُحَّدا ويعرف بأبي عبد الله ثم ولدت بعده ابنا يقال له هارون ويعرف بأبي جعفر سماه المأمون وكناه لما ولد بهذا.

الإسم والكنية قال ولما توفي علي بن هشام عتقت وكان المأمون يبعث إليها فتجيئه فتغنيه فلما خرج المعتصم إلى سر من رأى أرسل إليها فأشخصها وأنزلها داخل الجوسق في دار كانت تسمى الدمشقي وأقطعها غيرها وكانت تستأذن المعتصم في الدخول إلى بغداد إلى ولدها فتزورهم وترجع ثم ضمها لما خرجت قلم وقلم جارية كانت لعلي بن هشام وكانت متيم صفراء حلوة الوجه فذكر مُحَّد

بن الحسن الكاتب أن الحسين بن يحيى بن أكثم حدثه عن الحسن بن إبراهيم بن رياح قال سألت عبد الله بن العباس الربيعي من أحسن من أدركت صنعة قال إسحاق قلت ثم من قال علويه قلت ثم من قال متيم قلت ثم من قال ثم أنا فعجبت من تقديمه متيم على نفسه فقال الحق أحق أن يتبع

أخبرني مُحَمَّد بن الحسن قال حدثنا عمر بن شبة قال سئل عبد الله بن العباس الربيعي عن أحسن الناس غناء فذكر مثل هذه الحكاية وزاد فيها أن قال له ما أحسن أن أصنع كما صنعت متيم في قوله:

(فلا زِلْن حَسْرى ظُلّعا لِمْ حَمَلْنَها ...)

ولا كما صنع علويه في قول الصمة

فواحَسْرتي لم أَقْضِ منكِ لُبانةً ... ولم أتمتَّع بالجِوار وبالقُرْب

قال فأين عمرو بن بانة قال عمرو لا يضع نفسه في الصنعة هذا الموضع ولكنه صنع لحنا في هذا الغناء.

نسبة صوت علويه

فواحَسْرتي لم أَقْضِ منكِ لُبانةً ... ولم أتمتَّع بالجِوار وبالقُرْب

يقولون هذا آخرُ العهد منهم ... فقلت وهذا آخر العهد من قلبي

ألا يا حمامَ الشِّعْب شِعْب مراهق ... سقتك الغوادي من حمامٍ ومن شِعْب

الشعر للصمة بن عبد الله القشيري والغناء فيه لعلويه ثقيل أول مطلق في مجرى الوسطى وفيه لمخارق خفيف رمل بالوسطى أوله ألا يا حمام الشعب ثم الثاني ثم الأول وذكر حبش أن فيه لإسحاق ثاني ثقيل بالبنصر.

وقال ابن المعتز أخبرني الهشامي قال كانت متيم ذات يوم جالسة بين يدي

المعتصم ببغداد وإبراهيم بن المهدي حاضر فغنت متيم في الثقيل الأول:

لزينـــب طيـــفٌ تَعْتريـــني طوارقُـــهُ　　　هُـدُوًّا إذا مـا الـنّجمُ لاحـتْ لواحقُـهُ

فأشار إليها إبراهيم أن تعيده فقالت متيم للمعتصم يا سيدي إبراهيم يستعيدني الصوت وكأنه يريد أن يأخذه فقال لها لا تعيديه فلما كان بعد أيام كان إبراهيم حاضرا مجلس المعتصم ومتيم غائبة فانصرف إبراهيم بعد حين إلى منزله ومتيم في منزلها بالميدان وطريقه عليها وهي في منظرة لها مشرفة على الطريق وهي تغني هذا الصوت وتطرحه على جواري علي بن هشام فتقدم إلى المنظرة وهو على دابته فتطاول حتى أخذ الصوت ثم ضرب باب المنظرة بمقرعته وقال قد أخذناه بلا حمدك.

وقال ابن المعتز وحدثت أن المأمون سأل علي بن هشام أن يهبها له وكان بغنائها معجبا فدفعه بذلك ولم يكن له منها ولد فلما ألح المأمون في طلبها حرص علي على أن تعلق منه حتى حبلت ويئس المأمون منها فيقال إن ذلك كان سببا لغضبه عليه حتى قتله .

وحدثني سليمان الطبال أنه رأى متيم في بعض مجالس المعتصم يمازحها ويجبذ بردائها وحكى علي بن مُحَمَّد الهشامي قال أهدي إلى علي بن هشام برذون أشهب قرطاسي وكان في النهاية من الحسن والفراهة وكان علي به معجبا وكان إسحاق يشتهيه شهوة شديدة وعرض لعلي بطلبه مرارا فلم يرض أن يعطيه له فسار إسحاق إلى علي يوما بعقب صنعة متيم فلا زلن حسرى فاحتبسه علي وبعث إلى متيم أن تجعل صوتها هذا في صدر غنائها ففعلت فأطرب إسحاق إطرابا شديدا وجعل يسترده فترده وتستوفيه ليزيد في إطرابه إسحاق وهو يصغي إليها ويتفهمه حتى صح له ثم قال لعلي ما فعل البرذون الأشهب قال على ما عهدت من حسنه وفراهته قال فاختر الآن مني خلة من اثنتين إما أن طبت لي نفسا به وحملتني عليه وإما أن أبيت

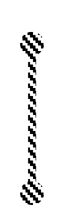
فأدعي والله هذا الصوت لي وقد أخذته أفتراك تقول إنه لمتيم وأقول إنه لي ويؤخذ قولك ويترك قولي قال لا والله ما أظن هذا ولا أراه يا غلام قد البرذون إلى منزل أبي مُحَمَّد بسرجه ولجامه لا بارك الله له فيه.

نوح متيم على سيدها

وأخبرني قال حدثني بعض أهلها قال لما أصبنا بعلي بن هشام جاء النوائح فطرح بعض من حضر من مغناته عليهن نوحا من نوح متيم وكان حسنا جيدا فأبطأ نوح النوائح اللاتي جئن لحسنه وجودته وكانت زين حاضرة فاستحسنه جدا وقالت رضي الله عنك يا متيم كنت علما في السرور وأنت علم في المصائب .

أخبرني الهشامي قال وجهت مؤنسة جارية المأمون إلى متيم جارية علي بن هشام في يوم احتجمت فيه مخنقة في وسطها حبة لها قيمة جليلة كبيرة وعن يمين الحبة ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من شذور الذهب وباقي المخنقة قد طيب بغالية وأخبرني قال كانت متيم يعجبها البنفسج جدا وكان عندها آثر من كل ريحان وطيب حتى إنها من شدة إعجابها به لا يكاد يخلو من كمها الريحان ولا نراه إلا كما قطف من البستان.

وقد أخبرني رحمه الله قال حدثنا أبو جعفر بن الدهقانة إن جارية للمعتصم قالت له لما ماتت متيم وإبراهيم بن المهدي وبذل يا سيدي أظن أن في الجنة عرسا فطلبوا هؤلاء إليه فنهاها المعتصم عن هذا القول وأنكره فلما كان بعد أيام وقع حريق في حجرة هذه القائلة فاحترق كل ما تملكه وسمع المعتصم الجلبة فقال ما هذا فأخبر عنه فدعا بها فقال ما قصتك فبكت وقالت يا سيدي احترق كل ما أملكه فقال لا تجزعي فإن هذا لم يحترق وإنما استعاره أصحاب ذلك العرس.



١٢
نسب جرير وأخباره

جرير بن عطية بن الخَطَفي والخَطَفي لقب واسمه حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ويكنى أبا حزرة ولقب الخطفي لقوله:

يَـــرْفَعْنَ للَيَّـــل إذا مـــا أسْـــدَفَا أعنـــاقَ جِنّـــانٍ وهامـــاً رُجَّفـــا

وعَنَقاً بعد الكَلال خَيْطَفَا ...

ويروى خَطَفَى وهو الفرزدق والأخطل المقدمون على شعراء الإسلام الذين لم يدركوا الجاهلية جميعا ومختلف في أيهم المتقدم ولم يبق أحد من شعراء عصرهم إلا تعرض لهم فافتضح وسقط وبقوا يتصاولون على أن الأخطل إنما دخل بين جرير والفرزدق في آخر أمرهما وقد أسن ونفد أكثر عمره وهو وإن كان له فضله وتقدمه فليس نجره من نجار هذين في شيء وله أخبار مفردة عنهما ستذكر بعد هذا مع ما يغنى من شعره.

أخبرني أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي قال حدثنا مُحَّد بن سلام الجمحي وأخبرني مُحَّد بن العباس اليزيدي وعلي بن سليمان الأخفش قالا حدثنا أبو سعيد السكري عن مُحَّد بن حبيب وأبي غسان دماذ وإبراهيم بن سعدان عن أبيه جميعا عن أبي عبيدة معمر بن المثنى بنسب جرير على ما ذكرته وسائر ما أذكره في الكتاب من أخباره فأحكيه عن أبي عبيدة أو عن مُحَّد بن سلام قالوا جميعا وأم جرير أم قيس بنت معيد بن عمير بن مسعود بن حارثة بن عوف بن

كليب بن يربوع وأم عطية النوار بنت يزيد بن عبد العزى بن مسعود بن حارثة بن عوف بن كليب.

قال أبو عبيدة ومحمد بن سلام ووافقهما الأصمعي فيما أخبرنا به أحمد بن عبد العزيز عن عمر بن شبة عنه اتفقت العرب على أن أشعر أهل الإسلام ثلاثة جرير والفرزدق والأخطل واختلفوا في تقديم بعضهم على بعض قال محمد بن سلام والراعي معهم في طبقتهم ولكنه آخرهم والمخالف في ذلك قليل وقد سمعت يونس يقول ما شهدت مشهدا قط قد ذكر فيه جرير والفرزدق فاجتمع أهل المجلس على أحدهما وكان يونس فرزدقيا.

الفرزدق أشعر عامة وجرير أشعر خاصة

قال ابن سلام وقال ابن دأب الفرزدق أشعر عامة وجرير أشعر خاصة وقال أبو عبيدة كان أبو عمرو يشبه جريرا بالأعشى والفرزدق بزهير والأخطل بالنابغة قال أبو عبيدة يحتج من قدم جريرا بأنه كان أكثرهم فنون شعر وأسهلهم ألفاظا وأقلهم تكلفا وأرقهم نسيبا وكان دينا عفيفا وقال عامر بن عبد الملك جرير كان أشبههما وأنسبهما.

ونسخت من كتاب عمرو بن أبي عمرو الشيباني قال خالد بن كلثوم ما رأيت أشعر من جرير والفرزدق قال الفرزدق بيتا مدح فيه قبيلتين وهجا قبيلتين قال:

عجبتُ لعِجْلٍ إذ تُهَاجِي عبيدَها   كما آلُ يَرْبُوعٍ هَجَوْا آلَ دارِمِ

يعني بعبيدها بني حنيفة وقال جرير بيتا هجا فيه أربعة:

إن الفرزدق والبَعيث وأمَّه   وأبا البَعيث لشَرُّ ما إسْتارِ

قال وقال جرير لقد هجوت التيم في ثلاث كلمات ما هجا فيهن شاعر شاعرا قبلي قلت:

مــن الأصــلاب يَنْــزِل لــؤمُ تَــيْمٍ   وفي الأرحـــام يُخلـــق والمَشـــيمِ

وقال مُحَمَّد بن سلام قال العلاء بن جرير العنبري وكان شيخا قد جالس الناس إذا لم يجيء الأخطل سابقا فهو سكيت والفرزدق لا يجيء سابقا ولا سكيتا وجرير يجيء سابقا ومصليا وسكيتا قال مُحَمَّد بن سلام ورأيت أعرابيا من بني أسد أعجبني ظرفه وروايته فقلت له أيهما عندكم أشعر قال بيوت الشعر أربعة فخر ومديح وهجاء ونسيب وفي كلها غلب جرير قال في الفخر:

إذا غضِــبتْ عليـــكَ بنـــو تَمـــيمٍ   حسِـــبتَ النـــاسَ كلَّهُـــمُ غِضـــابا

والمديح:

ألَســتُم خــيرَ مــن ركــب المطــايا   وأنْـــدَى العـــالَمين بطـــونَ راحِ

والهجاء:

فغُــضَّ الطَّــرْفَ إنــك مــن نُمَــيرٍ   فــلا كَعْبــاً بلغــتَ ولا كِــلابا

والنسيب:

إنّ العيــون الــتي في طَرْفِهــا حَــوَرٌ   قتلْننــا ثم لم يُحْيِــين قَــتْلانا

قال أبو عبد الله مُحَمَّد بن سلام وبيت النسيب عندي

فلمــا التقــى الحيَّــانِ أُلْقيــتِ العصــا   ومــات الهــوى لمــا أُصــيبتْ مَقَاتِلُــهْ

قال كيسان أما والله لقد أوجعكم يعني في الهجاء فقال يا أحمق أوذاك يمنعه أن يكون شاعرا.

رأي بشار فيه

قال ابن سلام وسألت بشارا أي الثلاثة أشعر فقال لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه قلت فهذان قال كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ولقد ماتت النوار فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير فقلت لبشار وأي شيء لجرير من المراثي إلا التي رثى بها امرأته فأنشدني لجرير يرثي ابنه سوادة ومات بالشام:

قالوا نَصِيبَك من أجرٍ فقلتُ لهم ... كيف العَزاءُ وقد فارقتُ أشبالي

فارقتني حين كَفَّ الدهرُ من بصري ... وحين صِرْتُ كعظم الرِّمَّة البالي

أَمْسَى سَوَادةُ يَجْلُو مُقْلَتَيْ لَحِمٍ ... بازٍ يُصَرْصِرُ فوق المَرْبأ العالي

قد كنتُ أعرفه منّي إذا غَلِقتْ ... رُهْنُ الجِياد ومَدّ الغَايَة الغَالي

إنّ الثَّويّ بِذي الزَّيْتُون فاحتسبي ... قد أَسرعَ اليوم في عقلي وفي حالي

إلاّ تَكُنْ لكَ بالدَّيْرَيْن مُعْوِلَةٌ ... فرُبَّ باكيةٍ بالرَّمْلِ مِعْوَالِ

كأمّ بَوٍّ عَجُولٍ عند مَعْهَدِه ... حَنَّتْ إلى جَلَدٍ منه وأَوْصَال

حتى إذا عرَفتْ أن لا حياةَ به ... رَدَّتْ هَمَاهِمَ حَرَّى الجوفِ مِثْكالِ

زادت على وَجْدِها وَجْداً وإن رجَعتْ ... في الصدر منها خُطوبٌ ذاتُ بَلْبَالِ

أخبرني عبد الواحد بن عبيد عن قعنب بن المحرز الباهلي عن المغيرة بن حجناء وعمارة بن عقيل قالا خرج جرير إلى دمشق يؤم الوليد فمرض ابن له يقال له سوادة وكان به معجبا فمات بالشام فجزع عليه ورثاه جرير فقال:

أَوْدَى سَــوَادةُ يَجْلُــو مُقْلَــتِيْ لَحِــمٍ بازٍ يُصَرْصِــرُ فــوق المَــرْبأ العــالي

رأي الفرزدق فيه

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثني أحمد بن معاوية قال حدثني رجل من أصحاب الحديث يقال له الحسن قال حدثني أبو نصر اليشكري عن مولى لبني هاشم قال أم ترى أهل المجلس في جرير والفرزدق أيهما أشعر فدخلت على الفرزدق فما سألني عن شيء حتى قال يا نوار أدركت برنيتك قالت قد فعلت أو كادت قال فابعثي بدرهم فاشتري لحما ففعلت وجعلت تشرحه وتلقيه على النار ويأكل ثم قال هاتي برنيتك فشرب قدحا ثم ناولني وشرب آخر ثم ناولني ثم قال هات حاجتك يابن أخي فأخبرته قال أعن ابن الخطفي تسألني ثم تنفس حتى قلت انشقت حيازيمه ثم قال قاتله الله فما أخشن ناحيته وأشرد قافيته والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها والشابة على أحبابها ولكنهم هروه فوجدوه عند الهراش نابحا وعند الجراء قارحا وقد قال بيتا لأن أكون قلته أحب إلي مما طلعت عليه الشمس.

إذا غضِــبتْ عليــكَ بنــو تَمــيم حسِــبتَ النــاسَ كلَّهــمُ غِضَــابَا

أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال حدثنا عمر بن شبة وأخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن أبي عبيدة قالا نزل الفرزدق على الأحوص حين قدم المدينة فقال الأحوص ما تشتهي قال شواء وطلاء وغناء قال ذلك لك ومضى به إلى قينة بالمدينة فغنته.

هجوه للشعراء

قال جرير فلما دخلت عليه قال إيه يا عدو الله علام تشتم الناس وتظلمهم فقلت جعلني الله فداء الأمير والله إني ما أظلمهم ولكنهم يظلمونني

فأنتصر ما لي ولابن أم غسان وما لي وللبعيث وما لي وللفرزدق وما لي وللأخطل وما لي وللتيمي حتى عددهم واحدا واحدا فقال الحجاج ما أدري ما لك ولهم قال أخبر الأمير أعزه الله أما غسان بن ذهيل فإنه رجل من قومي هجاني وهجا عشيرتي وكان شاعرا قال فقال لك ماذا قال قال لي؟

لعَمْــرِي لــئن كانــت بَجِيلــةُ زانَهَــا ... جَريــرٌ لقــد أَخْــزَى كُلَيْبــاً جَرِيرُهــا

رميــتَ نِضَــالاً عــن كُلَيــبٍ فقَصَّــرتْ ... مَرَامِيــكَ حــتى عــاد صِــفْراً جَفِيرُهــا

ولا يَـــذْبَحون الشـــاةَ إلا بمَيْسِـــرٍ ... طويـــلٌ تَنَاجِيهـــا صِـــغارٌ قُـــدُورُها

قال فما قلتَ له قال قلتُ:

ألاَ ليت شِـعْري عـن سـليطٍ ألم تَجِـدْ ... سَـلِيطٌ سِـوَى غَسَّـانَ جـاراً يُجِيرُهـا

فقد ضمَّنوا الأحسابَ صاحبَ سَوْءة ... يُنـاجِي بهـا نفسـاً خبيثـاً ضـميرُها

كـأنَّ سَـلِيطاً في حَوَاشِـنِها الخُصَـى ... إذا حَـلّ بـين ٱلأَمْلَحَـيْن وَقِيرُهـا

أَضِـجُّوا الـرَّوَايَا بالمَـزَادِ فـإنَّكم ... ستُكْفَوْنَ رَكْضَ الخيلِ تَـدْمَى نحورُها

كـأن السَّـليطِيَّاتِ مَجْنَـاةُ كَمْـأَةٍ ... لأَوَّلِ جـانٍ بالعَصـا يَسْـتثيرها

غَضَـارِيطُ يَشْـوُون الفَرَاسِـنَ بالضُّـحَى ... إذا مـا السَّـرَايا حَـثَّ رَكْضـاً مُغِيرها

فمـا في سَـلِيطٍ فـارسٌ ذو حَفيظـةٍ ... ومَعْقِلُهـا يـومَ الهِيـاجِ جُعُورهـا

عجِبتُ من الدَّاعِي جُحَيشاً وصائداً ... وعَيْسـاءُ يسـعَى بالعِـلاَب نَفِيرُهـا

قال ثم من قال البعيث قال ما لك وله قال اعترض دون ابن أم غسان يفضله علي ويعينه قال فما قال لك قال قال لي:

كُلَيـبٌ لئـامُ النـاسِ قـد تَعْلمونـه وأنـتَ إذا عُـدَّتْ كُلَيْـبٌ لئيمُهـا

أترجـوا كُلَيـبٌ أن يجـيء حـديثُها بخـيرٍ وقـد أعيـا كُلَيبـاً قـديمُها

قال فما قلت له قال قلت:

ألم تـر أنِّي قـد رميـتُ ابـنَ فَـرْتنَى بصَـمَّاءَ لا يرجـو الحيـاةَ اميمهـا

لـه أُمّ سَـوْءٍ بـئس مـا قَـدَّمتْ لـه إذا فَـرَطُ الأحسـابِ عُـدَّ قـديمُها

قال ثم من قلت الفرزدق قال وما لك وله قلت أعان البعيث علي قال فما قلت له قال قلت:

تمـنَّى رجـالٌ مـن تَمِـيم ليَ الـرَّدَى ومـا ذَاد عـن أحسـابِهم ذائـدٌ مِثْلـي

كـأنَّهم لا يعلمـون مَـواطِني وقـد جرَّبـوا أني أنا السـابقُ المُبْلـي

فلـو شـاء قـومي كـان حِلْمِـيَ فـيهمُ وكـان علـى جُهّـالِ أعـدائهم جَهْلـي

وقـد زَعمـوا أنَّ الفـرزدقَ حَيَّـةٌ ومـا قَتَـل الحيَّـاتِ مـن أحـدٍ قَبْلِـي

قال ثم من قلت الأخطل قال ما لك وله قلت رشاه محمد بن عمير بن عطارد زقا من خمر وكساه حلة على أن يفضل علي الفرزدق ويهجوني..

قال فما قال لك قال، قال:

إخسَـأْ إليـكَ كُلَيـبُ إنَّ مُجَاشِـعاً وأبا الفَـوَارِس نَهْشَـلاً أخَـوانِ

وإذا وَرَدْتَ المـاءَ كـان لـدارِمٍ جُمَّاتُـه وسُـهُولةُ الأَعْطـان

وإذا قـذَفْتَ أباك في ميـزانِهمْ رجَحُـوا وشـالَ أبـوك في الميـزانِ

قال فما قلت له قال، قلت:

يا ذا العَبَـاءةِ إنَّ بِشْـراً قـد قَضَـى ... ألاَّ تَجُـوزَ حكومـةُ النَّشْـوان

فـدَعُوا الحكومـةَ لَسْـتُمُ مـن أهلِهـا ... إنَّ الحكومـةَ في بـني شَـيْبانِ

قَتلـوا كُلَيـبَكُمُ بلِقْحـةِ جـارِهم ... يا خُـزْرَ تَغْلِـبَ لسـتُمُ بِهجَـانِ

قال ثم من قلت عمر بن لجأ التيمي قال ما لك وله قال قلت بيتا من شعر فقبحه وقاله على غير ما قلته قلت:

لَقَـوْمِيَ أَحْمَـى للحقيقـةِ مـنكمُ ... وأَضْـرَبُ للجَبَّـار والنَّقْـعُ سـاطِعُ

وأوثـقُ عنـد المُرْهَفـاتِ عشـيَّةً ... لَحَاقـاً إذا مـا جـرَّد السـيفَ لامـعُ

فزعم أني قلت

وأَوْثَـقُ عنـد المُرْدَفـات عشـيَّةً ... لَحَاقـاً إذا مـا جـرَّد السـيفَ لامـعُ

فقال لحقتهن عند العشي وقد أخذن غدوة والله ما يمسين حتى يفضحن قال فما قلت له قال قلت:

يا تَـيْمُ تَـيْمَ عَـدِيّ لا أبا لكُـم ... لا يُـوقِعنَّكُمُ في سَـوءة عُمَـرُ

خَـلِّ الطريـقَ لمـن يَبـنِي المنـارَ بـه ... وَابـرُزْ ببَـرْزَةَ حيـثُ اضـطرَّك القَـدَرُ

حتى أتى على الشعر قال ثم من قلت سراقة بن مرداس البارقي قال ما لك وله قال قلت لا شيء حمله بشر من مروان وأكرهه على هجائي ثم بعث إلي رسولا وأمرني أن أجيبه قال فما قال لك قال، قال:

إنَّ الفَـرَزْدَقَ بَـرَّزتْ أعراقُـه ... عَفْـواً وغُـودِر في الغُبـار جريـرُ

مـا كنــتَ أوّلَ مِحْمَــرٍ قعــدتْ بــه ... مسْـــعاتُه إنَّ اللئــــيم عَثُـــور

هـــذا قضـــاءُ البـــارقِيّ وإنـــه ... بالمَيْـــل في ميـــزانكم لَبَصِـــيرُ

قال فما قلت له قال، قلت:

يا بِشْــرُ حَــقَّ لوجهــك التبشــيرُ ... هَــلاَّ غضِــبتَ لنــا وأنــت أمــيرُ

بِشْــرٌ أبــو مَــرْوانَ إن عاسَــرْتَه ... عَسِــرٌ وعنــد يَســاره مَيْســورُ

إنَّ الكريمــةَ ينصُــر الكــرمَ ابنُهــا ... وابـــنُ اللئيمـــةِ للِّئـــامِ نَصُـــور

قــد كــان حقُّــك أن تقــول لبــارقٍ ... يا آلَ بارقَ فِـــيمَ سُـــبَّ جَرِيـــر

وكسَــحْتَ بآســتِك للفَخَــار وبارِقٌ ... شَــيْخانِ أَعْمَــى مُقْعَــدٌ وكَسِــير

وله قلت أعان علي آبن لجأ قال فما قال لك قلت قال:

إنَّ الـــتي رَبَّتْـــكَ لمـــا طُلِّقـــتْ ... قعَـدتْ على جَحْـشِ المَرَاغـةِ تَمْـرَغُ

أتَعِيـبُ مَـنْ رضـيتْ قـريشٌ صِـهْرَه ... وأبـــوك عبـــدٌ بالخَوَرْنَـــقِ أَذْلَـــغُ

قال فما قلت له قال قلت:

فمـــا مســـتنيرُ الخُبْــثِ إلا فَرَاشـــةٌ ... هَـوَتْ بـين مُـؤْتَجّ الحَـرِيقَيْن سـاطِعِ

نَهيــتُ بنــاتِ المســتنيرِ عــن الرُّقَــى ... وعــن مشــيهنّ الليــلَ بــين المَــزَارع

الفرزدق توقع سلفا ما هجاه به جرير

أخبرني هاشم بن مُحَمَّد قال حدثني الحسن بن عليل قال حدثني مُحَمَّد بن عبد الله العبدي عن عمارة بن عقيل عن جده قال وقف الفرزدق على أبي بمربد

البصرة وهو ينشد قصيدته التي هجا بها الراعي فلما بلغ إلى قوله:

فغُـضَّ الطَّـرْف إنـك مـن نُمَـيرٍ   فـلا كَعْبـاً بلغـت ولا كِـلابا

أقبل الفرزدق على روايته فقال غضه والله فلا يجيبه أبدا ولا يفلح بعدها فلما بلغ إلى قوله:

بها بَرَصٌ بجانبِ إسْكَتَيْها ...

وضع الفرزدق يده على فيه وغطى عنفقته فقال أبي:

كَعَنْفَقَةِ الفرزدقِ حين شابَا ...

فانصرف الفرزدق وهو يقول اللهم أخزه والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير هذا ولكن طمعت ألا يأبه فغطيت وجهي فما أغناني ذلك شيئا قال العنزي حدثني مسعود بن بشر عن أبي عبيدة قال قال يونس ما أرى جريرا قال هذا المصراع إلا حين غطى الفرزدق عنفقته فإنه نبهه عليه بتغطيته إياها.

حماد الرواية يوازن بينه وبين الفرزدق

أخبرني عمي قال حدثني الكراني قال حدثنا العمري عن الهيثم بن عدي عن حماد الراوية قال أتيت الفرزدق فأنشدني ثم قال لي هل أتيت الكلب جريرا قلت نعم قال فأنا أشعر أو هو فقلت أنت في بعض الأمر وهو في بعض فقال لم تناصحني فقلت هو أشعر إذا أرخى من خناقه وأنت أشعر منه إذا خفت أو رجوت فقال وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء وعند الخير والشر.

قال حدثنا المدائني عن يحيى بن عنبسة القرشي وعوانة بن الحكم أن جريرا والفرزدق اجتمعا عند بشر بن مروان فقال لهما بشر إنكما قد تقارضتما الأشعار وتطالبتما الآثار وتقاولتما الفخر وتهاجيتما فأما الهجاء فليست بي إليه

حاجة فجددا بين يدي فخرا ودعاني مما مضى فقال الفرزدق:

نحــن السَّــنَامُ والمَنَاسِــمُ غــيرُنا   فمَــنْ ذا يُســاوِي بالسَّــنَامِ المناسِمَــا

فقال جرير:

علـى موضـع الأَسْـتاهِ أنـتم زعمـتُمُ   وكــلُّ سَــنَامٍ تابــعٌ للغَلاَصِــمِ

فقال الفرزدق:

علـى مُحْـرَثٍ للفَـرْث أنـتم زعمـتُمُ   ألاَ إنَّ فـوق الغَلْصَـمات الجَمَاجِمَـا

فقال جرير:

وأنبــأتُمُونا أنكــم هــامُ قــومِكم   ولا هــامَ إلا تابــعٌ للخَــرَاطم

فقال الفرزدق:

فـنحن الزِّمـامُ القائـدُ المقتـدَى بـه   مـن النـاس مـا زِلنـا ولسـنا لهَازِمَـا

فقال جرير:

فــنحن بَــنِي زيــد قطعنــا زِمامِهــا   فتاهـت كسـارٍ طـائِش الـرأسِ عـارِمِ

فقال بشر غلبته يا جرير بقطعك الزمام وذهابك بالناقة وأحسن الجائزة لهما وفضل جريرا.

سكينة بنت الحسين فضلته على الفرزدق

حدثني أبو يعقوب الثقفي عن الشعبي أن الفرزدق خرج حاجا فلما قضى حجه عدل إلى المدينة فدخل إلى سكينة بنت الحسين عليهما السلام فسلم فقالت له يا فرزدق من أشعر الناس قال أنا قالت كذبت أشعر منك الذي يقول:

بنفسِـــي مَـــنْ تَجَنُّبُـــه عزيـــزٌ علـــيّ ومَـــنْ زيارتُـــه لِمَـــامُ
ومَـــنْ أمسِـــي وأُصـــبِح لا أَراه ويَطْـــرُقُنِي إذا هَجَـــع النِّيـــام

فقال والله لو أذنت لي لأسمعتك أحسن منه قالت أقيموه فأخرج ثم عاد إليها من الغد فدخل عليها فقالت يا فرزدق من أشعر الناس قال أنا قالت كذبت صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول:

لـــولا الحيـــاءُ لعـــادني اســـتعبارُ ولَـــزُرْتُ قـــبرك والحبيـــبُ يُـــزَارُ
كانـت إذا هَجَـر الضَّـجِيعُ فِراشَـها كُـتِمَ الحـديثُ وعَفَّـت الأسـرارُ
لا يَلْبَـــثُ القُـــرَنَاءُ أنْ يتفرَّقـــوا ليـــلٌ يكُـــرّ علـــيهمُ ونهـــارُ

فقال والله لئن أذنت لي لأسمعنك أحسن منه فأمرت به فأخرج ثم عاد إليها في اليوم الثالث وحولها مولدات لها كأنهن التماثيل فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها وبهت ينظر إليها فقالت له سكينة يا فرزدق من أشعر الناس قال أنا قالت كذبت صاحبك أشعر منك حيث يقول:

إنَّ العيـونَ الـتي في طَرْفِهـا مَـرَضٌ قتلْنَنَـــا ثم لم يُحْيِـــينَ قَـــتْلانا
يَصْـرَعْنَ ذا اللُّـبِّ حتى لا حَـرَاكَ بـه وهـــنّ أضـــعفُ خَلْـقِ اللَّه اركـانا
أَتْبعـــتُهم مُقْلـــةً إنســـانُها غَـــرِقٌ هـل مـا تَـرَى تاركٌ للعـين إنسـانا

فقال والله لئن تركتني لأسمعنك أحسن منه فأمرت بإخراجه فالتفت إليها وقال يا بنت رسول الله إن لي عليك حقا عظيما قالت وما هو قال ضربت إليك آباط الإبل من مكة إرادة التسليم عليك فكان جزائي من ذلك تكذيبي وطردي وتفضيل جرير علي ومنعك إياي أن أنشدك شيئا من شعري وبي ما قد

عيل منه صبري وهذه المنايا تغدوا وتروح ولعلي لا أفارق المدينة حتى أموت فإذا أنا مت فمري بي أن أدرج في كفني وأدفن في حر هذه يعني الجارية التي أعجبته فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية فخرج بها آخذا بريطتها وأمرت الجواري فدفعن في أقفيتهما ونادته يا فرزدق احتفظ بها وأحسن صحبتها فإني آثرتك بها على نفسي.

خبره مع عمر بن عبد العزيز

أخبرني مُحَّد بن العباس اليزيدي قال حدثنا سليمان بن أبي شيخ قال حدثنا مُحَّد بن الحكم وأخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثنا أبو الهيثم بدر بن سعيد العطار قال حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال لما استخلف عمر بن عبد العزيز جاءه الشعراء فجعلوا لا يصلون إليه فجاء عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وعليه عمامة قد أرخى طرفيها فدخل فصاح به جرير.

يأيُّها القارىءُ المُرْخي عِمامَته ... هذا زمانُك إنِّي قد مَضَى زَمَنِي

أبلِغ خليفتَنا إن كنتَ لاقيَه ... أنِّي لَدَى البابِ كالمَصْفودِ في قَرَنِ

فدخل على عمر فاستأذن له فأدخله عليه وقد كان هيأ له شعرا فلما دخل عليه غيره وقال:

إنا لنرجو إذا ما الغيثُ أَخْلَفَنا ... من الخليفةِ ما نرجوا من المطرِ

نال الخلافةَ إذ كانت له قَدَراً ... كما أَتَى ربَّه موسى على قَدَر

أأذكر الجَهْدَ والبَلْوَى التي نزلتْ ... أم تَكْتفي بالذي بُلَّغْتَ من خَبَرِي

مــا زِلْــتُ بعــدَك في دارٍ تَعَــرَّقُنِي قد طال بعدك إصعادي ومُنحدَرِي

لا ينفَــع الحاضــرُ المجهــودُ بادِيَنــا ولا يجــود لنــا بادٍ علــى حَضَــرِ

كــم بالمواسِــم مــن شَــعْثاءَ أَرْمَلــةٍ ومن يَتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والبصرِ

يــدعوك دعــوةَ ملهــوفٍ كــأنّ بــه خَبْلاً من الجِنّ أو مَسّاً من النُّشَرِ

ممّــن يَعُــدُّك نَكْفِــي فَقْــدَ والــدِه كالفَرْخ في العُشّ لم يَنْهَضْ ولم يَطِرِ

قال فبكى عمر ثم قال يابن الخطفي أمن أبناء المهاجرين أنت فنعرف لك حقهم أم من ابناء الأنصار فيجب لك ما يجب لهم أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب صدقات قومك فيصلك بمثل ما يصل به قومك فقال يا أمير المؤمنين ما أنا بواحد من هؤلاء وإني لمن أكثر قومي مالا وأحسنهم حالا ولكني اسألك ما عودتنيه الخلفاء أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان فقال له عمر كل امرىء يلقى فعله وأما أنا فما أرى لك في مال الله حقا ولكن انتظر يخرج فانظر ما يكفي عيالي سنة منه فأدخره لهم ثم إن فضل فضل صرفناه إليك فقال جرير لا بل يوفر أمير المؤمنين ويحمد وأخرج راضيا قال فذلك أحب إلي فخرج فلما ولى قال عمر إن شر هذا ليتقى ردوه إلي فردوه فقال إن عندي أربعين دينارا وخلعتين إذا غسلت إحداهما لبست الأخرى وأنا مقاسمك ذلك على أن الله جل وعز يعلم أن عمر أحوج إلى ذلك منك فقال له قد وفرك الله يا أمير المؤمنين وأنا والله راض قال أما وقد حلفت فإن ما وفرته علي ولم تضيق به معيشتنا آثر في نفسي من المدح فامض مصاحبا فخرج فقال له أصحابه وفيهم الفرزدق ما صنع بك أمير المؤمنين يا أبا حزرة قال خرجت من عند رجل يقرب الفقراء ويباعد الشعراء وأنا مع ذلك عنه راض ثم وضع رجله في غرز راحلته وأتى قومه فقالوا له ما صنع بك أمير المؤمنين أبا حزرة فقال:

تركتُ لكم بالشام حَبْلَ جماعةٍ أَمِينَ القُوَى مُسْتَحْصِدَ العَقْدِ باقيَا

وجدتُ رُقَى الشيطانِ لا تستفِزُّه وقد كان شيطاني من الجِنّ راقيَا

هذه رواية عمر بن شبة وأما اليزيدي فإنه قال في خبره فقال له جرير يا أمير المؤمنين فإني ابن سبيل قال لك ما لأبناء السبيل زادك ونفقة تبلغك وتبدل راحلتك إن لم تحملك فألح عليه فقالت له بنو أمية يا أبا حزرة مهلا عن أمير المؤمنين ونحن نرضيك من أموالنا عنه فخرج وجمعت له بنو أمية مالا عظيما فما خرج من عند خليفة بأكثر مما خرج من عند عمر.

بشار يفضله على الفرزدق والأخطل

أخبرني أبو خليفة قال حدثنا مُحَمَّد بن سلام قال:

سألت بشارا العقيلي عن الثلاثة فقال لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه قلت فجرير والفرزدق قال كان جرير يحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق وفضل جريرا عليه.

وقال ابن سلام قال العلاء بن جرير وكان قد أدرك الناس وسمع كان يقال الأخطل إذا لم يجيء سابقا فهو سكيت والفرزدق لا يجيء سابقا ولا سكيتا فهو بمنزلة المصلي أبدا وجرير يجيء سابقا ومصليا وسكيتا قال ابن سلام وتأول قوله إن للأخطل خمسا أو ستا أو سبعا طوالا روائع غررا جيادا هو بهن سابق وسائر شعره دون اشعارهما فهو فيما بقي بمنزلة السكيت والسكيت آخر الخيل في الرهان والفرزدق دونه في هذه الروائع وفوقه في بقية شعره فهو كالمصلي أبدا وهو الذي يجيء بعد السابق وقبل السكيت وجرير له روائع هو بهن سابق وأوساط هو بهن مصل وسفسافات هو بهن سكيت.

رثاؤه الفرزدق

أخبرني أبو الحسن الأسدي قال حدثني أبو جناح أحد بني كعب بن عمرو بن تميم قال: نُعي الفرزدق إلى المهاجر بن عبد الله وجرير عنده فقال:

مــات الفــرزدقُ بعــد مــا جدَّعتُــه   ليــت الفــرزدقَ كــان عــاش قلــيلا

فقال له المهاجر بئس لعمر الله ما قلت في ابن عمك أتهجو ميتا أما والله لو رثيته لكنت أكرم العرب وأشعرها فقال إن رأى الأمير أن يكتمها علي فإنها سوءة ثم قال من وقته:

فــلا وَضَــعَتْ بعــد الفــرزدقِ حامــل   ولا ذات بَعْــلٍ مــن نِفَــاسٍ تَعَلَّــتِ

هــو الوافــدُ الميمــونُ والراتِــقُ الثــأى   إذا النعــل يومــاً بالعَشــيرة زَلَّــتِ

قال ثم بكى ثم قال أما والله إني لأعلم أني قليل البقاء بعده ولقد كان نجمنا واحدا وكل واحد منا مشغول بصاحبه وقلما مات ضد أو صديق إلا تبعه صاحبه فكان كذلك مات بعد سنة وقد زاد الناس في بيتي جرير هذين أبياتا أخر ولم يقل غيرهما وإنما أضيف إلى ما قاله.

١٣

نسب جميل وأخباره

هو جميل بن عبد الله بن معمر بن الحارث بن ظبيان وقيل ابن معمر بن حن بن ظبيان بن قيس بن جزء بن ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد بن كثير بن عذرة بن سعد وهو هذيم وسمي بذلك إضافة لاسمه إلى عبد لأبيه يقال له هذيم كان يحضنه فغلب عليه ابن زيد بن سود بن اسلم بن الحاف بن قضاعة والنسابون مختلفون في قضاعة فمنهم من يزعم أن قضاعة بن معد وهو أخو نزار بن معد لأبيه وأمه وهي معانة بنت جوسم بن جلهمة بن عامر بن عوف بن عدي بن دب بن جرهم ومنهم من يزعم أنهم من حمير وقد ذكر جميل ذلك في شعره فانتسب معديا فقال:

أنا جميـــلٌ في السَّـــنَامِ مـــن مَعَـــدّ   في الأُسْرَةِ الحَصْداءِ والعِيص الأَشَـدّ

وقال راجز من قضاعة ينسبهم إلى حمير:

قُضَـــاعَةُ الأَثْـــرَوْنَ خـــيرُ مَعْشَـــرِ   قضـــاعةُ بـــنُ مالـــكِ بـــنِ حِمْـــيَرِ

ولهم في هذا أراجيز كثيرة إلا أن قضاعة اليوم تنسب كلها في حمير فتزعم أن قضاعة بن مالك بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقال القحذمي اسم سبأ عامر وإنما قيل له سبأ لأنه أول من سبى النساء وكان يقال له عب الشمس أي عديل الشمس سمي بذلك لحسنه ومن زعم من هؤلاء أن قضاعة ليس ابن معد ذكر أن أمه عكبرة امرأة من سبأ كانت تحت مالك بن عمر فمات عنها وهي حامل فخلفه عليها معد بن عدنان

فولدت قضاعة على فراشه وقال مؤرج بن عمرو هذا قول أحدثوه بعد وصنعوا شعراً ألصقوه به ليصححوا هذا القول وهو:

يا أيُّهــا الــدَّاعِي ادْعُنــا وأبشِــرِ وكُــــنْ قُضَـــاعِيّاً ولا تَنَـــــزَّرِ

قضـــاعةُ الأَثْـــرَوْنَ خـــيرُ مَعْشَـــرِ قضـــاعةُ بـــنُ مالـــك بـــنِ حمـــير

النسبُ المعروفُ غير المُنْكَر ...

قال مؤرج وهذا شيء قيل في آخر أيام بني أمية وشعراء قضاعة في الجاهلية والإسلام كلها تنتمي إلى معد قال جميل:

وأيّ مَعَـــدٍّ كـــان فَيْءُ رِمَـــاحِهِمْ كمــا قــد أَفَــأْنا والمُفَــاخِرُ مُنْصِــفُ

وقال زيادة بن زيد يهجو بني عمه بني عامر رهط هدبة بن خشرم

وإذا مَعَـــدٌّ أَوْقَـــدتْ نِيرانَهَـــا للمجـدِ أغْضَـتْ عـامرٌ وتضعضـعوا

وجميل شاعر فصيح مقدم جامع للشعر والرواية كان راوية هدبة بن خشرم وكان هدبة شاعرا راوية للحطيئة وكان الحطيئة شاعرا راوية لزهير وابنه وقال أبو محلم آخر من اجتمع له الشعر والرواية كثير وكان راوية جميل وجميل راوية هدبة وهدبة راوية الحطيئة والحطيئة راوية زهير، أخبرني هاشم بن مُحَمَّد قال حدثنا عيسى بن إسماعيل عن القحذمي قال كان جميل يهوى بثينة بنت حبأ بن ثعلبة بن الهوذ بن عمرو بن الأحب بن حن بن ربيعة تلتقي هي وجميل في حن من ربيعة في النسب.

حدثني أبو الحسن أحمد بن مُحَمَّد الأسدي وهاشم بن مُحَمَّد أو دلف الخزاعي قالا حدثنا الرياشي قال حدثنا الأصمعي عن ابن أبي الزناد قال كان كثير راوية جميل وكان يقدمه على نفسه ويتخذه إماما وإذا سئل عنه قال وهل علم الله عز وجل ما تسمعون إلا منه.

أخبرني مُحَمَّد بن مزيد عن حماد عن أبيه عن صباح بن خاقان عن عبد الله بن معاوية الزبيري قال كان كثير إذا ذكر له جميل قال وهل علم الله ما تسمعون إلا منه.

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني مُحَمَّد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عمران عن المسور بن عبد الملك عن نصيب مولى عبد العزيز بن مروان قال قدمت المدينة فسألت عن اعلم أهلها بالشعر فقيل لي الوليد بن سعيد بن أبي سنان الأسلمي فوجدته بشعب سلع مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزهر فإنا لجلوس إذ طلع علينا رجل طويل بين المنكبين طوال يقود راحلة عليها بزة حسنة فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر يا أبا جبير هذا جميل فأدعه لعله أن ينشدنا فصاح به عبد الرحمن هيا جميل هيا جميل فالتفت فقال من هذا فقال أنا عبد الرحمن بن أزهر فقال قد علمت أنه لا يجترىء علي إلا مثلك فأتاه فقال له أنشدنا فأنشدهم:

نحـــنُ مَنَعْنـــا يـــومَ أَوْلٍ نســـاءَنا ... ويـــومَ أُفَيٍّ والأسِــــنَّةُ تَرْعُــــفُ

ويـــومَ رَكَـــايا ذِي الجَـــذَاةِ ووقعـــةٍ ... ببَنْيَـانَ كانـت بعـضَ مـا قـد تَسَـلَّفُوا

يُحِــبّ الغَــوَانِي البِــيضُ ظِــلَّ لِوائنــا ... إذا مـــا أتانا الصــــارخُ المُتَلَهِّـــفُ

نَســيرُ أمــامَ النــاس والنــاسُ خَلْفَنــا ... فــإن نحــن أوْمَــأْنا إلى النــاس وَقَّفُــوا

فـــأيُّ مَعَــــدٍّ كـــان فَيْءُ رِمَاحِـــهِ ... كمــا قــد أفــأنا والمُفَــاخِرُ يُنْصِــفُ

وكنَّـــا إذا مـــا مَعْشَـــرٌ نَصَــبُوا لنـــا ... ومــرَّتْ جَــوَارِي طَــيْرِهم وتَعَيَّفــوا

وضَـعْنا لهـم صـاعَ القِصَـاصِ رهينـةً ... بمـا سـوف نُوفِيهـا إذا النـاسُ طَفَّفُـوا

إذا اســتبق الأقــوامُ مجــداً وجــدتَنا ... لنـــا مِغْرَفَـــا مَجْــدٍ وللنـــاسِ مِغْــرَفُ

كان مقدماً في النسيب على غيره

أخبرني أبو خليفة عن مُحَّد بن سلام قال كان لكثير في النسب حظ وافر وجميل مقدم عليه وعلى أصحاب النسيب في النسيب وكان كثير راوية جميل وكان جميل صادق الصبابة والعشق ولم يكن كثير بعاشق ولكنه كان يتقول وكان الناس يستحسنون بيت كثير في النسيب: ٤

أُريــد لأَنسَــى ذكرَهــا فكأنَّمــا　　　تمَثَّــلُ لي لَيْلَــى بكــلِّ ســبيل

قال ورأيت من يفضل عليه بيت جميل:

خليلــيّ فيمــا عِشْــتُما هــل رأيتُمــا　　　قَتِيلاً بَكى مـن حـبّ قاتلِـه قَبْلِـي

قال ابن سلام وهذا البيت الذي لكثير أخذه من جميل حيث يقول:

أريــد لأنْسَــى ذكرَهــا فكأنَّمــا　　　تَمَثَّـلُ لي لَيْلَـى علـى كـلَّ مَرْقَـبِ

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثنا الزبير بن بكار عن مُحَّد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عمران عن مُحَّد بن عبد العزيز عن أبي شهاب طلحة بن عبد الله بن عوف قال:

لقي الفرزدق كثيرا بقارعة البلاط وأنا وهو نمشي نريد المسجد فقال له الفرزدق يا أبا صخر أنت أنسب العرب حين تقول:

أُريــد لأَنسَــى ذكرَهــا فكأنَّمــا　　　تمَثَّــلُ لي لَيْلَــى بكــلِّ ســبيل

يعرض له بسرقته من جميل فقال له كثير وأنت يا أبا فراس أفخر الناس حين تقول:

تَـرَى النـاسَ مـا سِـرْنا يَسـيرون خَلْفَنـا　　　وإن نحــن أَوْمَــأْنا إلى النــاس وَقَّفُــوا

قال عبد العزيز وهذا البيت أيضا لجميل سرقة الفرزدق فقال الفرزدق

لكثير هل كانت أمك مرت بالبصرة قال لا ولكن أبي فكان نزيلا لأمك قال طلحة بن عبد الله فوالذي نفسي بيده لعجبت من كثير وجوابه وما رأيت أحداً قط أحمق منه رأيتني دخلت عليه يوما في نفر من قريش وكنا كثيرا ما نتهزأ به فقلنا كيف تجدك يا أبا صخر قال بخير أما سمعتم الناس يقولون شيئا قلنا نعم يتحدثون أنك الدجال فقال والله لئن قلتم ذاك إني لأجد في عيني هذه ضعفاً منذ أيام.

خبر تعرفه ببثينة

كان جميل ينسب بأم الجسير وكان أول ما علق بثينة أنه أقبل يوما بإبله حتى أوردها واديا يقال له بغيض فاضطجع وأرسل إبله مصعدةً وأهل بثينة بذنب الوادي فأقبلت بثينة وجارة لها واردتين الماء فمرتا على فصال له بروك فعرمتهنّ بثينة يقول نفرتهن وهي إذ ذاك جويرية صغيرة فسبها جميل فأفترت عليه فملح إليه سبابها فقال:

وأَوَّلُ مــا قــاد المــودَّةَ بيننــا ... بِــوَادِي بَغــيضٍ يا بُثَــيْنَ سِــبَابُ

وقلنــا لهــا قَــوْلاً فجــاءت بمثلــه ... لكــلّ كــلامٍ يا بُثَــيْنَ جــوابُ

قال الزبير وحدثني مُحَّد بن إسماعيل بن جعفر عن سعيد بن نبيه بن الأسود العذري وكانت بثينة عند أبيه نبيه بن الأسود وإياه يعني جميل بقوله:

لقــد أَنْكَحُــوا جَهْــلاً نُبَيهــاً ظَعِينــةً ... لَطِيفةَ طَيِّ الكَشْحِ ذاتَ شَوًى خَدْلِ

قال الزبير وحدثني أيضا الأسباط بن عيسى بن عبد الجبار العذري أن جميل بن معمر خرج في يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزين ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال وأن جميلا وقف على بثينة وأختها أم الجسير في نساء من بني الأحب وهن بنات عم عبيد الله بن قطبة أخي أبيه لحا فرأى منهن منظرا وأعجبنه

وعشق بثينة وقعد معهن ثم راح وقد كان معه فتيان من بني الأحب فعلم أن القوم قد عرفوا في نظره حب بثينة ووجدوا عليه فراح وهو يقول:

عَجِــل الفِــراقُ ولَيْتَــه لم يَعْجَــلِ   وجــرتْ بــوادرُ دَمْعِــك المُتَهلّــلِ

طَـرَباً وشـاقكَ مـا لَقِيـتَ ولم تَخَـفْ   بَـيْنَ الحبيــبِ غــداةَ بُرْقــةِ مِجْــوَلِ

وعرفـتَ انـك حـين رُحْـتَ ولم يكـن   بعــدُ اليقــينُ ولــيس ذاك بمُشْــكِلِ

لــن تَســتطيع إلى بثينــة رَجْعــةً   بعــد التفــرُّق دون عــامٍ مُقبِــلِ

قال وإن بثينة لما أخبرت أن جميلا قد نسب بها حلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه فكان يأتيها عند غفلات الرجال فيتحدث إليها ومع أخواتها حتى نمي إلى رجالها أنه يتحدث إليها إذا خلا منهم وكانوا أصلافا غيرا أو قال غيارى فرصدوه بجماعة نحو من بضعة عشر رجلا وجاء على الصهباء ناقته حتى وقف على بثينة وأم الجسير وهما يحدثانه وهو ينشدهما يومئذ:

حلفــتُ بــربِّ الراقصــاتِ إلى مِــنًى   هُــوِيَّ القَطَــا يَجْتَــزْنَ بطــنَ دَفِــينِ

لقـد ظَـنَّ هـذا القلـبُ أن لـيس لاقيـاً   سُــــلَيْمَى ولا أمَّ الجُسَـــيْرِ لحِـــينِ

فليـت رجـالاً فيـكِ قـد نـذَرُوا دَمِـي   وهَمُّــوا بقَتْلِــي يا بُثَــيْنَ لَقُــونِي

فبينا هو على تلك الحال إذ وثب عليه القوم فرماهم بها فسبقت به وهو يقول:

إذا جمــع الاثنــان جمعــاً رميــتُهم   بأركانهــا حــتى تُخَلَّــى ســبيلُها

فكان هذا أول سبب المهاجاة بينه وبين عبيد الله بن قطبة.

تشكيه في شعره

أخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثنا بهلول بن سليمان عن مشيخة من عذرة أن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا في بعض المواضع فأتى لوعدها وجاء أعرابي يستضيف القوم فأنزلوه وقروه فقال لهم قد رأيت في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متفرقين متوارين في الشجر وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم فعرفوا أنه جميل وصاحباه فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده فلما أسفر له الصبح انصرف كئيبا سيء الظن بها ورجع إلى أهله فجعل نساء الحي يقرعنه بذلك ويقلن له إنما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر وغيرها أولى بوصلك منها كما أن غيرك يحظى بها فقال في ذلك:

أبُثَـيْن إنَّـكِ قـد مَلَكْـتِ فأَسْـجِحِي ... وخُـذِي بحظـك مـن كـريمٍ واصـلِ

فأجبتُهـا في القـول بعـد تَسَـتُّرٍ ... حُـبِّي بثينـةَ عـن وِصَـالِكِ شـاغِلِي

فلـربَّ عارضـةٍ علينـا وَصْـلَها ... بالجِـدّ تَخْلِطـه بقـول الهـازل

لـو كـان في صـدري كقَـدْرِ قُلاَمـةٍ ... فَضْـلاً وصـلتُكِ أو أتتـكِ رسـائلي

التقى بثينة بعد غياب فتعاتبا.

أخبرني علي بن صالح قال حدثني عمر بن شبة عن إسحاق قال : لقي جميل بثينة بعد تهاجر كان بينهما طالت مدته فتعاتبا طويلا فقالت له ويحك يا جميل أتزعم أنك تهواني وأنت الذي تقول:

رمَـى اللّهُ في عيـنيْ بُثَينَـةَ بالقَـذَى ... وفي الغُـرّ مـن أَنْيابهـا بالقَـوَادِحِ

فأطرق طويلا يبكي ثم قال بل أنا القائل:

ألا ليتَــنِي أَعْمَــى أصــمٌّ تَقُــوُدنِي　　　بثينــةُ لا يَخْفَــى علــيّ كلامُهــا

فقالت له ويحك ما حملك على هذه المنى أوليس في سعة العافية ما كفانا جميعا

قال إسحاق وحدثني أيوب بن عباية قال سعت أمة لبثينة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما إن جميلا عندها الليلة فأتياها مشتملين على سيفين فرأياه جالسا حجرة منها يحدثها ويشكو إليها بثه ثم قال لها يا بثينة أرأيت ودي إياك وشغفي بك ألا تجزينيه قالت بماذا قال بما يكون بين المتحابين فقالت له يا جميل أهذا تبغي والله لقد كنت عندي بعيدا منه ولئن عاودت تعريضا بريبة لا رأيت وجهي أبدا فضحك وقال والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه ولو علمت أنك تجيبينني إليه لعلمت أنك تجيبين غيري ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد أو ما سمعت قولي:

وإِنِّي لأَرْضَــى مــن بُثَينــةَ بالــذي　　　لــو ابْصَــرَه الواشِــي لقــرَّتْ بَلاَبِلُــهْ

بــلاَ وبأن لا أســتطيعَ وبالمُــنَى　　　وبالأمــلِ المرجــوِّ قــد خــاب آملُــهْ

وبالنَّظْـرَةِ العَجْلَـى وبالحَـول تَنْقَضِـي　　　أواخــرُه لا نَلْتَقِــي وأوائلُــهْ

قال فقال أبوها لأخيها قم بنا فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها فانصرفا وتركاهما.

كثير يسعى لجمعهما

أخبرني حبيب بن نصر المهلبي قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثنا إسحاق

الموصلي عن السعيدي وأخبرني مُحَّد بن مزيد قال حدثنا حماد عن أبيه قال حدثنا أبو مالك النهدي قال جلس إلينا كثير ذات يوم فتذاكرنا جميلا فقال لقيني مرة فقال لي من أين أقبلت قلت من عند أبي الحبيبة أعني بثينة فقال وإلى أين تمضي قلت إلى الحبيبة أعني عزة فقال لا بد من أن ترجع عودك على بدئك فتستجد لي موعدا من بثينة فقلت عهدي بها الساعة وأنا أستحيي أن أرجع فقال لا بد من ذلك فقلت له فمتى عهدك ببثينة فقال في أول الصيد وقد وقعت سحابة بأسفل وادي الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها فلما أبصرتني أنكرتني فضربت بيديها إلى ثوب في الماء فالتحفت به وعرفتني الجارية فأعادت الثوب في الماء وتحدثنا حتى غابت الشمس وسألتها الموعد فقالت أهلي سائرون وما وجدت أحداً آمنه فأرسله إليها فقال له كثير فهل لك في أن آتي الحي فأنزع بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها قال ذلك الصواب فأرسله إليها فقال له انتظرني ثم خرج كثير حتى أناخ بهم فقال له أبوها ما ردك قال ثلاثة أبيات عرضت لي فأحببت أن أعرضها عليك قال هاتها قال كثير فأنشدته وبثينة تسمع:

فقلتُ لها يا عزّ أُرْسِلُ صاحبي ... إليكِ رسولاً والمُوَكَّلُ مُرْسَلُ

بأن تجعَلي بَيْني وبَيْنَكِ موعِداً ... وأنْ تأمُريني ما الذي فيه أفعلُ

وآخِرُ عهدِي منكِ يومَ لقيتِني ... بأسفلِ وادي الدَّوْمِ والثوبُ يُغْسَلُ

قال فضربت بثينة جانب خدرها وقالت إخسأ إخسأ فقال أبوها مهيم يا بثينة قالت كلب يأتينا إذا نوم الناس من وراء الرابية ثم قالت للجارية ابغينا من الدومات حطبا لنذبح لكثير شاة ونشويها له فقال كثير أنا أعجل من ذلك وراح إلى جميل فأخبره فقال له جميل الموعد الدومات وقالت لأم الحسين وليلى

ونجيا بنات خالتها وكانت قد أنست إليهن واطمأنت بهن إني قد رأيت في نحو نشيد كثير أن جميلا معه وخرج كثير وجميل حتى أتيا الدومات وجاءت بثينة ومن معها فما برحوا حتى برق الصبح فكان كثير يقول ما رأيت مجلسا قط أحسن من ذلك ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر ما أدري أيهما كان أفهم

خبره مع أم منظور التي اؤتمنت على بثينة.

أخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثني عمر بن إبراهيم وغيره وبهلول بن سليمان البلوي أن رهط بثينة ائتمنوا عليها عجوزا منهم يثقون بها يقال لها أم منظور فجاءها جميل فقال لها يا أم منظور أريني بثينة فقالت لا والله ما أفعل قد ائتمنوني عليها فقال أما والله لأضرنك فقالت المضرة والله في أن أريكها فخرج من عندها وهو يقول:

ما أَنْسَ لا أَنْسَ منها نظرةً سَلَفَتْ   بالحِجْرِ يومَ جَلَتْها أُمُّ منظورِ

ولا انسِلاَبَتها خُرْساً جبائرُها   إليَّ من ساقِط الأَرواقِ مستور

قال فما كان إلا قليل حتى انتهى إليهم هذان البيتان قال فتعلقوا بأم منظور فحلفت لهم بكل يمين فلم يقبلوا منها هكذا ذكر الزبير بن بكار في خبر أم منظور وقد ذكر فيه غير ذلك.

شعره بعد أن علم زوج بثينة بمقامه معها

وذكر الهيثم بن عدي وأصحابه أن جماعة من بني عذرة حدثوا أن جميلا رصد بثينة ذات ليلة في نجعة لهم حتى إذا صادف منها خلوة سكر ودنا منها وذلك في ليلة ظلماء ذات غيم وريح ورعد فحذفها بحصاة فأصابت بعض أترابها ففزعت وقالت والله ما حذفني في هذا الوقت بحصاة إلا الجن فقالت لها بثينة وقد فطنت إن جميلا فعل ذلك فانصرفي ناحية إلى منزلك حتى ننام

فانصرفت وبقيت مع بثينة أم الجسير وأم منظور فقامت إلى جميل فأدخلته الخباء معها وتحدثا طويلا ثم اضطجع واضطجعت إلى جنبه فذهب النوم بهما حتى أصبحا وجاءها غلام زوجها بصبوح من اللبن بعث به إليها فرآها نائمة مع جميل فمضى لوجهه حتى خبر سيده ورأته ليلى والصبوح معه وقد عرفت خبر جميل وبثينة فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله وبعثت بجارية لها وقالت حذري بثينة وجميلا فجاءت الجارية فنبهتهما فلما تبينت بثينة الصبح قد أضاء والناس منتشرين ارتاعت وقالت يا جميل نفسك نفسك فقد جاءني غلام نبيه بصبوحي من اللبن فرآنا نائمين فقال لها جميل وهو غير مكترث لما خوفته منه.

لعَمْـرُكِ مـا خَـوَّفْتِنِي مـن مَخافـةٍ بُثَـيْن ولا حَـذَّرْتِنِي موضـعَ الحَـذَرْ

فأُقْسِـمُ لا يُلْفَـى لِيَ اليـومَ غِـرَّةٌ وفي الكَـفِّ مـنِّي صـارمٌ قـاطعٌ ذَكَـرْ

فأقسمت عليه أن يلقي نفسه تحت النضد وقالت إنما أسألك ذلك خوفا على نفسي من الفضيحة لا خوفا عليك ففعل ذلك ونامت كما كانت واضجعت أمّ الجسير إلى جانبها وذهبت خادم ليلى إليها فأخبرتها الخبر فتركت العبد يمضي إلى سيده فمضى والصبوح معه وقال له إني رأيت بثينة مضطجعة وجميل إلى جنبها فجاء نبيه إلى أخيها وأبيها فأخذ بأيديهما وعرفهما الخبر وجاؤوا بأجمعهم إلى بثينة وهي نائمة فكشفوا عنها الثوب فإذا أم الجُسير إلى جانبها نائمة فخجل زوجها وسب عبده وقالت ليلى لأخيها وأبيها قبحكما الله أفي كل يوم تفضحان فتاتكما ويلقاكما هذا الأعور فيها بكل قبيح قبحه الله وإياكما وجعلا يسبان زوجها ويقولان له كل قول قبيح وأقام جميل عند بثينة حتى أجنه الليل ثم ودعها وانصرف وحذرتهم بثينة لما جرى من لقائه إياها فتحامته مدة فقال في ذلك:

أأن هتَفــتْ وَوَرْقــاءُ ظَلْــتَ سَــفَاهةً تُبَكِّــي علــى جُمْــلٍ لوَرْقَــاءَ تَهْتِــفُ
فلـو كـان لي بالصـرم يا صـاحِ طاقـةٌ صـرَمتُ ولكِّـني عـن الصـرم أضـعُفُ

جفاء بينه وبين بثينة

أخبرنا لحسين بن يحيى المرداسي قال أخبرنا حماد بن إسحاق عن أبيه عن أيوب بن عباية المحرزي عن شيخ من رهط جميل من عذرة أن بثينة لما علقت حجنة الهلالي جفاها جميل قال وأنشدني لجميل في ذلك.

بَيْنــا حِبــالٌ ذاتُ عَقْــدٍ لبَثْنــةٍ أُتِــيحَ لهــا بعــضُ الغــواة فحلَّهــا
فعُــدْنا كــأنَّا لم يكــن بيننــا هَــوىً وصـار الـذي حَـلَّ الحبـالَ هَـوىً لهـا
وقــالوا نَراهــا يا جميــلُ تبــدَّلتْ وغيَّرهــا الواشِــي فقلــتُ لعلَّهــا

أخبرني مُحَمَّد بن مزيد قال حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه قال حدثنا أبو عوف عن عبد الرحمن بن مقرن قال بعثني المنصور لأبتاع له جارية من المدينة وقال لي اعمل برأي ابن نفيس فكنت أفعل ذلك وأغشى ابنه وكانت له جارية مغنية قد كلف بها فتى من آل عثمان بن عفان فكان يبيع عقدة من ماله وينفق ثمنها عليها وابتلي برجل من أهل إفريقية ومعه ابن له فغشي ابن الإفريقي بيت ابن نفيس فجعل يكسو الجارية وأهلها ويبرهم حتى حظي عندهم وغلب عليهم وتثاقلوا العثماني فقضي أن اجتمعنا عشية وحضر ابن الإفريقي والعثماني فنزع ابن الإفريقي خفه فتناثر المسك منه وأراد العثماني أن يكيده بفعله فجلسنا ساعة فقال لها ابن الإفريقي غني:

بَيْنَــا حِبَــالٌ ذاتُ عَقْــدٍ لبَثْنــةٍ أُتِــيح لهــا بعــضُ الغُــوَاةِ فحَلَّهــا

يعرض بالعثماني فقال لها العثماني لا حاجة لنا في هذا ولكن غني:

ومـن يَـرْعَ نَجْـداً يُلْفِـنِي قـد رَعَيْتـه بِجَنْبَيْــه الأولى ويُــورِدْ علــى وِرْدِي

شعره بعد زواج بثينة من نبيه

أخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي وبهلول بن سليمان البلوي أن جميلا قال لما زوجت بثينة نبيها:

أَلاَ نَادِ عِــيراً مــن بُثَينــةَ تَرْتَعِــي نــودِّعْ علــى شَـحْطِ النَّـوَى ونُــوَدَّعِ

وحَثُّــوا علــى جَمْــع الرِّكَــابِ وقَرَّبُــوا جِمــالاً ونُوقــا جِلَّــةً لم تَضَعْضَــعِ

هرب إلى اليمن بعد أن أهدر دمه

حدثني عمرو بن ابي عمرو الشيباني عن أبيه قال حدثني بعض رواة عذرة أن السلطان أهدر دم جميل لرهط بثينة إن وجدوه قد غشي دورهم فحذرهم مدة ثم وجدوه عندها فأعذروا إليه وتوعدوه وكرهوا أن ينشب بينهم وبين قومه حرب في دمه وكان قومه أعز من قومها فأعادوا شكواه إلى السلطان فطلبه طلبا شديدا فهرب إلى اليمن فأقام بها مدة وأنشدني له في ذلك:

أَلَمَّ خَيــالٌ مــن بُثَينــةَ طــارقُ علــى النَّــأيِ مُشْــتاقٌ إليَّ وشــائقُ

سَرَتْ من تِلاَعِ الحِجْرِ حتى تخلَّصتْ إليّ ودُوني الأَشْــعَرُون وغــافِقُ

كـأنَّ فَتِيـتَ المسـك خـالط نَشْـرَها تُغَــلَّ بــه أَرْدانُهــا والمَرافِــقُ

تقوم إذا قامت به عن فِراشها ويَغْدُو به من حِضْنِها من تُعَانِقُ

قال أبو عمرو وحدثني هذا العذري أن جميلا لم يزل باليمن حتى عزل ذلك الوالي عنهم وانتجعوا ناحية الشام فرحل إليهم قال فلقيته فسألته عما أحدث

بعدي فأنشدني:

سَقَى منزلَيْنا يا بُثَين بحاجرٍ على الهَجْرِ منَّا صَيِّفٌ ورَبِيعُ

ودُورَكِ يا لَيْلَى وإن كُنّ بَعْدنا بَلِينَ بلًى لم تَبْلَهُنَّ رُبوعُ

وخَيْماتِك اللاَّتِي بمُنْعَرَجِ اللِّوَى لقُمْرِيِّها بالمَشْرِقَيْن سجيعُ

تُزَعْزِعُ منها الريحُ كلَّ عشيَّةٍ هَزِيمٌ بسُلاَّفِ الرياح رَجِيعُ

وإنِيّ أن يَعْلَى بكِ اللَّوْمُ أو تُرَيْ بدارِ أذىً من شامتٍ لجَزُوعُ

وإنِيّ على الشيء الذي يُلْتَوَى به وإن زَجَرَتْني زَجْرَةً لَورِيعُ

فَقَدْتُكِ من نَفْسٍ شَعَاعٍ فإنَّني نَهَيتُكِ عن هذا وأنتِ جميعُ

فقَرَّبتِ لي غيرَ القريبِ وأشرفتْ هناكَ ثَنَايَا ما لهنَّ طُلُوعُ

يقولون صَبٌّ بالغَوانِي مُوَكَّلٌ وهل ذاك من فعل الرجال بَديعُ

وقالوا رعيتَ اللَّهوَ والمالُ ضائعٌ فكالناسِ فيهم صالحٌ ومُضِيعُ

خروجه إلى الشام

أخبرني مُحَمَّد بن مزيد قال حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه عن أيوب بن عباية قال لما أراد جميل الخروج إلى الشام هجم ليلاً على بثينة وقد وجد غفلة فقالت له أهلكتني والله وأهلكت نفسك ويحك أما تخاف فقال لها هذا وجهي إلى الشام إنما جئتك مودعا فحادثها طويلا ثم ودعها وقال يا بثينة ما أرانا نلتقي بعد هذا وبكيا طويلا ثم قال لها وهو يبكي:

أَلاَ لا أُبالِي جفوةَ الناس ما بدَا لنا منك رأيٌ يا بُثَيْن جميلُ

وما لم تُطيعي كاشحاً أو تَبَدَّلي بنا بدلاً أو كان منك ذُهول

وإنِّي وتَكْرارِي الزيارةَ نحوَكم بُثَيْن بذي هجرٍ بُثَين يطول

وإن صَبَاباتي بكم لكثيرةٌ بُثَيْن ونِسْيانِيكُم لقليلُ

لقاؤه بعمر بن أبي ربيعة وتناشدهما الشعر

اخبرني الحرمي بن أبي العلاء ومُحَمَّد بن مزيد بن أبي الأزهر قالا حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم المخزومي قال حدثني شيخ من أهلي عن أبيه عن الحارث مولى هشام بن المغيرة الذي يقول له عمر بن أبي ربيعة:

يا أبا الحارث قلبي طائر ...

قال شهدت عمر بن أبي ربيعة وجميل بن عبد الله بن معمر وقد اجتمعا بالأبطح فأنشد جميل قصيدته:

لقد فرِحَ الواشون أن صَرَمتْ حَبْلِي بُثَيْنةُ أو أبدتْ لنا جانبَ البُخْلِ

يقولون مَهْلاً يا جميلُ وإنني لأُقسم ما بي عن بُثَيْنة من مَهْلِ

أَحِلْماً فقبل اليوم كان أوانُه أَم اخْشَى فقبل اليومِ أُوعِدتُ بالقتلِ

لقد أَنْكَحُوا حَرْبِي نُبَيْهاً ظَعِينةً لطيفةَ طَيِّ البَطْنِ ذاتَ شَوًى خَدْلِ

وكم قد رأينا ساعياً بنَميمةٍ لآخرَ لم يَعْمِدْ بكفٍّ ولا رجلِ

إذا ما تراجعْنا الذي كان بيننا جَرى الدمعُ من عينَيْ بُثَيْنةَ بالكحلِ

عمر بن أبي ربيعة يطلب منه أن يأخذ به إلى بثينة

قال فصاح جميل واستخذى وقال ألا إن النسيب أخذ من هذا وما أنشده حرفا فقال له عمر إذهب بنا إلى بثينة حتى نسلم عليها فقال له جميل قد أهدر لهم السلطان دمي إن وجدوني عندها وهاتيك أبياتها فأتاها عمر حتى وقف على ابياتها وتأنس حتى كلم فقال يا جارية أنا عمر بن أبي ربيعة فأعلمي بثينة مكاني فخرجت إليه بثينة في مباذلها وقالت والله يا عمر لا أكون من نسائك اللاتي يزعمن أن قد قتلهن الوجد بك فانكسر عمر قال وإذا امرأة أدماء طوالة وأخبرني بهذا الخبر علي بن صالح عن أبي هفان عن إسحاق عن المسيبي والزبير فذكر مثل ما ذكره الزبير وزاد فيه قال فقال لها قول جميل:

وهُمَـــا قالتـــا لَـــوَانَّ جمـــيلاً	عَـــرَض اليـــومَ نَظْـــرةً فـــرآنا

بَيْنَمـــــا ذاك منهمـــــا وإذا بي	أُعْمِـــلُ الـــنَّصَّ سَـــيْرَةً زَفَيـــانَا

نظـــرتْ نحـــوَ تِرْبِهـــا ثم قالـــت	قـــد أتانا ومـــا علمنـــا مُنَـــانَا

وذكر الهيثم بن عدي وأصحابه في أخبارهم أن جميلا طال مقامه بالشام ثم قدم وبلغ بثينة خبره فراسلته مع بعض نساء الحي تذكر شوقها إليه ووجدها به وطلبها للحيلة في لقائه وواعدته لموضع يلتقيان فيه فسار إليها وحدثها طويلا وأخبرها خبره بعدها وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما فوثب جميل فانتضى سيفه وشد عليهما فاتقياه بالهرب وناشدته بثينة الله إلا انصرف وقالت له إن أقمت فضحتني ولعل الحي أن يلحقوك فأبى وقال أنا مقيم وامضي أنت وليصنعوا ما أحبوا فلم تزل تناشده حتى انصرف وقال في ذلك وقد هجرته وانقطع التلاقي بينهما مدة:

ألم تَسْــأَلِ الربــعَ الخَــلاَء فينطــقُ وهــل تُخبِرنْــكَ اليــومَ بَيْــدَاءُ سَمْلَــقُ
وقفــتُ بهــا حــتى تجلَّــتْ عَمَــايتي ومــلَّ الوقــوفَ الأرْحَــبِيُّ المنــوَّق
تَعَــزَّ وإن كانــت عليــك كريمــةً لعلَّــك مــن رِقٍّ لبَثْنَــةَ تَعْتِــقُ
لعَمْــرُكُم إن البِعــاد لشــائقي وبعــضُ بعــاد البَـيْنِ والنـأي أَشْـوَقُ
لعلَّــكَ محــزونٌ ومُبْــدٍ صَــبابة ومُظْهِــرُ شــكوى مــن أُناسٍ تفرَّقــوا
وبــيضٍ غَريــراتٍ تُثَــنِّي خُصــورَها إذا قُمْــنَ أعجــازٌ ثِقَــال وأسْــؤُقُ
غَرائــرَ لم يَلْقَــيْنَ بــؤسَ معيشــةٍ يُجَــنّ بهــنّ النــاظر المتنــوِّقُ
وغَلْغَلْـتُ مـن وَجْـدٍ إلـيهنَّ بعـدما سَرَيْتُ وأحْشائي من الخوف تَخفِقُ
معي صارِمٌ قد أَخْلص القَيْنُ صقْله لــه حــين أُغْشــيه الضَّــرِيبةَ روْنَــقُ
فلــولا احتيــالي ضِــقْن ذرْعــا بزائــرٍ بــه مــن صَــباباتٍ إلــيهنّ أَوْلَــقُ
تَسُــوكُ بقُضْــبانِ ٱلأَرَاكِ مفلَّجــاً يُشَعْشِــعُ فيــه الفارسِــيُّ المــروَّق
أبثنــةُ لَلْوَصْــلُ الــذي كــان بيننــا نَضَا مثلَ ما يَنْضُو الخِضابُ فيَخْلُقُ
أبَثْنَــةُ مــا تَنْــأَيْنَ إلاّ كــأنَّني بــنجم الثُّــرَيَّا مــا نأيــتِ مُعَلَّــقُ

أخبرني مُحَّد بن مزيد بن أبي الأزهر قال حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه قال دخلت على الرشيد يوما فقال لي يا إسحاق أنشدني أحسن ما تعرف في عتاب محب وهو ظالم متعتب فقلت يا أمير المؤمنين قول جميل:

رِدِ المـاءَ مـا جـاءتْ بصَـفْوٍ ذَنَائبُـهْ ودَعْـهُ إذا خِيضَـتْ بطَـرْقٍ مَشَـارِبُهْ

أُعاتِـبُ مَـنْ يحلـو لـديَّ عتابُـه وأتـرك مَـنْ لا أشـتهي وأُجَانِبُـهْ

ومـن لـذَّة الـدنيا وإن كنـتَ ظالمـاً عِناقُـك مظلومـاً وأنـت تُعاتبُـهْ

فقال أحسن والله أعدها علي فأعدتها حتى حفظها وأمر لي بثلاثين ألف درهم وتركني وقام فدخل إلى دار الحُرَم:

فشل محاولته في لقاء بثينة

أخبرني مُحَمَّد بن مزيد قال حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه عن السعيدي قال حدثني رجل كان يصحب جميلا من أهل تيماء قال كنت يوما جالسا مع جميل وهو يحدثني وأحدثه إذ ثار وتربد وجهه فأنكرته ورأيت منه غير ما كنت أرى ووثب نافرا مقشعر الشعر متغير اللون حتى أتي بناقة له قريبة من الأرض مجتمعة موثقة الخلق فشد عليها رحله ثم أتي بمحلب فيه لبن فشربه ثم ثنى فشربت حتى رويت ثم قال لي اشدد أداة رحلك واشرب واسق جملك فإني ذاهب بك إلى بعض مذاهبي ففعلت فجال في ظهر ناقته وركبت ناقتي فسرنا بياض يومنا وسواد ليلتنا ثم أصبحنا فسرنا يومنا كله لا والله ما نزلنا إلا للصلاة فلما كان اليوم الثالث دفعنا إلى نسوة فمال إليهن ووجدنا الرجال خلوفاً وإذا قدر لبن ثم وقد جهدت جوعا وعطشا فلما رأيت القدر اقتحمت عن بعيري وتركته جانبا ثم أدخلت رأسي في القدر ما يثنيني حرها حتى رويت فذهبت أخرج رأسي من القدر فضاقت علي وإذا هي على رأسي قلنسية فضحكن مني وغسلن ما أصابني وأتي جميل بقرى فوالله ما التفت إليه فبينا هو يحدثهن إذا رواعي الإبل وقد كان السلطان أحل لهم دمه إن وجدوه في بلادهم وجاء الناس فقالوا له ويحك انج وتقدم فوالله ما أكبرهم كل الإكبار وغشيه الرجال فجعلوا يرمونه ويطردونه فإذا قربوا منه قاتلهم ورمى فيهم وهام بي جملي فقال لي يسر لنفسك

مركبا خلفي فأردفني خلفه ولا والله ما انكسر ولا انحل عن فرصته حتى رجع إلى أهله وقد سار ست ليال وستة أيام وما التفت إلى طعام.

كيف نعي جميل إلى بثينة

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبي قالا حدثنا عمر بن شبة قال ذكر أيوب بن عباية قال خرجت من تيماء في أغباش السحر فرأيت عجوزا على أتان فتكلمت فإذا أعرابية فصيحة فقلت ممن أنت فقالت عذرية فأجريت ذكر جميل وبثينة فقالت والله إنا لعلى ماء لنا بالجناب وقد تنكبنا الجادة لجيوش كانت تأتينا من قبل الشام تريد الحجاز وقد خرج رجالنا لسفر وخلفوا معنا أحداثا فانحدروا ذات عشية إلى صرم قريب منا يتحدثون إلى جوار منهم فلم يبق غيري وغير بثينة إذ انحدر علينا منحدر من هضبة تلقاءنا فسلم ونحن مستوحشون وجلون فتأملته ورددت السلام فإذا جميل فقلت أجميل قال إي والله وإذا به لا يتماسك جوعا فقمت إلى قعب لنا فيه أقط مطحون وإلى عكة فيها سمن ورب فعصرتها على الأقط ثم أدنيتها منه وقلت أصب من هذا فأصاب منه وقمت إلى سقاء فيه لبن فصببت عليه ماء باردا فشرب منه وتراجعت نفسه فقلت له لقد بلغت ولقيت شرا فما أمرك قال أنا والله في هذه الهضبة التي ترين منذ ثلاث ما أريمها أنتظر أن أرى فرجة فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودعكم وأنا عامد إلى مصر فتحدثنا ساعة ثم ودعنا وشخص فلم تطل غيبته أن جاءنا نعيه فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة:

صَـدَعَ النَّعِـيُّ ومـا كـنى بجميـلِ ... وثَـوَى بِمِصْـرَ ثَـوَاءَ غـيرِ قُفـولِ

ولقـد أجُـرّ الـذَّيْلَ في وادي القُـرَى ... نَشْـوانَ بـين مـزارعٍ ونخيـلِ

قُـومِي بُثَينَـةُ فانـدُبِي بعَويـلِ ... وابكِـي خليلَـكِ دون كـلِّ خليـلِ

أخبرني أبو الحسن الأسدي قال حدثني مُحَمَّد بن القاسم عن الأصمعي قال حدثني رجل شهد جميلا لما حضرته الوفاة بمصر أنه دعاه فقال هل لك في أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئا أعهده إليك فقال قلت اللهم نعم قال إذا أنا مت فخذ حلتي هذه التي في عيبتي فاعزلها جانبا ثم كل شيء سواها لك وارحل إلى رهط بني الأحب من عذرة وهم رهط بثينة فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتي هذه واركبها ثم البس حلتي هذه واشققها ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات وخلاك ذم ثم أنشدني هذه الأبيات:

صَدَع النَّعِيُّ وما كَنَى بجميلِ ... وثوى بمِصْرَ ثَوَاء غيرِ قُفُولِ

وذكر الأبيات المتقدمة فلما قضى وواريته أتيت رهط بثينة ففعلت ما أمرني به جميل فما استتممت الأبيات حتى برزت إلي امرأة يتبعها نسوة قد فرعتهن طولا وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز في دجنة وهي تتعثر في مرطها حتى أتتني فقالت يا هذا والله لئن كنت صادقا لقد قتلتني ولئن كنت كاذبا لقد فضحتني قلت والله ما أنا إلا صادق وأخرجت حلته فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشيا عليها ساعة ثم قامت وهي تقول:

وإنّ سُلُوِّي عن جميلٍ لَساعةٌ ... من الدَّهْرِ ما حانتْ ولا حان حِينُها

سواءٌ علينا يا جميلُ بن مَعْمَرٍ ... إذا مِتَّ بأساءُ الحياةِ ولِينُها

قال فلم أر يوما كان أكثر باكيا وباكية منه يومئذ.

١٤
ذكر جميلة وأخبارها

هي جميلة مولاة بني سليم ثم مولاة بطن منهم يقال لهم بنو بهز وكان لها زوج من موالي بني الحارث بن الخزرج وكانت تنزل فيهم فغلب عليها ولاء زوجها فقيل إنها مولاة للأنصار تنزل بالسنح وهو الموضع الذي كان ينزله أبو بكر الصديق ذكر ذلك إبراهيم بن زياد الأنصاري الأموي السعيدي وذكر عبد العزيز بن عمران أنها مولاة للحجاج بن علاط السلمي وهي أصل من أصول الغناء وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة العقيقية والشماسيتان خليدة وربيحة وفيها يقول عبد الرحمن بن أرطأة.

جميلة هي أصل الغناء

أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن أبي جعفر القرشي عن المحرزي قال كانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء وكان معبد يقول أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين أنى لها هذا الغناء.

قال إسحاق وحدثني ايوب بن عباية قال حدثني رجل من الأنصار قال سئلت جميلة أنى لك هذا الغناء قالت والله ما هو إلهام ولا تعليم ولكن ابا جعفر سائب خاثر كان لنا جاراً وكنت أسمعه يغني ويضرب بالعود فلا أفهمه فأخذت تلك النغمات فبنيت عليها غنائي فجاءت أجود من تأليف ذلك الغناء فعلمت وألقيت فسمعني موالياتي يوما وأنا أغني سراً ففهمنني ودخلن علي وقلن قد علمنا فما تكتمينا فأقسمن علي فرفعت صوتي وغنيتهن بشعر

زهير بن ابي سلمى:

ومــا ذكرتُــكِ إلاَّ هِجْــتِ لي طَــرَباً إنّ المحـــبَّ بـــبعض الأمـــر معـــذورُ

لــيس المحـــبّ بمـــن إن شَـــطَّ غـــيَّره هجـــرُ الحبيـــب وفي الهِجـــران تغـــيرُ

وصف مجلس من مجالسها

قال إسحاق وحدثني هشام بن المرية المدني قال حدثني جرير المدني قال إسحاق وكانا جميعا مغنيين حاذقين شيخين جليلين عالمين ظريفين وكانا قد أسنا فأما هشام فبلغ الثمانين وأما جرير فلا أدري قال جرير وفد ابن سريج والغريض وسعيد بن مسجح ومسلم بن محرز المدينة لبعض من وفدوا عليه فأجمع رأيهم على النزول على جميلة مولاة بهز فنزلوا عليها فخرجوا يوما إلى العقيق متنزهين فوردوا على معبد وابن عائشة فجلسوا إليهما فتحدثوا ساعة ثم سأل معبد ابن سريج وأصحابه أن يعرضوا عليهم بعض ما ألفوا فقال ابن عائشة إن للقوم أعمالا كثيرة حسنة ولك أيضا يا ابا عباد ولكن قد اجتمع علماء مكة وأنا وأنت من اهل المدينة فليعمل كل واحد منا صوتا ساعته ثم يغن به قال معبد يابن عائشة قد أعجبتك نفسك حتى بلغتك هذه المرتبة قال ابن عائشة أوغضبت يا ابا عباد إني لم اقل هذا وأنا أريد أن أتنقصك فإنك لأنت المفاد منه قال معبد أما إذ قد اختلفنا وأصحابنا المكيون سكوت فلنجعل بيننا حكما قال ابن عائشة إن أصحابنا شركاء في الحكومة قال ابن سريج على شريطة قال على أن يكون ما نغني به من الشعر ما حكمت فيه امرأة قال ابن عائشة ومعبد رضينا وهي أم جندب فأجمع رأيهم على الاجتماع في منزل جميلة من غد فلما حضروا قال ابن عائشة ما ترى يا ابا عباد قال أرى أن يبتدىء أصحابنا أو أحدهم قال ابن سريج بل أنتما أولى قالا لم نكن لنفعل فأقبل ابن

سريج على سعيد بن مسجح فسأله أن يبتدىء فأبى فأجمع رأي المكيين على أن يبتدىء ابن سريج فغنى ابن سريج:

ذهبتَ من الهِجْران في غير مَذْهبِ ... ولم يَكُ حقّاً كلُّ هذا التجنُّبِ

خليليّ مُرَّا بي على أمّ جُنْدَب ... أقَضِّ لُباناتِ الفؤاد المُعَذَّبِ

فإنّكما إن تُنْظِرانِيَ ساعةً ... من الدَّهر تَنْفَعْني لدى أمّ جُنْدَبِ

ألم تَرَيانِي كلّما جئتُ طارقاً ... وجدتُ بها طِيباً وإن لم تَطَيَّبِ

الشعر لامرىء القيس ولابن سريج فيه لحنان ثاني ثقيل بالسبابة في مجرى الوسطى وخفيف رمل بالسبابة في مجرى الوسطى جميعا عن إسحاق.

وغنى معبد:

فَلِلَّهِ عينَا مَنْ رأى مِنْ تَفَرُّقٍ ... أَشَتَّ وأَنْأَى من فِراق المُحَصَّبِ

عَلَوْنَ بأَنطاكيَّةٍ فوق عِقْمَةٍ ... كجِرْمَةِ نخلٍ أو كجَنَّة يَثْرِبِ

فريقانِ منهم سالكٌ بطنَ نَخْلَةٍ ... وآخَرُمنهم جازعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ

فَعَيْناكَ غَرْبَا جَدْوَلٍ في مُفَاضةٍ ... كَمَرِّ خَلِيجٍ في سَنيحٍ مُثَقَّبِ

وغنى ابن مسجح:

وقالت فإن يُبْخَلْ عليكَ ويُعْتَلَلْ ... يَسُؤْكَ وإن يُكْشَفْ غرامُك تَدْرَبِ

وإنَّك لم يَفْخَرْ عليك كفاخرٍ ... ضعيفٍ ولم يَغْلبك مثلُ مُغَلَّبِ

وإنك لم تَقْطَعْ لُبَانَةَ عاشقٍ ... بمثل بُكُور أو رَوَاحٍ مُؤَوَّبِ

بأَدْمَــاءَ حُرْجُــوجٍ كــأنَّ قُتُودَهــا على أبْلَـقِ الكَشْـحَيْن لـيس بمُغْـرَبِ

يغــرِّد بالأسْــحارِ في كــلّ سُــدْفةٍ تَغُــرُّدَ مَيَّــاحِ النَّــدَامَى المُطَــرِّبِ

وغنى ابن عائشة:

وقــد أَغْتَــدي والطــيرُ في وُكُناتِهــا وماءُ النَّدَى يَجْرِي على كل مِـذْنَبِ

بمُنْجَــرِدٍ قَيْــدِ الأَوَابــدِ لاحَــهُ طِـرادُ الهَـوَادِي كـلَّ شَـأْوٍ مُغَـرِّبِ

إذا مـا جَـرَى شَـأْوَيْنِ وابتَـلَّ عِطْفُـه تقــول هَزِيــزُ الــرِّيح مَــرَّتْ بأَثْأَبِ

لــه أَيْطَــلاَ ظَــبْيٍ وســاقَا نَعَامــةٍ وصَــهْوةُ عَــيْرٍ قــائم فــوقَ مَرْقَــبِ

وغنى أبن محرز:

فلِلسَّــوْطِ أُلْهُــوبٌ وللســاق دِرَّة وللزَّجْـرِ منـه وَقْـعُ أَخْـرَجَ مُهْـذِب

فــأَدْرك لم يَجْهَــدْ ولم يُبْــلِ شَــدَّه يَمُــرُّ كخُــذْرُوفِ الوَليــد المُثَقَّــبِ

تَــذُبُّ بــه طَــوْراً وطَــوْراً تُمِــرُّه كَـذَبِّ البَشـير بالـرِّداء المُهَـدَّبِ

إذا ما ضربتُ الدَّفَّ أو صُلْتُ صَوْلةً تَرَقَّــبُ مــنِّي غــيرَ أَدْنَى تَرَقُّــبِ

وغنَّى الفريض:

أخـا ثقـةٍ لا يَلْعَـنُ الحـيُّ شخصَـه صـبوراً على العِـلاَّتِ غـيرَ مُسَـبَّب

رأينــا شِــياهاً يَــرْتَعِينَ خَمِيلــةً كَمَشْي العَـذَارَى في المُلاَء المُجَـوَّبِ

ومــا أنــت أَمْ مَــا ذِكْرُهــا رَبَعِيَّــةً تَحُــلّ بإِيــرٍ أو بأكنــاف شُــرْبُب

أطعــتُ الوُشَــاةَ والمُشَــاةَ بصُــرْمِها فقــد أنْهَجَــتْ حِبَالُهــا للتقضُّــب

فقالت جميلة كلكم محسن وكلكم مجيد في معناه ومذهبه قال ابن عائشة ليس هذا بمقنع دون التفضيل فقالت أما أنت يا أبا يحيى فتضحك الثكلى بحسن صوتك ومشاكلته للنفوس وأما أنت يا أبا عباد فنسيج وحدك بجودة تأليفك وحسن نظمك مع عذوبة غنائك وأما أنت يا أبا عثمان فلك أولية هذا الأمر وفضيلته وأما أنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلح وأما أنت يا أبا الخطاب فلو قدمت أحدا على نفسي لقدمتك وأما انت يا مولى العبلات فلو ابتدأت لقدمتك عليهم ثم سألوها جميعا أن تغنيهم لحنا كما غنوا فغنتهم بيتا لامرىء القيس وأربعة أبيات لعلقمة وهي:

خَلِيلـــيّ مُـــرَّا بي علـــى أمّ جُنْـــدَبِ   أقَـــضِّ لُبـــاناتِ الفـــؤاد المُعَـــذَّبِ

لَيَـــالِيَ لا تَبْلَـــى نصـــيحةُ بَيْنِنـــا   ليـــاليَ حَلُّـــوا بالسِّـــتارِ فغُـــرَّبِ

مُبَتَّلَـــةٌ كـــأنَّ أَنْضَـــاءَ حَلْيِهـــا   علـــى شـــادنٍ مـــن صَـــاحَةٍ مُتَرَبَّـــب

مَحَـــالٌ كـــأَجْواز الجَـــراد ولؤلـــؤٌ   مـــن القَلَقـــيَّ والكَبِـــيسِ المُلَـــوَّب

إذا أَلْحَـــم الواشـــون للشـــرّ بيننـــا   تبلَّـــغ رَسُّ الحـــبّ غـــيرُ المُكَـــذِّبِ

فكلهم أقروا لها وفضلوها.

بثينة تبوح لجميلة عن حب جميل لها وعفته

وقالت جميلة حدثتني بثينة وكانت صدوقة اللسان جميلة الوجه حسنة البيان عفيفة البطن والفرج قالت والله ما أرادني جميل رحمة الله عليه بريبة قط ولا حدثت أنا نفسي بذلك منه وإن الحي انتجعوا موضعا وإني لفي هودج لي أسير إذا أنا بهاتف ينشد أبياتا فلم أتمالك أن رميت بنفسي وأهل الحي ينظرون فبقيت أطلب المنشد فلم أقف عليه فناديت أيها الهاتف بشعر جميل ما وراءك

منه وأنا أحسبه قد قضى نحبه ومضى لسبيله فلم يجبني مجيب فناديت ثلاثا وفي كل ذلك لا يرد علي أحد شيئا فقال صواحباتي أصابك يا بثينة طائف من الشيطان فقلت كلا لقد سمعت قائلا يقول قلن نحن معك ولم نسمع فرجعت فركبت مطيتي وأنا حيرى والهة العقل كاسفة البال ثم سرنا فلما كان في الليل إذا ذلك الهاتف يهتف بذلك الشعر بعينه فرميت بنفسي فسعيت إلى الصوت فلما قربت منه انقطع فقلت أيها الهاتف ارحم حيرتي وسكن عبرتي بخبر هذه الأبيات فإن لها شأنا فلم يرد علي شيئا فرجعت إلى رحلي فركبت وسرت وأنا ذاهبة العقل وفي كل ذلك لا يخبرني صواحباتي أنهن سمعن شيئا فلما كانت الليلة القابلة نزلنا وأخذ الحي مضاجعهم ونامت كل عين فإذا الهاتف يهتف بي ويقول يا بثينة أقبلي إلي أنبئك عما تريدين فأقبلت نحو الصوت فإذا شيخ كأنه من رجال الحي فسألته عن اسمه وبيته فقال دعي هذا وخذي فيما هو أهم عليك فقلت له وإن هذا لمما يهمني قال اقنعي بما قلت لك قلت له أنت المنشد الأبيات قال نعم قلت فما خبر جميل قال نعم فارقته وقد قضى نحبه وصار إلى حفرته رحمة الله عليه فصرخت صرخة آذنت منها الحي وسقطت لوجهي فأغمي علي فكأن صوتي لم يسمعه أحد وبقيت سائر ليلتي ثم أفقت عند طلوع الفجر وأهلي يطلبونني فلا يقفون على موضعي ورفعت صوتي بالعويل والبكاء ورجعت إلى مكاني فقال لي أهلي ما خبرك وما شأنك فقصصت عليهم القصة فقالوا يرحم الله جميلا واجتمع نساء الحي وأنشدتهن الأبيات فأسعدنني بالبكاء فأقمن كذلك لا يفارقنني ثلاثا وتحزن الرجال أيضا وبكوا ورثوه وقالوا إنه كان عفيفا صدوقا فلم أكتحل بعده بإثمد ولا فرقت رأسي بمخيط ولا مشط ولا دهنته إلا من صداع خفت على بصري منه ولا لبست خمارا مصبوغا ولا إزاراً ولا أزال أبكيه إلى الممات قالت جميلة فأنشدتني الشعر كله وهذا الغناء بعضه وهو:

ألا مَــنْ لقلــبٍ لا يَمَــلُّ فيَــذْهَلُ   أَفِــقْ فــالتعزّي عــن بُثَيْنَــةَ أجمــلُ

وأخبرني الحسن بن علي قال حدثنا أحمد بن سعيد الدمشقي قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني عمي مصعب قالوا جميعا إن جميلة حجت وقد جمعت رواياتهم لتقاربها وأحسب الخبر كله مصنوعا وذلك بين فيه فخرج معها من المغنين مشيعين حتى وافوا مكة ورجعوا معها من الرجال المشهورين الحذاق بالغناء هيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحى وفند ورحمة وهبة الله هؤلاء مشايخ وكلهم طيب الغناء ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير ومن المغنيات الفرهة وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وخليدة وعقيلة والشماسية وفرعة وبلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء ومن غير المغنين ابن أبي عتيق والأحوص وكثير عزة ونصيب وجماعة من الأشراف وكذلك من النساء من مواليها وغيرهن واما سياط فذكر أنه حج معها من القيان مشيعات لها ومعظمات لقدرها ولحقها زهاء خمسين قينة وجه بهن مواليهن معها فأعطوهن النفقات وحملوهن على الإبل في الهوادج والقباب وغير ذلك فأبت جميلة أن تنفق واحدة منهن درهما فما فوقه حتى رجعن وأما يونس فذكر أنه حج معها من الرجال المغنين مع من سمينا زهاء ثلاثين رجلا وتخايروا في اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظريف وكذلك في الهوادج والقباب وقيل فيما قال أهل المدينة إنهم ما رأوا مثل ذلك الجمع سفرا طيبا وحسنا وملاحة قالوا ولما قاربوا مكة تلقاهم سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز والهذليون وجماعة من المغنين من أهل مكة وقيان كثير لم يسمين لنا ومن غير المغنين عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزومي والعرجي وجماعة من الأشراف فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز مغن حاذق ولا مغنية إلا وهو معها وجماعة من الأشراف ممن سمينا وغيرهم من الرجال والنساء وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم فلما قضت حجها سألها المكيون أن تجعل لهم مجلسا فقالت

للغناء أم للحديث قالوا لهما جميعا قالت ما كنت لأخلط جدا بهزل وأبت أن تجلس للغناء فقال عمر بن أبي ربيعة أقسمت على من كان في قلبه حب لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة فإني خارج فعزم القوم الذين سميناهم كلهم على الخروج ومعهم جماعة ممن نشط فخرجت في جمع أكثر من جمعها بالمدينة فلما قدمت المدينة تلقاها أهلها وأشرافهم من الرجال والنساء فدخلت أحسن مما خرجت به منها وخرج الرجال والنساء من بيوتهم فوقفوا على أبواب دورهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها فلما دخلت منزلها وتفرق الجمع إلى منازلهم ونزل أهل مكة على أقاربهم وإخوانهم أتاها الناس مسلمين وما استنكف من ذلك كبير ولا صغير فلما مضى لمقدمها عشرة أيام جلست للغناء فقالت لعمر بن أبي ربيعة إني جالسة لك ولأصحابك وإذا شئت فعد الناس لذلك اليوم فغصت الدار بالأشراف من الرجال والنساء فابتدأت جميلة فغنت صوتا بشعر عمر:

هيهاتَ من أَمَةِ الوَهَّابِ منزلُنا — إذا حَلَلْنَا بسِيفِ البحر من عَدَنِ

واحتلَّ أَهْلُكِ أَجْياداً فليس لنا — إلا التذكُّر أو حَظٌّ من الحَزَنِ

لو أنها أبْصرتْ بالجِزْعِ عَبْرَتَه — وقد تَغَرَّد قُمْريٌّ على فَنَنِ

إذاً رأتْ غيرَ ما ظَنَّتْ بصاحبها — وأيْقنتْ أن عَكّاً ليس من وَطَنِي

ما أَنْسَ لا أَنْسَ يومَ الخَيْفِ موقفَها — ومَوْقِفِي وكِلانا ثَمَّ ذو شَجَنِ

وقولَها للثُّرَيَّا وهي باكيةٌ — والدمعُ منها على الخدَّين ذو سُنَنِ

باللَّه قُولي له في غير مَعْتَبَةٍ — ماذا أردتَ بطول المُكْثِ في اليَمَنِ

إن كنتَ حاولتَ دنيا أو نَعِمْتَ بها — فما أَصبْتَ بتركِ الحجّ من ثَمَنِ

فكلهم استحسن الغناء وضج القوم من حسن ما سمعوا ويقال إنهم ما سمعوا غناء قط أحسن من غنائها ذلك الصوت في ذلك اليوم ودمعت عين عمر حتى

جرى الدمع على ثيابه ولحيته وإنه ما رئي عمر كذلك في محفل غيره قط.

شيخ يثنيها عن عزمها اعتزال الغناء

أخبرني من يفهم الغناء قال بلغني أن جميلة قعدت يوما على كرسي لها وقالت لآذنتها لا تحجبي عنا أحداً اليوم واقعدي بالباب فكل من يمر بالباب فاعرضي عليه مجلسي ففعلت ذلك حتى غصت الدار بالناس فقالت جميلة اصعدوا إلى العلالي فصعدت جماعة حتى امتلأت السطوح فجاءتها بعض جواريها فقالت لها يا سيدتي إن تمادى أمرك على ما أرى لم يبق في دارك حائط إلا سقط فأظهري ما تريدين قالت اجلسي فلما تعالى النهار واشتد الحر استسقى الناس الماء فدعت لهم بالسويق فشرب من أراد فقالت أقسمت على كل رجل وامرأة دخل منزلي إلا شرب فلم يبق في سفل الدار ولا علوها أحد إلا شرب وقام على رؤوسهم الجواري بالمناديل والمراوح الكبار وأمرت جواريها فقمن على كراسي صغار فيما بين كل عشرة نفر جارية تروح ثم قالت لهم إني قد رأيت في منامي شيئا أفزعني وأرعبني ولست أعرف ما سبب ذلك وقد خفت أن يكون قرب أجلي وليس ينفعني إلا صالح عملي وقد رأيت أن أترك الغناء كراهة أن يلحقني منه شيء عند ربي فقال قوم منهم وفقك الله وثبت عزمك وقال آخرون بل لا حرج عليك في الغناء وقال شيخ منهم ذو سن وعلم وفقه وتجربة قد تكلمت الجماعة وكل حزب بما لديهم فرحون ولم أعترض عليهم في قولهم ولا شركتهم في رأيهم فاستمعوا الآن لقولي وأنصتوا ولا تشغبوا إلى وقت انقضاء كلامي فمن قبل قولي فالله موفقه ومن خالفني فلا بأس عليه إذ كنت في طاعة ربي فسكت القوم جميعا فتكلم الشيخ فحمد الله وأثنى عليه وصلى على مُحَمَّد النبي ثم قال يا معشر أهل الحجاز إنكم متى تخاذلتم فشلتم ووثب عليكم عدوكم وظفر بكم ولا تفلحوا بعدها أبدا إنكم قد انقلبتم على أعقابكم لأهل العراق وغيرهم ممن لا يزال ينكر عليكم ما هو وارثه

عنكم لا ينكره عالمكم ولا يدفعه عابدكم بشهادة شريفكم ووضيعكم يندب إليه كما يندب جموعكم وشرفكم وعزكم فأكثر ما يكون عند عابدكم فيه الجلوس عنه لا للتحريم له لكن للزهد في الدنيا لأن الغناء من أكبر اللذات وأسر للنفوس من جميع الشهوات يحيي القلب ويزيد في العقل ويسر النفس ويفسح في الرأي ويتيسر به العسير وتفتح به الجيوش ويذلل به الجبارون حتى يمتهنوا أنفسهم عند استماعه ويبرىء المرضى ومن مات قلبه وعقله وبصره ويزيد أهل الثروة غنى وأهل الفقر قناعة ورضا باستماعه فيعزفون عن طلب الأموال من تمسك به كان عالما ومن فارقه كان جاهلا لأنه لا منزلة أرفع ولا شيء أحسن منه فكيف يستصوب تركه ولا يستعان به على النشاط في عبادة ربنا عز و جل وكلام كثير غير هذا ذهب عن المحدث به فما رد عليه أحد ولا أنكر ذلك منهم بشر وكل عاد بالخطأ على نفسه وأقر بالحق له ثم قال لجميلة أوعيت ما قلت ووقع من نفسك وما ذكرت قالت أجل وأنا أستغفر الله قال لها فاختمي مجلسنا وفرقي جماعتنا بصوت فقط فغنت:

أفي رسمِ دارٍ دمعُك المترقرِقُ ... سَفَاهاً وما استنطاقُ ما ليس يَنْطِقُ

بحيثُ التقَى جَمْعٌ وأَقْصَى مُحَسِّرٍ ... مَغَانِيه قد كادتْ عن العهد تَخْلُقُ

مُقامٌ لنا بعد العِشاء ومنزلٌ ... به لم يكدِّرْه علينا مُعَوِّق

فأحسنُ شيء كان أوَّلُ ليلنا ... وآخرهُ حزنٌ إذا نتفرَّق

فقال الشيخ حسن والله أمثل هذا يترك فيم يتشاهد الرجال لا والله ولا كرامة لمن خالف الحق ثم قام وقام الناس معه وقال الحمد لله الذي لم يفرق جماعتنا على اليأس من الغناء ولا جحود فضيلته وسلام عليك ورحمة الله يا جميلة.

١٥

ذكر عنترة ونسبه وشيء من أخباره

هو عنترة بن شداد وقيل ابن عمرو بن شداد وقيل عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة وقيل مخزوم بن عوف بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر وله لقب يقال له عنترة الفلحاء وذلك لتشقق شفتيه وأمه أمة حبشية يقال لها زبيبة وكان لها ولد عبيد من غير شداد وكانوا إخوته لأمه وقد كان شداد نفاه مرة ثم اعترف به فألحق بنسبه وكانت العرب تفعل ذلك تستعبد بني الإماء فإن أنجب اعترفت به وإلا بقي عبدا.

فأخبرني علي بن سليمان النحوي الأخفش قال أخبرنا أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري عن مُحَمَّد بن حبيب قال أبو سعيد وذكر ذلك أبو عمرو الشيباني قالا كان عنترة قبل أن يدعيه أبوه حرشت عليه امرأة أبيه وقالت إنه يراودني عن نفسي فغضب من ذلك شداد غضبا شديدا وضربه ضربا مبرحا وضربه بالسيف فوقعت عليه امرأة أبيه وكفته عنه فلما رأت ما به من الجراح بكت وكان اسمها سمية وقيل سهية فقال عنترة:

أَمِنْ سُمَيَّةَ دمعُ العين مذروفُ ... لو أنّ ذا منكِ قبل اليوم معروفُ

كأنَّها يوم صدَّتْ ما تكلِّمني ... ظَبْيٌ بعُسْفانَ ساجي العَين مطروفُ

تَجَلَّلتنيَ إذ أَهوَى العَصَا قِبَلِي ... كأنَّها صَنَمٌ يُعتادُ معكوف

العبـــدُ عبـــدُكُم والمـــالُ مـــالُكُمُ فهـل عـذابُك عـنّي اليـوم مصـروفُ

تنسَـى بلائـي إذا مـا غـارةٌ لَحِقـتْ تخـرجُ منهـا الطُّـوَالاتُ السَّـراعيف

يخـرُجن منهـا وقـد بُلَّـتْ رَحائلهـا بالمـاء تركضُـها الشُّـمُّ الغطـاريف

قد أطعَن الطعنةَ النَّجْلاء عن عُرُضٍ تَصْـفَرُّ كَـفُّ أخيهـا وهـو منـزوف

كيف ادعاه أبوه؟

أخبرني مُحَمَّد بن الحسن بن دريد قال حدثني عمي عن ابن الكلبي وأخبرني إبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة قال قال ابن الكلبي شداد جد عنترة غلب على نسبه وهو عنترة بن عمرو بن شداد وقد سمعت من يقول إن شدادا عمه كان نشأ في حجره فنسب إليه دون أبيه قال وإنما ادعاه أبوه بعد الكبر وذلك لأن أمه كانت أمة سوداء يقال لها زبيبة وكانت العرب في الجاهلية إذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبدوه وكان لعنترة إخوة من أمه عبيد وكان سبب ادعاء أبي عنترة إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلا فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم عما معهم وعنترة يومئذ فيهم فقال له أبوه كر يا عنترة فقال عنترة العبد لا يحسن الكر إنما يحسن الحلاب والصر فقال كر وأنت حر فكر وهو يقول:

أنا الهجـــــــينُ عَنْـــــــتَرَهْ كـــــلُّ امـــرىء يحمـــي حِـــرَهْ

أسودَه وأحمرَه والشَّعَرَاتِ المُشْعَره

الوارداتِ مِشْفَره ...

وقاتل يومئذ قتالا حسنا فادعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه.

وحكى غير ابن الكلبي أن السبب في هذا أن عبسا أغاروا على طيء فأصابوا نعما فلما أرادوا القسمة قالوا لعنترة لا نقسم لك نصيبا مثل أنصبائنا لأنك عبد فلما طال الخطب بينهم كرت عليهم طيء فاعتزلهم عنترة وقال دونكم القوم فإنكم عددهم واستنقذت طيء الإبل فقال له أبوه كر يا عنترة فقال أو يحسن العبد الكر فقال له أبوه العبد غيرك فاعترف به فكر واستنقذ النعم وجعل يقول:

أنا الهجـــــــــينُ عَنْـــــــــتَرَهْ كـــلُّ امـــرىء يحمـــي حِـــرَهْ

قال أبو عمرو الشيباني غزت بنو عبس بني تميم وعليهم قيس بن زهير فانهزمت بنو عبس وطلبتهم بنو تميم فوقف لهم عنترة ولحقتهم كبكبة من الخيل فحامى عنترة عن الناس فلم يصب مدبر وكان قيس بن زهير سيدهم فساءه ما صنع عنترة يومئذ فقال حين رجع والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء وكان قيس أكولا فبلغ عنترة ما قال فقال يعرض به قصيدته التي يقول فيها:

بَكَـرَتْ تُخَـوِّفُني الحُتـوفَ كـأنَّني أصبحتُ عـن عَـرَض الحُتـوف بمَعْزِلِ

فأجبتُهـــا أنّ المنيَّـــةَ مَنْهَـــلٌ لا بـــدّ أن أُسْـقَى بكـأس المنهـلِ

فـاقْنَيْ حيـاءكِ لا أبالـكِ واعلمـي أَنِّي امـرؤ سـأموت إن لم أُقْتَـلِ

إنّ المنيَّـــة لـــو تُمَثَّـــلُ مُثِّلــتْ مِثْلـي إذا نزلـوا بضَـنْكِ المنـزِلِ

إني امـرؤ مـن خـير عَـبْسٍ مَنْصِـباً شَـطْرِي وأحمـي سـائري بالمُنْصُـلِ

وإذا الكتيبـةُ أَحْجمـتْ وتلاحظـتْ أُلْفِيـتُ خـيراً مـن مُعَـمٍّ مُخْـوِلِ

والخيـلُ تعلـم والفـوارسُ أنَّـني فرَّقـتُ جَمْعَهـمُ بضـربةِ فيصـلِ

إذ لا أبَادِر في المَضِـيق فوارسـي أوَ لا أُوَكَّـلُ بالرَّعِيـلِ الأوَّل

إن يُلْحَقُــوا أكْــرُرْ وإن يُسْــتَلْحَمُوا أَشْــدُدْ وإن يُلْفَــوْا بضَــنْكٍ أنــزِلِ

حــين النــزولُ يكــون غايــةَ مثلنــا ويَفِــرّ كــلُّ مُضــلَّلٍ مُسْــتَوْهِلِ

والخيــلُ ســاهمةُ الوجــوهِ كأنمــا تُسْــقَى فوارسُــها نقيــعَ الحنظــل

ولقــد أَبِيــتُ علــى الطَّــوَى وأَظَلُّــه حــتى أنالَ بــه كــريمَ المأكــلِ

خبر إلحاقه إخوته لأمه بنسب قومه

أخبرني علي بن سليمان قال حدثنا أبو سعيد السكري عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عبيدة أن عنترة كان له إخوة من أمه فأحب عنترة أن يدعيهم قومه فأمر أخا له كان خيرهم في نفسه يقال له حنبل فقال له أرو مهرك اللبن ثم مر به علي عشاء فإذا قلت لكم ما شأن مهركم متخددا مهزولا ضامراً فاضرب بطنه بالسيف كأنك تريهم أنك قد غضبت مما قلت فمر عليهم فقال له يا حنبل ما شأن مهركم متخددا أعجر من اللبن فأهوى أخوه بالسيف إلى بطن مهره فضربه فظهر اللبن فقال في ذلك عنترة:

أَبَــني زَبِيبــةَ مــا لِمُهْــرِكُمُ مُتَخَــدِّداً وبطــونُكم عُجْــرُ

ألكــم بإيغــال الوليــدِ علــى أَثَــر الشِّــياه بشــدَّةٍ خُبْــرُ

وهي قصيدة قال فاستلاطه نفر من قومه ونفاه آخرون ففي ذلك يقول عنترة:

أَلاَ يا دارَ عَبْلــةَ بالطَّــوِيِّ كَرَجْــعِ الوَشْــمِ في كَــفّ الهَــدِيّ

وهي طويلة يعدد فيها بلاءه وآثاره عند قومه

أخبرني عمي قال أخبرني الكراني عن النضر بن عمرو عن الهيثم بن عدي قال قيل لعنترة أنت أشجع العرب وأشدها قال لا قيل فبماذا شاع لك هذا في

الناس قال كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما ولا أدخل إلا موضعا أرى لي منه مخرجا وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله.

موته

أغار عنترة على بني نبهان من طيء فطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير فجعل يرتجز وهو يطردها ويقول (آثارُ ظُلْمَانٍ بقاعٍ مُحْرب ...) وكان زر بن جابر النبهاني في فتوة فرماه وقال خذها وأنا ابن سلمى فقطع مطاه فتحامل بالرمية حتى أتى أهله فقال وهو مجروح:

وإنّ ابنَ سَلْمَى عنده فاعلموا دَمِي وهيهاتَ لا يُرْجَى ابن سلمى ولا دَمِي

يحلُّ بأكناف الشِّعاب وينتمي مكانَ الثُّرَيَّا ليس بالمُتَهَضَّمِ

رماني ولم يَدْهَشْ بأزرقَ لَهْذَمٍ عشيَّة حلُّوا بين نَعْفٍ ومَخْرِمِ

قال ابن الكلبي وكان الذي قتله يلقب بالأسد الرهيص وأما أبو عمرو الشيباني فذكر أنه غزا طيئا مع قومه فانهزمت عبس فخر عن فرسه ولم يقدر من الكبر أن يعود فيركب فدخل دغلا وأبصره ربيئة طيء فنزل إليه وهاب أن يأخذه أسيرا فرماه وقتله.

وذكر أبو عبيدة أنه كان قد أسن واحتاج وعجز بكبر سنه عن الغارات وكان له على رجل من غطفان بكر فخرج يتقاضاه إياه فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين شرج وناظرة فأصابته فقتلته.

١٦

ذكر سلامة القس وخبرها

كانت سلامة مولدة من مولدات المدينة وبها نشأت وأخذت الغناء عن معبد وابن عائشة وجميلة ومالك بن أبي السمح وذويهم فمهرت وإنما سميت سلامة القس لأن رجلا يعرف بعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من قراء أهل مكة وكان يلقب بالقس لعبادته شغف بها وشهر فغلب عليها لقبه واشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان وعاشت بعده وكانت إحدى من اتهم به الوليد من جواري أبيه حين قال له قتلته ننقم عليك أنك تطأ جواري أبيك وقد ذكرنا ذلك في خبر مقتله.

أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه قال كانت حبابة وسلامة القس من قيان أهل المدينة وكانتا حاذقتين ظريفتين ضاربتين وكانت سلامة أحسنهما غناء وحبابة أحسنهما وجهاً وكانت سلامة تقول الشعر وكانت حبابة تتعاطاه فلا تحسن وأخبرني بذلك المدائني عن جرير.

وحدثني الزبيري قال حدثني من رأى سلامة قال ما رأيت من قيان المدينة فتاة ولا عجوزاً أحسن غناء من سلامة وعن جميلة أخذت الغناء.

حدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار وإسماعيل بن يونس قالا حدثنا أبو زيد عمر بن شبة قال حدثني المدائني قال كانت حبابة وسلامة قينتين بالمدينة أما سلامة فكانت لسهيل بن عبد الرحمن ولها يقول ابن قيس الرقيات:

لقــد فَتَنَــتْ رَيًّا وسَــلاَّمةُ القَسّــا فلــم تتركـا للقَــسِّ عقــلاً ولا نَفْسَــا

فتـاتانِ أمَّـا منهمـا فشـبيهةُ الهـلالِ وأُخــرى منهمــا تُشــبه الشمســا

وغناه مالك بن أبي السمح وفيها يقول ابن قيس الرقيات:

أُختــانِ إحــداهما كالشــمس طالعــةً في يـوم دَجْـنٍ وأُخـرى تشـبه القمـرا

قال وفتن القس بسلامة وفيها يقول:

أهابُــكِ أن أقــول بــذلتُ نفســي ولــو أنِّ أُطيــع القلــبَ قــالا

حيــاءً منــكِ حــتى سُــلّ جســمي وشَــقّ علــيّ كتمــاني وطــالا

سبب افتتان القس بها

قال والقس هو عبد الرحمن بن أبي عمار من بني جشم بن معاوية وكان منزله بمكة وكان سبب افتتانه بها فيما حدثني خلاد الأرقط قال سمعت من شيوخنا أهل مكة يقولون كان القس من أعبد أهل مكة وكان يشبه بعطاء بن أبي رباح وأنه سمع غناء سلامة القس على غير تعمد منه لذلك فبلغ غناؤها منه كل مبلغ فرآه مولاها فقال له هل لك أن أخرجها إليك أو تدخل فتسمع فأبى فقال مولاها أنا أقعدها في موضع تسمع غناءها ولا تراها فأبى فلم يزل به حتى دخل فأسمعه غناءها فأعجبه فقال له هل لك في أن أخرجها إليك فأبى فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه فتغنت فشغف بها وشغفت به وعرف ذلك أهل مكة فقالت له يوماً أنا والله أحبك قال وأنا والله أحبك قالت وأحب أن أضع فمي على فمك قال وأنا والله أحب ذلك قالت فما يمنعك فوالله إن الموضع لخال قال إني سمعت الله عز و جل يقول (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النسك وقال من فوره فيها:

إنّ الـــتي طَرَقَتْـــكَ بـــين ركائـــبٍ تَمْشـــي بِمِزْهَرِهـــا وأنـــتَ حَـــرَامُ

لَتَصِـــيدُ قلبَـــك أو جـــزاءَ مـــودَّةٍ إنّ الرفيـــق لـــه عليـــك ذِمـــامُ

باتـــت تعلّلنـــا وتحســـب أنَّنـــا في ذاك أيقـــاظٌ ونحـــن نِيـــامُ

حـــتى إذا ســـطَع الضّـــياءُ لنـــاظرٍ فـــإذا وذلـــك بيننـــا أحـــلامُ

قـد كنـتُ أعـذِلُ في السَّـفاهة أهلَهـا فاعجَـــبْ لِمـــا تأتي بـــه الأَّيامُ

فـــاليومَ أعـــذِرُهم وأعلـــم أنمّـــا سُـــبُلُ الضَّـــلالة والهُـــدَى أقســـامُ

ومن قوله فيها:

ألم تَرَهـــا لا يُبْعِـــد اللّه دارَهـــا إذا رَجّعـتْ في صـوتها كيـف تصـنعُ

تَمُـــدّ نظـــامَ القـــولِ ثم تَـــرُدّه إلى صَلْصَـــلٍ في صـــوتها يترجَّـــع

قال إسحاق وحدثني المدائني قال حدثني جرير قال لما قدم يزيد بن عبد الملك مكة وأراد شراء سلامة القس وعرضت عليه أمرها أن تغنيه فكان أول صوت غنته:

إنّ الَّـــتي طرقتـــك بـــين ركائـــبٍ تمشـــي بِمِزْهَرِهـــا وأنـــت حـــرامُ

والبـيضُ تَمْشِـي كالبُـدورِ وكالـدُّمَى ونَـــوَاعِمٌ يَمْشـــين في الأَرْقـــام

لَتَصِـــيدُ قلبَـــك أو جـــزاءَ مـــودَّةٍ إنّ الرفيـــق لـــه عليـــك ذمـــامُ

فاستحسنه يزيد فاشتراها فكان أول صوت غنته لما اشتراها:

أَلاَ قُـلْ لهـذا القلـبِ هـل أنت مبصـرُ وهـــل أنـــت عـــن سَـــلاَّمةَ مُقْصِـــرُ

أَلاَ ليتَ أنِّي حين صار بها النَّوَى جليسٌ لسَلْمَى حيث ما عَجّ مِزْهَرُ

وإنِّي إذا ما المـوتُ زالَ بنَفْسها يُـزَالُ بنفسي قبلَها حين تُقْبَرُ

إذا أخذتْ في الصوتِ كاد جليسُها يطيرُ إليها قلبُه حين ينظُر

كأنَّ حَمَاماً راعِبِيّاً مُؤَدِّياً إذا نطقتْ من صدرها يَتَغَشْمَرُ

فقال لها يزيد يا حبيبتي من قائل هذا الشعر فقصت عليه القصة فرق له وقال أحسن وأحسنت.

قال إسحاق وحدثني أيوب بن عباية قال كانت سلامة وريا لرجل واحد وكانت حبابة لرجل وكانت المقدمة منهن سلامة حتى صارتا إلى يزيد بن عبد الملك فكانت حبابة تنظر إلى سلامة بتلك العين الجليلة المتقدمة وتعرف فضلها عليها فلما رأت أثرتها عند يزيد ومحبة يزيد لها استخفت بها فقال لها سلامة أي أخية نسيت لي فضلي عليك ويلك أين تأديب الغناء وأين حق التعليم أنسيت قول جميلة يوما وهي تطارحنا وهي تقول لك خذي إحكام ما أطارحك من أختك سلامة ولن تزالي بخير ما بقيت لك وكان أمركما مؤتلفاً قالت صدقت خليلتي والله لا عدت إلى شيء تكرهينه فما عادت لها إلى مكروه وماتت حبابة وعاشت سلامة بعدها دهراً.

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني عمي مصعب عن عبد الرحمن بن المغيرة الحزامي الأكبر قال لما قدم عثمان بن حيان المري المدينة والياً عليها قال له قوم من وجوه الناس إنك قد وليت على كثرة من الفساد فإن كنت تريد أن تصلح فطهرها من الغناء والزنا فصاح في ذلك وأجل أهلها ثلاثاً يخرجون فيها من المدينة وكان ابن أبي عتيق غائباً وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح فلما كان آخر ليلة من الأجل قدم فقال لا

أدخل منزلي حتى أدخل على سلامة القس فدخل عليها فقال ما دخلت منزلي حتى جئتكم أسلم عليكم قالوا ما أغفلك عن أمرنا وأخبروه الخبر فقال اصبروا علي الليلة فقالوا نخاف ألا يمكنك شيء وننكظ قال إن خفتم شيئاً فاخرجوا في السحر ثم خرج فاستأذن على عثمان بن حيان فأذن له فسلم عليه وذكر له غيبته وأنه جاءه ليقضي حقه ثم جزاه خيراً على ما فعل من إخراج أهل الغناء والزنا وقال أرجو ألا تكون عملت عملاً هو خير لك من ذلك قال عثمان قد فعلت ذلك وأشار به على أصحابك فقال قد أصبت ولكن ما تقول أمتع الله بك في امرأة كانت هذه صناعتها وكانت تكره على ذلك ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير وأتى رسولها إليك تقول اتوجه إليك وأعوذ بك أن تخرجني من جوار رسول الله ومسجده قال فإني أدعها لك ولكلامك قال ابن أبي عتيق لا يدعك الناس ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر إليها فإن رأيت أن مثلها ينبغي أن يترك تركتها قال نعم فجاءه بها وقال لها اجعلي معك سبحة وتخشعي ففعلت فلما دخلت على عثمان حدثته وإذا هي من أعلم الناس بالناس وأعجب بها وحدثته عن آبائه وأمورهم ففكه لذلك فقال لها ابن أبي عتيق اقرئي للأمير فقرأت له فقال لها احدي له ففعلت فكثر تعجبه فقال كيف لو سمعتها في صناعتها فلم يزل ينزله شيئاً شيئاً حتى أمرها بالغناء فقال لها ابن أبي عتيق غني فغنت:

سَـدَدْنَ خَصَـاصَ الخَـيْمِ لَمَّـا دخَلْنَـهُ   بكــلّ لَبَــانٍ واضــحٍ وجبــينِ

فغنته فقام عثمان من مجلسه فقعد بين يديها ثم قال لا والله ما مثل هذه تخرج قال ابن أبي عتيق لا يدعك الناس يقولون أقر سلامة وأخرج غيرها قال فدعوهم جميعاً فتركوهم جميعاً.

١٧

ذكر أخبار كثير ونسبه

هو فيما أخبرنا به مُحَمَّد بن العباس اليزيدي عن مُحَمَّد بن حبيب عن ابن الأعرابي أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر بن عويمر بن مخلد بن سعيد بن سبيع بن جعثمة بن سعد بن مليح بن عمرو وهو خزاعة بن ربيعة وهو يحيى بن حارثة بن عمرو وهو مزيقيا بن عامر وهو ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول ابن مازن بن الأزد وهو درء وقيل دراء ممدودا ابن الغوث بن نبت بن مالك ابن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وأخبرنا أبو عبد الرحمن أحمد بن مُحَمَّد بن إسحاق الحرمي قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا أبو صخر بن أبي الزعراء الخزاعي عن أمه ليلى بنت كثير قالت هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر بن مخلد بن سبيع بن سعد بن مليح بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وأمه جمعة بنت الأشيم بن خالد بن عبيد ابن مبشر بن رياح بن سيالة بن عامر بن جعثمة بن كعب بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وكانت كنية الأشيم جده أبي أمه أبا جمعة ولذلك قيل له ابن أبي جمعة وكان له ابن يقال له ثواب من أشعر أهل زمانه مات سنة إحدى وأربعين ومائة ولا ولد له ومات كثير سنة خمس ومائة في ولاية يزيد بن عبد الملك وليس له اليوم ولد إلا من بنته ليلى ولليلى بنته.

وكـــان عزيـــزاً أن تبيـــتِي وبيننـــا ... حجابٌ فقد أمسيتِ منِّي على شهرِ

ففي القرب تعذيبٌ وفي النأي حَسْرةٌ فيا ويْح نفسي كيف أصنع بالدهر

في هذين البيتين غناء لمقاسة ولحنه من الثقيل الأول بالخنصر عن حبش.

طبقته ونحلته

ويكنى كثير أبا صخر وهو من فحول شعراء الإسلام وجعله ابن سلام في الطبقة الأولى منهم وقرن به جريرا والفرزدق والأخطل والراعي وكان غاليا في التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ وكان محمقا مشهورا بذلك وكان آل مروان يعلمون بمذهبه فلا يغيرهم ذلك لجلالته في أعينهم ولطف محله في أنفسهم وعندهم وكان من أتيه الناس وأذهبهم بنفسه على كل أحد.

أخبرني به أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثني هارون بن عبد الله الزهري قال حدثني سليمان بن فليح قال سمعت مُحَمَّد بن عبد العزيز يعني ابن عمر بن عبد الرحمن بن عوف يقول ما قصد القصيد ولا نعت الملوك مثل كثير.

حدثني الزبير بن بكار قال كتب إلي إسحاق بن إبراهيم الموصلي حدثني إبراهيم بن سعد قال إني لأروي لكثير ثلاثين قصيدة لورقي بها مجنون لأفاق.

أخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثنا عمر بن أبي بكر المؤملي عن عبد الله بن أبي عبيدة قال من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع شعره قال الزبير قال المؤملي وكان ابن أبي عبيدة يملي شعر كثير بثلاثين دينارا قال وسئل عمي مصعب من أشعر الناس فقال كثير بن أبي جمعة وقال هو أشعر من جرير والفرزدق والراعي وعامتهم يعني الشعراء لم يدرك أحد في مديح الملوك ما أدرك كثير.

أخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني مُحَمَّد بن إسماعيل

الجعفري قال أخبرني إبراهيم بن إبراهيم بن حسين بن زيد قال سمعت المسور بن عبد الملك يقول ما ضر من يروي شعر كثير وجميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان

أخبرني حبيب بن نصر المهلبي وأحمد بن عبد العزيز الجوهري قالا حدثنا عمر بن شبة قال حدثني إسحاق بن إبراهيم عن المدائني عن الوقاصي قال رأيت كثيرا يطوف بالبيت فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذبه وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول طأطئ رأسك لا يصبه السقف.

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني إسحاق ابن إبراهيم عن المدائني وعن ابن حبيب عن أبيه عن جده عن جد أبيه عبد العزيز وأمه جمعة بنت كثير قال قال جرير لكثير أي رجل أنت لولا دمامتك فقال كثير:

إن أكُ قَصْـــداً في الرجـــال فـــإنّني   إذا حـــلّ أمـــرٌ ســـاحتي لطويـــلُ

أخبرني الحرمي قال حدثني الزبير قال حدثنا المؤملي عن أبي عبيدة وأخبرنا أحمد بن عبد العزيز وحبيب بن نصر قالا حدثنا عبد الله بن مُحَمَّد بن حكيم عن خالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد عن أبيه قال دخل كثير على عبد الملك بن مروان فقال يا أمير المؤمنين إن أرضا لك يقال لها غرب ربما أتيتها وخرجت إليها بولدي وعيالي فأصبنا من رطبها وتمرها بشراء مرة وطعمة مرة فإن رأى أمير المؤمنين أن يعمرنيها فعل فقال له عبد الملك ذلك لك فندمه الناس وقالوا له أنت شاعر الخليفة ولك عنده منزلة فهلا سألت الأرض قطيعة فأتى الوليد فقال إن لي إلى أمير المؤمنين حاجة فأجلسني قريبا من البرذون فلما استوى عليه عبد الملك قال له إيه وعلم أن له إليه حاجة فقال كثير:

جزَتـكَ الجـوازِي عـن صـديقكَ نَضْـرةً   وأدناكَ ربِّي في الرَّفيـــق المُقَـــرَّبِ

فإنّــك لا يُعْطَــى عليــك ظُلاَمــةً   عــدوٌّ ولا تنــأى عــن المتقــرّب

وإنّــك مــا تَمنَــعْ فإنــك مــانعٌ بحــقٍ ومــا أعطيــتَ لم تَتعقّــبِ

فقال له أترغب غربا قال نعم يا أمير المؤمنين قال اكتبوها له ففعلوا.

أخبرني الحرمي قال حدثني عبد الله بن أبي عبيدة قال كان الحزين الكناني قد ضرب علىكل رجل من قريش درهمين في كل شهر منهم ابن أبي عتيق فجاءه لأخذ درهميه على حمار له أعجف قال وكثير مع ابن أبي عتيق فدعا ابن أبي عتيق للحزين بدرهمين فقال الحزين لابن أبي عتيق من هذا معك قال هذا أبو صخر كثير بن ابي جمعة قال وكان قصيرا دميما فقال له الحزين أتأذن لي أن أهجوه ببيت من شعر قال لا لعمري لا آذن لك أن تهجو جليسي ولكني أشتري عرضه منك بدرهمين آخرين ودعا له بهما فأخذهما ثم قال لا بد من هجائه ببيت قال أو أشتري ذلك منك بدرهمين آخرين ودعا له بهما فأخذهما ثم قال ما أنا بتاركه حتى أهجوه قال أو أشتري ذلك منك بدرهمين فقال له كثير ايذن له ما عسى أن يقول في بيت فأذن له ابن أبي عتيق فقال

قصــيرُ القمــيصِ فــاحشٌ عنــد بيتــه يَعَــضّ القُــرَادُ بِاســتِهِ وهــو قــائمُ

قال فوثب كثير إليه فلكزه فسقط هو والحمار وخلص ابن أبي عتيق بينهما وقال لكثير قبحك الله أتأذن له وتسفه عليه فقال كثير أو أنا ظننته أن يبلغ بي هذا كله في بيت واحد.

كثير يدعي أنه قرشي

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبة ولم يتجاوزه وأخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا عبد الرحمن ابن الخضر الخزاعي عن ولد جمعة بنت كثير أنه وجد في كتب أبيه التي فيها شعر كثير أن عبد الملك بن مروان قال له ويحك الحق بقومك من خزاعة فأخبر أنه من كنانة

قريش وأنشد كثير قوله:

أليس أبي بالصَّلْتِ أم ليس إخوتي | بكل هِجانٍ من بني النَّضْر أزهَرا

فإن لم تكونوا من بني النَّضْرِ فاتركوا | أراكاً بأذناب القَوابِل أخضرا

أبَيْتُ التي قد سُمْتَني ونَكِرْتُها | ولو سُمْتَها قبلي قبيصةَ أنكرا

لَبسنا ثيابَ العَصْبِ فاختلط السَّدَى | بِنا وبهم والحَضْرَمِيَّ المُخَصَّرا

فقال له عبد الملك لابد أن تنشد هذا الشعر على مبنري الكوفة والبصرة وحمله وكتب إلى العراق في أمره قال عمر بن شبة في خبره خاصة فأجابته خزاعة الحجاز إلى ذلك وقال فيه الأحوص ويقال بل قاله سراقة البارقي:

لَعَمْري لقدجاء العراقَ كُثَيِّرٌ | بأحدوثة من وَحْيِهِ المُتَكَذِّب

أيزعمُ أنّي من كِنانةَ أوّلي | وما لِيَ من أمٍّ هناك ولا أبِ

فإنْ كنتَ حُرًّا أو تخاف مَعَرّةً | فخُذْ ما أخذتَ من أميرِك واذهبِ

فقال كثير يجيبه وفي خبر الزبير قال هذا لأبي علقمة الخزاعي:

أيا خُبَثٌ أكرِمْ كِنانةَ إنّهم | مَواليك إنْ أمرٌ سما بك معلق

قال فخرج كثير فأتى الكوفة فرمي به إلى مسجد بارق فقالوا له أنت من أهل الحجاز قال نعم قالوا فأخبرنا عن رجل شاعر ولد زنا يدعى كثيرا قال سبحان الله أما تسمعون أيها المشايخ ما يقول الفتيان قالوا هو ما قاله لنفسه فانسل منهم وجاء إلى والي الكوفة حسان بن كيسان فطيره على البريد وقال عمر بن شبة في خبره إن سراقة البارقي هو المخاطب له بهذه الشتيمة وإنه عرفه وقال له إن قلت هذا على المنبر قتلتك قحطان وأنا أولهم فانصرف إلى منزله ولم

يعد إلى عبد الملك.

تشيع كثير وشعره في ابن الحنفية

أخبرنا الحرمي قال أخبرنا الزبير قال أخبرنا عمرو ومُحَّد بن الضحاك قالا كان كثير يتشيع تشيعا قبيحا يزعم أن مُحَّد بن الحنفية لم يمت قال وكان ذلك رأي السيد وقد قال فيه يعني السيد شعرا كثيرا منه:

ألاَ إنّ الأَئمَّـــــةَ مـــــن قُـــــرَيْشٍ   وُلاةَ الحـــــقِّ أربعـــــةٌ ســـــواءُ

علـــــيٌّ والثلاثـــــةُ مـــــن بَنِيـــــه   هـــمُ الأسـباطُ لـيس بهـم خَفَـاءُ

فسِـــــبْطٌ سِـــــبْطُ إيمـــــان وبِـــــرٍّ   وسِـــــبْطٌ غَيَّبَتْـــــهُ كَـــــرْبَلاءُ

وسِـــبْطٌ لا تـــراه العـــينُ حـــتَّى   يقـــودَ الخيـــلَ يقـــدُمها اللِّـــواء

تغيَّـــب لا يُـــرَى عـــنهم زمـــاناً   برَضْـــوَى عنـــده عســـلٌ ومـــاء

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا الحارث بن مُحَّد عن المدائني عن أبي بكر الهذلي قال كان عبد الله بن الزبير قد أغري ببني هاشم يتبعهم بكل مكروه ويغري بهم ويخطب بهم على المنابر ويصرح ويعرض بذكرهم فربما عارضه ابن عباس وغيره منهم ثم بدا له فيهم فحبس ابن الحنفية في سجن عارم ثم جمعه وسائر من كان بحضرته من بني هاشم فجعلهم في محبس وملأه حطبا وأضرم فيه النار وقد كان بلغه أن أبا عبد الله الجدلي وسائر شيعة ابن الحنفية قد وافوا لنصرته ومحاربة ابن الزبير فكان ذلك سبب إيقاعه به وبلغ أبا عبد الله الخبر فوافى ساعة أضرمت النار عليهم فأطفأها واستنقذهم وأخرج ابن الحنفية عن جوار ابن الزبير منذ يومئذ.

كان كثير عاقا لأبيه

أخبرنا الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثني أبي قال كان كثير عاقا لأبيه وكان أبوه قد أصابته قرحة في إصبع من أصابع يده فقال له كثير أتدري لم أصابتك هذه القرحة في إصبعك قال لا أدري قال مما ترفعها إلى الله في يمين كاذبة.

أخبرنا الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثنا إبراهيم بن المنذر عن مُحَمَّد ابن معن الغفاري عن أبيه وغيره قال حدثني رجل من مزينة قال إني لأعرف صلاح بني هاشم من وفسادهم بحب كثير من أحبه منهم فهو فاسد ومن أبغضه فهو صالح لأنه كان خشبيا يقول بالرجعة.

أخبرنا الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثنا علي بن صالح عن ابن دأب قال كان كثير يدخل على عمة له برزة فتكرمه وتطرح له وسادة يجلس عليها فقال لها يوما لا والله ما تعرفيني ولا تكرميني حق كرامتي قالت بلى والله إني لأعرفك قال فمن أنا قالت ابن فلان وابن فلانة وجعلت تمدح أباه وأمه فقال قد عرفت أنك لا تعرفيني قالت فمن أنت قال أنا يونس بن متى.

أخبرنا الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثنا إبراهيم بن المنذر عن مُحَمَّد ابن معن الغفاري عن أبيه وغيره قال حدثني رجل من مزينة قال ضفت كثيرا ليلة وبت عنده ثم تحدثنا ونمنا فلما طلع الفجر تضور ثم قمت فتوضأت وصليت وكثير راقد في لحافه فلما طلع قرن الشمس تضور ثم قال يا جارية اسجري لي ماء قال قلت تبا لك سائر اليوم أو هذه الساعة هذا وركبت راحلتي وتركته قال الزبير أسخني لي ماء.

أخبرنا الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثني مُحَمَّد بن إسماعيل عن عبد العزيز

بن عمران عن مُحَمَّد بن عبد العزيز عن ابن شهاب عن طلحة بن عبيد الله قال ما رأيت قط أحمق من كثير دخلت عليه يوما في نفر من قريش وكنا كثيرا ما نتهزأ به وكان يتشيع تشيعا قبيحا فقلت له كيف تجدك يا أبا صخر وهو مريض فقال أجدني ذاهبا فقلت كلا فقال هل سمعتم الناس يقولون شيئا فقلت نعم يتحدثون أنك الدجال قال أما لئن قلت ذاك إني لأجد في عيني ضعفا منذ أيام.

أخبرنا الفضل بن الحباب أبو خليفة قال حدثنا مُحَمَّد بن سلام قال أخبرني عثمان بن عبد الرحمن وأخبرنا مُحَمَّد بن جعفر النحوي قال حدثنا مُحَمَّد بن يزيد المبرد قال وأخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب ابن نصر المهلبي قالا حدثنا عمر بن شبة وأخبرنا الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثنا المؤملي عن ابن أبي عبيدة قالوا جميعا لما أراد عبد الملك الخروج إلى مصعب لاذت به عاتكة بنت يزيد ابن معاوية وهي أم ابنه يزيد وقالت يا أمير المؤمنين لا تخرج السنة لحرب مصعب فإن آل الزبير ذكروا خروجك وابعث إليه الجيوش وبكت وبكى جواريها معها وجلس وقال قاتل الله ابن أبي جمعة فأين قوله؟

بدء قوله الشعر وعشقه عزة

أخبرنا الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثني عمي قال قال كثير ما قلت الشعر حتى قولته قيل له وكيف ذاك قال بينا أنا يوما نصف النهار أسير على بعير لي بالغميم أو بقاع حمدان إذا راكب قد دنا مني حتى صار إلى جنبي فتأملته فإذا هو من صفر وهو يجر نفسه في الأرض جرا فقال لي قل الشعر وألقاه علي قلت من أنت قال أنا قرينك من الجن فقلت الشعر ونسب كثير لكثرة تشبيبه بعزة الضمرية إليها وعرف بها فقيل كثير عزة وهي عزة بنت حميل بن وقاص أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثنا الزبير قال حدثني مُحَمَّد بن الحسن قال أبو بصرة الغفاري المحدث واسمه حميل بن وقاص هو أبو عزة التي كان ينسب بها

كثير وكان ابتداء عشقه إياها على أنه قد قيل إنه كان في ذلك كاذبا ولم يكن بعاشق وذلك يذكر بعد خبره معها فيما أخبرني به الحرمي قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني عبد الله بن إبراهيم السعدي قال حدثني إبراهيم بن يعقوب بن جميع الخزاعي أنه كان أول عشق كثير عزة أن كثيرا مر بنسوة من بني ضمرة ومعه جلب غنم فأرسلن إليه عزة وهي صغيرة فقالت يقلن لك النسوة بعنا كبشا من هذه الغنم وأنسئنا بثمنه إلى أن ترجع فأعطاها كبشا وأعجبته فلما رجع جاءته امرأة منهن بدراهمه فقال وأين الصبية التي أخذت مني الكبش قالت وما تصنع بها هذه دراهمك قال لا آخذ دراهمي إلا ممن دفعت الكبش إليها وخرج وهو يقول:

قضى كلُّ ذي دَيْنٍ فوفَّى غَرِيمَه　　　وعَزَّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

قال فكان أول لقائه إياها.

أخبرني الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثني عبد الرحمن بن الخضر بن أبي بكر بن عبد العزيز بن عبد الرحمن أبي جندل عن أبيه عبد العزيز الخزاعي وأمه جمعة بنت كثير عن أمه جمعة عن أبيها كثير أن أول علاقته بعزة أنه خرج من منزله يسوق خلف غنم إلى الجار فلما كان بالخبت وقف على نسوة من بني ضمرة فسألهن عن الماء فقلن لعزة وهي جارية حين كعب ثدياها أرشديه إلى الماء فأرشدته وأعجبته فبينا هو يسقي غنمه إذ جاءته عزة بدراهم فقالت يقلن لك النسوة بعنا بهذه الدراهم كبشا من ضأنك فأمر الغلام فدفع إليها كبشا وقال ردي الدراهم وقولي لهن إذا رحت بكن اقتضيت حقي فلما راح مر بهن فقلن له هذا حقك فخذه فقال عزة غريمي ولست أقتضي حقي إلا منها فمزحن معه وقلن ويحك عزة جارية صغيرة وليس فيها وفاء لحقك فأحله على إحدانا فإنها أملأ به منها وأسرع له أداء فقال ما أنا بمحيل حقي عنها ومضى لوجهه ثم رجع

إليهن حين فرغ من بيع جلبه فأنشدهن فيها:

نظـرتُ إليهـا نظـرةً وهـي عـاتقٌ ... علـى حـين أن شَـبّتْ وبان نُهودهـا

وقـد دَرَّعُوهـا وهـي ذات مُؤَصَّـدٍ ... مَجُـوبٍ ولمَّـا يَلْـبَس الـدِّرْعَ رِيـدُها

مـن الخفِـراتِ البِـيض وَدّ جليسُـها ... إذا مـا انقضـتْ أُحدوثـةٌ لـو تُعيـدها

فقلن له أبيت إلا عزة وأبرزنها إليه وهي كارهة ثم أحبته عزة بعد ذلك أشد من حبه إياها قال الزبير فسألت مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد العزيز ابن عبد الرحمن الخزاعي المعروف بأبي جندل عن هذا الحديث فعرفه وحدثنيه عن أبيه عن جده عبد العزيز بن أبي جندل عن أمه جمعة بنت كثير عن أبيها.

وأخبرني عمي الحسن بن مُحَمَّد الأصفهاني رحمه الله قال حدثنا الزبير قال حدثني يعقوب بن عبد الله الأسدي وغيره قال الزبير وحدثني مُحَمَّد بن صالح الأسلمي قال دخلت عزة على عبد الملك بن مروان وقد عجزت فقال لها أنت عزة كثير فقالت أنا عزة بنت حميل قال أنت التي يقول لك كثير:

لِعَـزّة نارٌ مـا تَبُـوخُ كأنهـا ... إذا مـا رَمَقْناهـا مـن البعـدِ كوكـبُ

فما الذي أعجبه منك قالت كلا يا أمير المؤمنين فوالله لقد كنت في عهده أحسن من النار في الليلة القرة وفي حديث مُحَمَّد بن صالح الأسلمي فقالت له أعجبه مني ما أعجب المسلمين منك حين صيروك خليفة قال وكانت له سن سوداء يخفيها فضحك حتى بدت فقالت له هذا الذي أردت أن أبديه فقال لها هل تروين قول كثير فيك:

وقـد زعمـتْ أنِّي تغـيَّرتُ بعـدَها ... ومَـنْ ذا الـذي يا عـزَّ لا يَتَغَيَّـرُ

تغـيَّر جسـمي والخليقـةُ كـالتي ... عَهِـدْتِ ولم يُخْبَـرْ بسـرّكِ مُخْبَـرُ

قالت لا ولكني أروي قوله:

كـأنِيّ أنادي صـخرةً حـين أعرضـتْ   من الصمُّ لو تمشِي بها العُصْمُ زَلّتِ

صَـــفُوحاً فمـــا تلقـــاكَ إلاّ بخيلـــةً   فمَـنْ مَـلّ منهـا ذلـك الوصـلَ مَلّـتِ

فأمر بها فأدخلت على عاتكة بنت يزيد وفي غير هذه الرواية أنها أدخلت على أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان فقالت لها أرأيت قول كثير:

قضـى كـلُّ ذَيٍ دَيـنٍ فـوفَّى غريمَـه   وعـــزّة ممطـــولٌ معـــنًّى غريمُهـــا

ما هذا الذي ذكره قالت قبلة وعدته إياها قالت أنجزيها وعلي إثمها.

أخبرنا الحرمي قال حدثنا الزبير قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم عن عبد الله بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاصي قال خرج كثير في الحاج بجمل له يبيعه فمر بسكينة بنت الحسين ومعها عزة وهو لا يعرفها فقالت سكينة هذا كثير فسوموه بالجمل فساموه فاستام مائتي درهم فقالت ضع عنا فأبى فدعت له بتمر وزبد فأكل ثم قالت له ضع عنا كذا وكذا لشيء يسير فأبى فقالوا قد أكلت يا كثير بأكثر مما نسألك فقالت ما أنا بواضع شيئا فقالت سكينة اكشفوا فكشفوا عنها وعن عزة فلما رآهما استحيا وانصرف وهو يقول هو لكم هو لكم.

هل كان كثير صادقا في عشقه؟

أخبرنا أبو خليفة قال حدثنا ابن سلام قال كان كثير مدعيا ولم يكن عاشقا وكان جميل صادق الصبابة والعشق أخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبي قالا حدثنا عمر بن شبة قال زعم إسحاق بن إبراهيم أنه سمع أبا عبيدة يقول كان جميل يصدق في حبه وكان كثير يكذب.

ومما وجدناه في أخباره ولم نسمعه من أحد أنه نظر إلى عزة ذات يوم وهي منتقبة تميس في مشيتها فلم يعرفها كثير فاتبعها وقال يا سيدتي قفي حتى أكلمك فإني لم أر مثلك قط فمن أنت ويحك قالت ويحك وهل تركت عزة فيك بقية لأحد قال بأبي أنت والله لو أن عزة أمة لي لوهبتها لك قالت فهل لك في المخاللة قال وكيف لي بذلك قالت أنى وكيف بما قلت في عزة قال أقلبه فأحوله إليك فسفرت عن وجهها ثم قالت أغدرا يا فاسق وإنك لهكذا فأبلس ولم ينطق وبهت فلما مضت أنشأ يقول:

ألاَ ليتني قبل الذي قلتُ شِيبَ لي ... من السمّ جَدْحاتٌ بماء الذَّرَارِحِ

فمتُّ ولم تعلم عليَّ خيانة ... وكم طالبٍ للربح ليس برابح

أبوءُ بذنبي إنني قد ظلمتُها ... وإني بباقي سِرِّها غيرُ بائح

عتاب المحبين

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثني عمر بن شبة قال زعم ابن الكلبي عن أبي المقوم قال أخبرني سائب راوية كثير قال خرجت معه نريد مصر فمررنا بالماء الذي فيه عزة فإذا هي في خباء فسلمنا جميعا فقالت عزة وعليك السلام يا سائب ثم أقبلت على كثير فقالت ويحك ألا تتقي الله أرأيت قولك:

بآيةِ ما أتيتُكِ أُمَّ عمروٍ ... فقمتِ لحاجتي والبيتُ خالي

أخلوت معك في بيت أو غير بيت قط قال لم أقله ولكنني قلت

فأُقسم لو أتيتُ البحرَ يوماً ... لأشربَ ما سقتْني من بِلاَلِ

وأُقسم إنّ حُبَّكِ أُمَّ عمروٍ ... لَداءٌ عند منقطَع السُّعَال

قالت أما هذا فنعم فأتينا عبد العزيز ثم عدنا فقال كثير عليك السلام يا عزة قالت عليك السلام يا جمل فقال كثير.

عزة تمتحن كثيرا

أخبرني عمي قال حدثني ابن أبي قال حدثني الحزامي عمن حدثه من أهل قديد أن عزة قالت لبثينة تصدي لكثير وأطمعيه في نفسك حتى أسمع ما يجيبك به فأقبلت إليه وعزة تمشي وراءها مختفية فعرضت عليه الوصل فقاربها ثم قال:

رَمتْــني علــى عَمْــدٍ بُثَيْنَــةُ بعــد مــا　　　تــولَّى شَــبَابِي وارْجَجــنّ شــبابُها

وذكر أبياتا أخرى سقط من الكتاب ذكرها فكشفت عزة عن وجهها فبادرها الكلام ثم قال:

ولكنَّمــا تَــرْمِينَ نفســاً مريضــةً　　　لِعَــزّةَ منهــا صَــفْوُها ولُبَابُهَــا

فضحكت ثم قالت أولى لك بها قد نجوت وانصرفتا تتضاحكان.

وقال ابن أبي سعد الوراق حدثني رجاء بن سهل أبو نصر الصاغاني قال حدثنا يحيى بن غيلان قال حدثني المفضل بن فضالة عن يزيد بن عروة قال مات عكرمة وكثير عزة في يوم واحد فأخرجت جنازتاهما فما علمت تخلفت امرأة بالمدينة ولا رجل عن جنازتيهما قال وقيل مات أشعر الناس وأعلم الناس قال وغلب النساء على جنازة كثير يبكينه ويذكرن عزة في ندبتهن له قال فقال أبو جعفر مُحَمَّد بن علي افرجوا لي عن جنازة كثير لأرفعها قال فجعلنا ندفع عنها النساء وجعل يضربهن مُحَمَّد بن علي بكمه ويقول تنحين يا صواحبات يوسف فانتدبت له امرأة منهن فقالت يابن رسول الله لقد صدقت إنا لصواحبات يوسف وقد كنا له خيرا منكم له قال فقال أبو جعفر لبعض مواليه احتفظ بها حتى تجيئني بها إذا انصرفنا قال فلما انصرف أتي بتلك المرأة كأنها شرارة النار

فقال لها مُحَمَّد بن علي أنت القائلة إنكن ليوسف خير منا قالت نعم تؤمنني غضبك يابن رسول الله قال أنت آمنة من غضبي فأبيني قالت نحن يا بن رسول الله دعوناه إلى اللذات من المطعم والمشرب والتمتع والتنعم وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه في الجب وبعتموه بأبخس الأثمان وحبستموه في السجن فأينا كان عليه أحنى وبه أرأف فقال مُحَمَّد لله درك ولن تغالب امرأة إلا غلبت ثم قال لها ألك بعل قالت لي من الرجال من أنا بعله قال فقال أبو جعفر صدقت مثلك من تملك بعلها ولا يملكها قال فلما انصرفت قال رجل من القوم هذه زينب بنت معيقب.

١٨

ذكر امرئ القيس ونسبه وأخباره

قال الأصمعي هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية بن ثور وهو كندة وقال ابن الأعرابي هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن ثور وهو كندة وقال مُحَّد بن حبيب هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الملك ابن عمرو ابن حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة وقال بعض الرواة هو امرؤ القيس بن السمط بن امرئ القيس بن عمرو بن معاوية بن ثور وهو كندة وقالوا جميعا كندة هو كندة بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفحشذ بن سام بن نوح وقال ابن الأعرابي ثور هو كندة بن مرتع ابن عفير بن الحارث بن مرة بن عدي بن أدد بن زيد بن عمرو بن مسمع بن عريب بن عمرو بن زيد بن كهلان.

وأم امرئ القيس فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير أخت كليب ومهلهل ابني ربيعة التغلبيين وقال من زعم أنه امرؤ القيس بن السمط أمه تملك بنت عمرو بن زبيد بن مذحج رهط عمرو بن معد يكرب قال من ذكر هذا وأن أمه تملك قد ذكر ذلك امرؤ القيس في شعره فقال:

ألاَ هـــل أتاهـــا والحـــوادثُ جَمَّـــةٌ بأن امـرأ القـيس بـن تَمْلِـك بَيْقَـرا

بيقر أي جاء العراق والحضر ويقال بيقر الرجل إذا هاجر وقال يعقوب بن السكيت أم حجر أبي امرئ القيس أم قطام بنت سلمة امرأة من عنزة

الملك الضليل وذو القروح

ويكنى امرؤ القيس على ما ذكره أبو عبيدة أبا الحارث وقال غيره يكنى أبا وهب وكان يقال له الملك الضليل وقيل له أيضا ذو القروح وإياه عنى الفرزدق بقوله:

وهَب القصائدَ لي النوابغُ إذ مَضَوْا   وأبو يزيد وذو القروح وجَرْوَلُ

يعني بأبي يزيد المخبل السعدي وجرول الحطيئة قال وولد ببلاد بني أسد وقال ابن حبيب كان ينزل المشقر من اليمامة ويقال بل كان ينزل في حصن بالبحرين وقال جميع من ذكرنا من الرواة إنما سمي كندة لأنه كند أباه أي عقه وسمي مرتع بذلك لأنه كان يجعل لمن أتاه من قومه مرتعا له ولماشيته وسمي حجر آكل المرار بذلك لأنه لما أتاه الخبر بأن الحارث بن جبلة كان نائما في حجر امرأته هند وهي تفليه جعل يأكل المرار وهو نبت شديد المرارة من الغيظ وهو لا يدري ويقال بل قالت هند للحارث وقد سألها ما ترين حجرا فاعلا قالت كأنك به قد أدركك في الخيل وهو كأنه بعير قد أكل المرار قال وسمي عمرو المقصور لأنه قد قصر على ملك أبيه أي أقعد فيه كرها.

الحارث بن عمرو وقباذ وابنه

أخبرني بخبره على ما قد سقته ونظمته أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبة ولم يتجاوزه وروى بعضه عن علي بن الصباح عن هشام بن الكلبي وأخبرنا الحسن بن علي قال حدثنا مُحَمَّد بن القاسم بن مهرويه قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد عن علي بن الصباح عن هشام بن الكلبي قال ابن أبي

سعد وأخبرني دارم بن عقال بن حبيب الغساني أحد ولد السموءل بن عادياء عن أشياخه وأخبرنا إبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة وأخبرني مُحَمَّد بن العباس اليزيدي قال حدثني عمي يوسف عن عمه إسماعيل وأضفت إلى ذلك رواية ابن الكلبي مما لم أسمعه من أحد ورواية الهيثم بن عدي ويعقوب بن السكيت والأثرم وغيرهم لما في ذلك من الاختلاف ونسبت رواية كل راو إذا خالف رواية غيره إليه قالوا كان عمرو بن حجر وهو المقصور ملكا بعد أبيه وكان أخوه معاوية وهو الجون على اليمامة وأمهما شعبة بنت أبي معاهر بن حسان بن عمرو بن تبع ولما مات ملك بعده ابنه الحارث وكان شديد الملك بعيد الصيت.

ولما ملك قباذ بن فيروز خرج في أيام ملكه رجل يقال له مزدك فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحرم وألا يمنع أحد منهم أخاه ما يريده من ذلك وكان المنذر بن ماء السماء يومئذ عاملا على الحيرة ونواحيها فدعاه قباذ إلى الدخول معه في ذلك فأبى فدعا الحارث بن عمرو فأجابه فشدد له ملكه وأطرد المنذر عن مملكته وغلب على ملكه وكانت أم أنو شروان بين يدي قباذ يوما فدخل عليه مزدك فلما رأى أم أنو شروان قال لقباذ ادفعها لي لأقضي حاجتي منها فقال دونكها فوثب إليه أنو شروان فلم يزل يسأله ويضرع إليه أن يهب له أمه حتى قبل رجله فتركها له فكانت تلك في نفسه فهلك قباذ على تلك الحال وملك أنو شروان فجلس في مجلس الملك وبلغ المنذر هلاك قباذ فأقبل إلى أنوشروان وقد علم خلافه على أبيه فيما كانوا دخلوا فيه فأذن أنوشروان للناس فدخل عليه مزدك ثم دخل عليه المنذر فقال أنوشروان إني كنت تمنيت أمنيتين أرجو أن يكون الله قد جمعهما لي فقال مزدك وما هما أيها الملك قال تمنيت أن أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف يعني المنذر وأن أقتل هؤلاء الزنادقة فقال له مزدك أو تستطيع أن تقتل الناس كلهم قال إنك لها هنا يابن الزانية والله ما

ذهب نتن ريح جوربك من أنفي منذ قبلت رجلك إلى يومي هذا وأمر به فقتل وصلب وأمر بقتل الزنادقة فقتل منهم ما بين جازر إلى النهروان إلى المدائن في ضحوة واحدة مائة ألف زنديق وصلبهم وسمي يومئذ أنوشروان وطلب أنوشروان الحارث بن عمرو فبلغه ذلك وهو بالأنبار وكان بها منزله وإنما سميت الأنبار لأنه كان يكون بها أهراء الطعام وهي الأنابير فخرج هاربا في هجائنه وماله فمر بالثوية وتبعه المنذر بالخيل من تغلب وبهراء وإياد فلحق بأرض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجائنه وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفسا من بني آكل المرار فقدم بهم على المنذر فضرب رقابهم بجفر الأملاك في ديار بني مرينا العباديين بين دير هند والكوفة.

قالوا ومضى الحارث فأقام بأرض كلب فكلب يزعمون أنهم قتلوه وعلماء كندة تزعم أنه خرج إلى الصيد فألظ بتيس من الظباء فأعجزه فآلى ألية ألا يأكل أولا إلا من كبده فطلبته الخيل ثلاثا فأتي بعد ثالثة وقد هلك جوعا فشوي له بطنه فتناول فلذة من كبده فأكلها حارة فمات وفي ذلك يقول الوليد بن عدي الكندي في أحد بني بجيلة:

فشــوَوْا فكــان شِــواؤهم خَبْطــاً لــه إن المنيَّــــة لا تُجِــــلّ جَلِــــيلا

وزعم ابن قتيبة أن أهل اليمن يزعمون أن قباذ بن فيروز لم يملك الحارث بن عمرو وأن تبعا الأخير هو الذي ملكه قال ولما أقبل المنذر إلى الحيرة هرب الحارث وتبعته خيل فقتلت ابنه عمرا وقتلوا ابنه مالكا بهيت وصار الحارث إلىمسحلان فقتلته كلب وزعم غير ابن قتيبة أنه مكث فيهم حتى مات حتف أنفه.

الحارث بن عمرو وتمليكه أولاده على قبائل العرب

وقال الهيثم بن عدي حدثني حماد الراوية عن سعيد بن عمرو بن سعيد عن سعية بن عريض من يهود تيماء قال لما قتل الحارث بن أبي شمر الغساني عمرو بن حجر ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وأمه بنت عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان ونزل الحيرة فلما تفاسدت القبائل من نزار أتاه اشرافهم فقالوا إنا في دينك ونحن نخاف أن نتفانى فيما يحدث بيننا فوجه معنا بنيك ينزلون فينا فيكفون بعضنا عن بعض ففرق ولده في قبائل العرب فملك ابنه حجرا على بني أسد وغطفان وملك ابنه شرحبيل قتيل يوم الكلاب على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم والرباب وملك ابنه معد يكرب وهو غلفاء سمي بذلك لأنه كان يغلف رأسه على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن مالك بن حنظلة والصنائع وهم بنو رقية قوم كانوا يكونون مع الملوك من شذاذ العرب وملك ابنه عبد الله على عبد القيس وملك ابنه سلمة على قيس.

مقتل حجر

وقال ابن الكلبي حدثني أبي أن حجرا كان في بني أسد وكانت له عليهم إتاوة في كل سنة مؤقتة فغبر ذلك دهرا ثم بعث إليهم جابيه الذي كان يجبيهم فمنعوه ذلك وحجر يومئذ بتهامة وضربوا رسله وضرجوهم ضرجا شديدا قبيحا فبلغ ذلك حجرا فسار إليهم بجند من ربيعة وجند من جند أخيه من قيس وكنانة فأتاهم وأخذ سراتهم فجعل يقتلهم بالعصا فسموا عبيد العصا وأباح الأموال وصيرهم إلى تهامة وآلى بالله ألا يساكنوهم في بلد أبدا وحبس منهم عمرو بن مسعود بن كندة بن فزارة الأسدي وكان سيدا وعبيد بن الأبرص الشاعر فسارت بنو أسد ثلاثا. قال فرق لهم حجر حين سمع قوله فبعث في

أثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة بن سوادة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة فقال لبني أسد يا عبادي قالوا لبيك ربنا قال من الملك الأصهب الغلاب غير المغلب في الإبل كأنها الربرب لا يعلق رأسه الصخب هذا دمه ينثعب وهذا غدا أول من يسلب قالوا من هو يا ربنا قال لولا أن تجيش نفس جاشية لأخبرتكم أنه حجر ضاحية فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته وكان حجابه من بني الحارث ابن سعد يقال لهم بنو خدان بن خنثر منهم معاوية بن الحارث وشبيب ورقية ومالك وحبيب وكان حجر قد أعتق أباهم من القتل فلما نظروا إلى القوم يريدون قتله خيموا عليه ليمنعوه ويجيروه فأقبل عليهم علباء بن الحارث الكاهلي وكان حجر قد قتل أباه فطعنه من خللهم فأصاب نساه فقتله فلما قتلوه قالت بنو أسد يا معشر كنانة وقيس أنتم إخواننا وبنو عمنا والرجل بعيد النسب منا ومنكم وقد رأيتم ما كان يصنع بكم هو وقومه فانتهبوهم فشدوا على هجائنه فمزقوها ولفوه في ريطة بيضاء وطرحوه على ظهر الطريق فلما رأته قيس وكنانة انتهبوا أسلابه ووثب عمرو بن مسعود فضم عياله وقال أنا لهم جار.

قال أبو عمرو الشيباني بل كان حجر لما خاف من بني أسد استجار عوير بن شجنة أحد بني عطارد بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم لبنته هند بنت حجر وعياله وقال لبني أسد لما كثروه أما إذا كان هذا شأنكم فإني مرتحل عنكم ومخليكم وشأنكم فواعدوه على ذلك ومال على خالد بن خدان أحد بني سعد بن ثعلبة فأدركه علباء بن الحارث أحد بني كاهل فقال يا خالد اقتل صاحبك لا يفلت فيعرك وإيانا بشر فامتنع خالد ومر علباء بقصدة رمح مكسورة فيها سنانها فطعن بها في خاصرة حجر وهو غافل فقتله ففي ذلك يقول الأسدي:

وذكر الهيثم بن عدي أن حجرا لما استجار عوير بن شجنة لبنيه وقطينه تحول عنهم فأقام في قومه مدة وجمع لبني أسد جمعا عظيما من قومه وأقبل مدلا بمن معه من الجنود فتآمرت بنو أسد بينها وقالوا والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبي فما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشد العرب فموتوا كراما فساروا إلى حجر وقد ارتحل نحوهم فلقوه فاقتتلوا قتالا شديدا وكان صاحب أمرهم علباء بن الحارث فحمل على حجر فطعنه فقتله وانهزمت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس فهرب على فرس له شقراء وأعجزهم وأسروا من أهل بيته رجالا وقتلوا وملؤوا أيديهم من الغنائم وأخذوا جواري حجر ونساءه وما كان معه من شيء فاقتسموه بينهم.

وقال يعقوب بن السكيت حدثني خالد الكلابي قال كان سبب قتل حجر أنه كان وفد إلى أبيه الحارث بن عمرو في مرضه الذي مات فيه وأقام عنده حتى هلك ثم أقبل راجعا إلى بني أسد وقد كان أغار عليهم في النساء وأساء ولايتهم وكان يقدم بعض ثقله أمامه ويهيأ نزله ثم يجيء وقد هيء له من ذلك ما يعجبه فينزل ويقدم مثل ذلك إلى ما بين يديه من المنازل فيضرب له في المنزلة الأخرى فلما دنا من بلاد بني أسد وقد بلغهم موت أبيه طمعوا فيه فلما أظلهم وضربت قبابه اجتمعت بنو أسد إلى نوفل بن ربيعة بن خدان فقال يا بني أسد من يتلقى هذا الرجل منكم فيقتطعه فإني قد أجمعت على الفتك به فقال له القوم ما لذلك أحد غيرك فخرج نوفل في خيله حتى أغار على الثقل فقتل من وجد فيه وساق الثقل وأصاب جاريتين قينتين لحجر ثم أقبل حتى أتى قومه فلما رأوا ما قد حدث وأتاهم به عرفوا أن حجرا يقاتلهم وأنه لا بد من القتال فحشد الناس لذلك وبلغ حجرا أمرهم فأقبل نحوهم فلما غشيهم ناهضوه القتال وهم بين

أبرقين من الرمل في بلادهم يدعيان اليوم أبرقي حجر فلم يلبثوا حجرا أن هزموا أصحابه وأسروه فحبسوه وتشاور القوم في قتله فقال لهم كاهن من كهنتهم بعد أن حبسوه ليروا فيه رأيهم أي قوم لا تعجلوا بقتل الرجل حتى أزجر لكم فانصرف عن القوم لينظر لهم في قتله فلما رأى ذلك علباء خشي أن يتواكلوا في قتله فدعا غلاما من بني كاهل وكان ابن أخته وكان حجر قتل أباه زوج أخت علباء فقال يا بني أعندك خير فتثأر بأبيك وتنال شرف الدهر وإن قومك لن يقتلوك فلم يزل بالغلام حتى حربه ودفع اليه حديدة وقد شحذها وقال ادخل عليه مع قومك ثم اطعنه في مقتله فعمد الغلام إلى الحديدة فخبأها ثم دخل على حجر في قبته التي حبس فيها فلما رأى الغلام غفلة وثب عليه فقتله فوثب القوم على الغلام فقالت بنو كاهل ثأرنا وفي أيدينا فقال الغلام إنما ثأرت بأبي فخلوا عنه وأقبل كاهنهم المزدجر فقال أي قوم قتلتموه ملك شهر وذل دهر أما والله لا تحظون عند الملوك بعده أبدا.

قال ابن السكيت ولما طعن الأسدي حجرا ولم يجهز عليه أوصى ودفع كتابه إلى رجل وقال له انطلق إلى ابني نافع وكان أكبر ولده فإن بكى وجزع فاله عنه واستقرهم واحدا واحدا حتى تأتي امرأ القيس وكان أصغرهم فأيهم لم يجزع فادفع إليه سلاحي وخيلي وقدوري ووصيتي وقد كان بين في وصيته من قتله وكيف كان خبره فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه فأخذ التراب فوضعه على رأسه ثم استقراهم واحدا واحدا فكلهم فعل ذلك حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالنرد فقال له قتل حجر فلم يلتفت إلى قوله وأمسك نديمه فقال له امرؤ القيس اضرب فضرب حتى إذا فرغ قال ما كنت لأفسد عليك دستك ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله فأخبره فقال الخمر علي والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مائة وأجز نواصي مائة وفي

ذلك يقول:

أرِقـــتُ ولم يأرَقْ لِمَـــا بِيَ نافـــعُ   وهــاج لِي الشــوقَ الهمــومُ الــروادعُ

وقال ابن الكلبي حدثني أبي عن ابن الكاهن الأسدي أن حجرا كان طرد امرأ القيس وآلى ألا يقيم معه أنفة من قوله الشعر وكانت الملوك تأنف من ذلك فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيئ وكلب وبكر بن وائل فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ثم ينتقل عنه إلى غيره فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمون من أرض اليمن أتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر الأعور أخو الوصاف فلما أتاه بذلك قال:

تَطَـــاولَ الليـــلُ علـــى دَمُّـــونْ   دَمّـــونُ إنّا معشـــرٌ يمـــانونْ

وإنّنا لأهلها مُحِبُّونْ ...

ثم قال ضيعني صغيرا وحملني دمه كبيرا لا صحو اليوم ولا سكر غدا اليوم خمر وغدا أمر فذهبت مثلا ثم قال:

خليلـيَّ لا في اليـومِ مَصْـحىً لشـاربٍ   ولا في غـدٍ إذ ذاك مـا كـان يُشْـرَبُ

ثم شرب سبعا فلما صحا آلى ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يدهن بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك بثأره فلما جنه الليل رأى برقا فقال:

أرِقـــتُ لـــبرقٍ بليـــلٍ أهَـــلّْ   يُضـــيء سَـــنَاه بأعلَـــى الجبـــلْ

أتاني حـــــــديثٌ فكذَّبْتُـــــــه   بأمـــر تَزَعْـــزَعُ منـــه القُلَـــلْ

بقتـــــل بــــني أسَــــدٍ ربَّهـــــم ألاَ كــــلُّ شـــيءٍ ســـواه جَلَـــلْ

فـــــأين رَبيعـــــةُ عـــــن ربّهـــــا وأيـــــن تمـــــيمٌ وأيـــــن الخَـــــوَل

ألاَ يحضُـــــــرون لـــــــدى بابـــــــه كمـــا يحضُـــرون إذا مـــا أكـــل

وروى الهيثم عن أصحابه أن امرأ القيس لما قتل أبوه كان غلاما قد ترعرع وكان في بني حنظلة مقيما لأن ظئره كانت امرأة منهم فلما بلغه ذلك قال:

يا لَهْــفَ هنــدٍ إذ خَطِــئن كــاهلا القــــاتلين المَلِــــكَ الحُلاَحِــــلا

تالله لا يـــذهب شـــيخي باطـــلا ياخــيرَ شــيخ حَسَــباً ونائــلا

وخـــيرَهم قـــد علمـــوا فواضـــلا يَحْمِلْننـــا والأَسَـــلَ النّـــواهلا

وحـــيَّ صَـــعْبٍ والوَشِـــيجَ الـــذّابلا مُسْـــتَثْفِراتٍ بالحصـــى جَـــوافِلاَ

يعني صعب بن علي بن بكر بن وائل معنى قوله مستثفرات بالحصى يريد أنها أثارت الحصى بحوافرها لشدة جريها حتى ارتفع إلى أثفارها فكأنها استنفرت به.

خبر هند بنت حجر مع عوير بن شجنة

وقال الهيثم بن عدي لما قتل حجر انحازت بنته وقطينه إلى عوير بن شجنة فقال له قومه كل أموالهم فإنهم مأكولون فأبى فلما كان الليل حمل هندا وقطينها وأخذ بخطام جملها وأشأم بهم في ليلة طخياء مدلهمة فلما أضاء البرق أبدى عن ساقيه وكانتا حمشتين فقالت هند ما رأيت كالليلة ساقي واف فسمعها فقال يا هند هما ساقا غادر شر فرمى بها النجاد حتى أطلعها نجران وقال لها إني لست أغني عنك شيئا وراء هذا الموضع وهؤلاء قومك وقد برئت خفارتي فمدحه امرؤ

القيس بعدة قصائد منها قوله في قصيدة له:

ألاَ إنّ قوماً كنتُم أمسِ دونَهم هم منعوا جاراتِكم آلَ غُدْرانِ

عُوَيْرٌ ومَنْ مثلُ العُوَيْر ورَهْطِه أبرَّ بميثاقٍ وأَوْفَى بجِيران

هم أبلغوا الحيّ المُضَيَّع أهلَه وساروا بهم بين الفُرات ونَجْرانِ

وقال ابن قتيبة في خبره إن القصة المذكورة عن عوير كانت مع أبي حنبل وجارية بن مر قال ويقال بل كانت مع عامر بن جوين الطائي وإن ابنته أشارت عليه بأخذ مال حجر وعياله فقام ودخل الوادي ثم صاح ألا إن عامر بن جوين غدر فأجابه الصدى مثل قوله فقال ما أقبح هذا من قول ثم صاح ألا إن عامر بن جوين وفى فأجابه الصدى بمثل قوله فقال ما أحسن هذا ثم دعا ابنته بجذعة من غنم فاحتلبها وشرب واستلقى على قفاه وقال والله لا أغدر ما أجزأتني جذعة ثم نهض وكانت ساقاه حمشتين فقالت ابنته والله ما رأيت كاليوم ساقي واف فقال وكيف بهما إذا كانتا ساقي غادر هما والله حينئذ أقبح.

امرؤ القيس في ديار بكر وتغلب

وقال ابن الكلبي عن أبيه ويعقوب بن السكيت عن خالد الكلابي إن امرأ القيس ارتحل حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم النصر على بني أسد فبعث العيون على بني أسد فنذروا بالعيون ولجؤوا إلى بني كنانة وكان الذي أنذرهم بهم علباء بن الحارث فلما كان الليل قال لهم علباء يا معشر بني أسد تعلمون والله إن عيون امرئ القيس قد أتتكم ورجعت إليه بخبركم فارحلوا بليل ولا تعلموا بني كنانة ففعلوا واقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة وهو يحسبهم بني أسد فوضع السلاح فيهم وقال يا لثارات الملك يا لثارات الهمام فخرجت إليه عجوز من بني كنانة فقالت أبيت اللعن لسنا لك

بثأر نحن من كنانة فدونك ثأرك فاطلبهم فإن القوم قد ساروا بالأمس فتبع بني أسد ففاتوه ليلتهم تلك فقال في ذلك:

ألا يا لَهْـــفَ هنـــدٍ إثْـــرَ قـــومٍ هـــمُ كـــانوا الشـــفاءَ فلـــم يُصـــابوا

وقـــاهم جَـــدُّهم ببـــني أبـــيهم وبالأَشْـــقَيْنَ مـــا كـــان العقـــابُ

وأَفْلـــتهنّ عِلْبـــاءٌ جَريضـــاً ولـــو أدركْنَـــه صَـــفِرَ الوِطـــابُ

يعني ببني أبيهم بني كنانة لأن أسدا وكنانة ابني خزيمة أخوان.

أخبرني أبو خليفة عن مُحَمَّد بن سلام قال سمعت رجلا سأل يونس عن قوله صفر الوطاب فقال سألنا رؤبة عنه فقال لو أدركوه قتلوه وساقوا إبله فصفرت وطابه من اللبن وقال غيره صفر الوطاب أي إنه كان يقتل فيكون جسمه صفرا من دمه كما يكون الوطاب صفرا من اللبن وأدركهم ظهرا وقد تقطعت خيله وقطع أعناقهم العطش وبنو أسد جامون على الماء فنهد إليهم فقاتلهم حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم وحجز الليل بينهم وهربت بنو أسد فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالوا له قد أصبت ثأرك قال والله ما فعلت ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحدا قالوا بلى ولكنك رجل مشؤوم وكرهوا قتالهم بني كنانة وانصرفوا عنه ومضى هاربا لوجهه حتى لحق بحمير.

امرؤ القيس يستنجد بالقبائل واسيادها

وقال ابن السكيت حدثني خالد الكلابي أن امرأ القيس لما أقبل من الحرب على فرسه الشقراء لجأ إلى ابن عمته عمرو بن المنذر وأمه هند بنت عمرو بن حجر بن آكل المرار وذلك بعد قتل أبيه وأعمامه وتفرق ملك أهل بيته وكان عمرو يومئذ خليفة لأبيه المنذر ببقة وهي بين الأنبار وهيت فمدحه وذكر صهره

ورحمه وأنه قد تعلق بحباله ولجأ إليه فأجاره ومكث عنده زمانا ثم بلغ المنذر مكانه عنده فطلبه وأنذره عمرو فهرب حتى أتى حمير.

وقال ابن الكلبي والهيثم بن عدي وعمر بن شبة وابن قتيبة فلما امتنعت بكر بن وائل وتغلب من اتباع بني أسد خرج من فوره ذلك إلى اليمن فاستنصر أزدشنوءة فأبوا أن ينصروه وقالوا إخواننا وجيراننا فنزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذي جدن الحميري وكانت بينهما قرابة فاستنصره واستمده على بني أسد فأمده بخمسمائة رجل من حمير ومات مرثد قبل رحيل امرئ القيس بهم وقام بالمملكة بعده رجل من حمير يقال له قرمل بن الحميم وكانت أمه سوداء فردد امرأ القيس وطول عليه حتى هم بالانصراف وقال:

وإذ نحــن نــدعو مَرْثَــد الخــيرِ ربَّنــا وإذ نحــن لا نُــدْعَى عَبيــداً لقَرْمَــلِ

فأنفذ له ذلك الجيش وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من قبائل العرب رجالا فسار بهم إلى بني أسد ومر بتبالة وبها صنم للعرب تعظمه يقال له ذو الخلصة فاستقسم عنده بقداحه وهي ثلاثة الآمر والناهي والمتربص فأجالها فخرج الناهي ثم أجالها فخرج الناهي ثم أجالها فخرج الناهي فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ما عقتني ثم خرج فظفر ببني أسد ويقال إنه ما استقسم عند ذي الخلصة بعد ذلك بقدح حتى جاء أمر الله بالإسلام وهدمه جرير بن عبد الله البجلي قالوا وألح المنذر في طلب امرئ القيس ووجه الجيوش في طلبه من إياد وبهراء وتنوخ ولم تكن لهم طاقة وأمده أنوشروان بجيش من الأساورة فسرحهم في طلبه وتفرقت حمير ومن كان معه عنه فنجا عصبة من بني آكل المرار حتى نزل بالحارث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة ومع امرئ القيس أدراع خمسة الفضفاضة والضافية والمحصنة والخربق وأم الذيول كن لبني آكل المرار يتوارثونها ملكا عن ملك فقلما

لبثوا عند الحارث بن شهاب حتى بعث إليه المنذر مائة من أصحابه يوعده بالحرب إن لم يسلم إليه بني آكل المرار فأسلمهم ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وبنته هند بنت امرئ القيس والأدرع والسلاح ومال كان بقي معه فخرج على وجهه حتى وقع في أرض طيئ وقيل بل نزل قبلهم على سعد بن الضباب الإيادي سيد قومه فأجاره.

قصة الحلة المسمومة وموت امرئ القيس

وقال ابن الكلبي بل قال له الطماح إن امرأ القيس غوي عاهر وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها وهو قائل في ذلك أشعارا يشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك فبعث إليه حينئذ بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب وقال له إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة واكتب إلي بخبرك من منزل منزل فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها فأسرع فيه السم وسقط جلده فلذلك سمي ذا القروح وقال في ذلك:

لقد طمَح الطمَّاح من بُعد أرضه ... ليُلْبِسَني ممّا يلبِّس أبؤسا

فلو أنها نفسٌ تموت سَويَّةً ... ولكنّها نفسٌ تَساقَطُ أنفُسا

قال فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضر بها فقال:

رُب خُطْبةٍ مُسْحَنْفِرَهْ ... وطَعْنةٍ مُثْعَنْجِرَهْ

وجَفْنةٍ متحيّرة ... حَلّت بأرض أَنقِره

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سفح جبل يقال له عسيب فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال:

أجارتَنـــــا إنّ المَـــــزارَ قريـــــبُ وإنِّي مقـــيمٌ مـــا أقـــام عَسِـــيبٌ

أجارتَنـــــا إنّا غريبـــانِ هاهنـــــا وكـــلُّ غريـــبٍ للغريـــب نســـيبُ

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة فقبره هناك .

أخبرني مُحَمَّد بن القاسم عن مجالد بن سعيد عن عبد الملك بن عمير قال قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة فأرسل إلى عشرة أنا أحدهم من وجوه الكوفة فسمروا عنده ثم قال ليحدثني كل رجل منكم أحدوثة وابدأ أنت يا أبا عمر فقلت أصلح الله الأمير أحديث الحق أم حديث الباطل قال بل حديث الحق قلت إن امرأ القيس آلى بألية ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر فبينما هو يسير في جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمامه فأعجبته فقال لها يا جارية ما ثمانية وأربعة واثنتان فقالت أما ثمانية فأطباء الكلبة وأما أربعة فأخلاف الناقة وأما اثنتان فثديا المرأة فخطبها إلى أبيها فزوجه إياها وشرطت هي عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال فجعل لها ذلك وأن يسوق إليها مائة من الإبل وعشرة أعبد وعشر وصائف وثلاثة أفراس ففعل ذلك ثم إنه بعث عبدا له إلى المرأة وأهدى إليها نحيا من سمن ونحيا من عسل وحلة من عصب فنزل العبد ببعض المياه فنشر الحلة ولبسها فتعلقت بعشرة فانشقت وفتح النحيين فطعم أهل الماء منهما فنقصا ثم قدم على حي المرأة وهم خلوف فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ودفع إليها هديتها فقالت له أعلم مولاك أن أبي ذهب يقرب بعيدا ويبعد قريبا وأن أمي ذهبت تشق النفس نفسين وأن أخي يراعي الشمس وأن سماءكم انشقت وأن وعاءيكم نضبا فقدم الغلام على مولاه فأخبره فقال أما قولها إن أبي ذهب يقرب بعيدا ويبعد قريبا فإن أباها ذهب يحالف قوما على قومه وأما قولها ذهبت أمي تشق النفس نفسين فإن أمها

ذهبت تقبل امرأة نفساء وأما قولها إن أخي يراعي الشمس فإن أخاها في سرح له يرعاه فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح به وأما قولها إن سماءكم انشقت فإن البرد الذي بعثت به انشق وأما قولها إن وعاءيكم نضبا فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا فاصدقني فقال يا مولاي إني نزلت بماء من مياه العرب فسألوني عن نسبي فأخبرتهم أني ابن عمك ونشرت الحلة فانشقت وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل الماء فقال أولى لك ثم ساق مائة من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام فنزلا منزلا فخرج الغلام يسقي الإبل فعجز فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلام في البئر وخرج حتى أتى المرأة بالإبل وأخبرهم أنه زوجها فقيل لها قد جاء زوجك فقالت والله ما أدري أزوجي هو أم لا ولكن انحروا له جزورا وأطعموه من كرشها وذنبها ففعلوا فقالت اسقوه لبنا حازرا وهو الحامض فسقوه فشرب فقالت افرشوا له عند الفرث والدم ففرشوا له فنام فلما أصبحت أرسلت إليه إني أريد أن أسألك فقال سلي عما شئت فقالت مم تختلج شفتاك قال لتقبيلي إياك قالت فمم يختلج كشحاك قال لالتزامي إياك قالت فمم يختلج فخذاك قال لتوركي إياك قالت عليكم العبد فشدوا أيديكم به ففعلوا قال ومر قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر فرجع إلى حيه فاستاق مائة من الإبل وأقبل إلى امرأته فقيل لها قد جاء زوجك فقالت والله ما أدري أهو زوجي أم لا ولكن انحروا له جزورا فأطعموه من كرشها وذنبها ففعلوا فلما أتوه بذلك قال وأين الكبد والسنام والملحاء فأبى أن يأكل فقالت اسقوه لبنا حازرا فأبى أن يشربه وقال فأين الصريف والرثيئة فقالت أفرشوا له عند الفرث والدم فأبى أن ينام وقال افرشوا لي فوق التلعة الحمراء واضربوا عليها خباء ثم أرسلت إليه هلم شريطتي عليك في المسائل الثلاث فأرسل إليها أن سلي عما شئت فقالت مم تختلج شفتاك قال لشربي المشعشعات قالت فمم يختلج كشحاك قال للبسي الحبرات قالت فمم تختلج فخذاك قال لركضي المطهمات

فقالت هذا زوجي لعمري فعليكم به واقتلوا العبد فقتلوه ودخل امرؤ القيس بالجارية فقال ابن هبيرة حسبكم فلا خير في الحديث في سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو ولن تأتينا بأعجب منه فقمنا وانصرفنا وأمر لي بجائزة.

مفاوضات امرئ القيس وقبائل أسد

نسخت من كتاب جدي يحيى بن مُحَمَّد بن ثوابة بخطه رحمه الله حدثني الحسن بن سعيد عن أبي عبيدة قال أخبرني سيبويه النحوي أن الخليل بن أحمد أخبره قال قدم على امرئ القيس بن حجر بعد مقتل أبيه رجال من قبائل بني أسد كهول وشبان فيهم المهاجر بن خداش ابن عم عبيد بن الأبرص وقبيصة بن نعيم وكان في بني أسد مقيما وكان ذا بصيرة بمواقع الأمور وردا وإصدارا يعرف ذلك له من كان محيطا بأكناف بلده من العرب فلما علم بمكانهم أمر بإنزالهم وتقدم بإكرامهم والإفضال عليهم واحتجب عنهم ثلاثا فسألوا من حضرهم من رجال كندة فقال هو في شغل بإخراج ما في خزائن حجر من السلاح والعدة فقالوا اللهم غفرا إنما قدمنا في أمر نتناسى به ذكر ما سلف ونستدرك به ما فرط فليبلغ ذلك عنا فخرج عليهم في قباء وخف وعمامة سوداء وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا في الترات فلما نظروا إليه قاموا له وبدر إليه قبيصة إنك في المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه وتتنقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ولا تذكرة مجرب ولك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ورجوع عن هفوة ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح في الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزيته نزارا واليمن ولم تخصص كندة بذلك دوننا للشرف البارع كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشيم ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كراعنا على مثله ببذل ذلك

ولفديناه منه ولكن مضى به سبيل لا يرجع أولاه على أخراه ولا يلحق أقصاه أدناه فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال إما أن اخترت من بني أسد أشرافها بيتا وأعلاها في بناء المكرمات صوتا فقدناه إليك بنسعه تذهب مع شفرات حسامك قصدته فيقول رجل امتحن بهلك عزيز فلم تستل سخيمته إلا بتمكينه من الانتقام أو فداء بما يروح من بني أسد من نعمها فهي ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها لم يردده تسليط الإحن على البرءاء وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل فنسدل الأزر ونعقد الخمر فوق الرايات قال فبكى ساعة ثم رفع رأسه فقال لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم وإني لن أعتاض به جملا أو ناقة فأكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها ولن أكون لعطبها سببا وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقا وفوق الأسنة علقا:

إذا جالـــت الخيـــل في مـــأزِقٍ تُصـــافِح فيـــه المنـــايا النفوســـا

أتقيمون أم تنصرفون قالوا بل ننصرف بأسوأ الاختيار وأبلى الاجترار لمكروه وأذية وحرب وبلية ثم نهضوا عنه وقبيصة يقول متمثلا:

لعلك أن تستوخم الموتَ إن غدتْ كتائبُنـــا في مـــأزِق المـــوت تَمْطُـــرُ

فقال امرؤ القيس لا والله لا أستوخمه فرويدا ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ولقد كان ذكر غير هذا أولى بي إذ كنت نازلا بربعي ولكنك قلت فأجبت فقال قبيصة ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب قال امرؤ القيس فهو ذاك.

١٩

ذكر قيس بن ذريح ونسبه وأخباره

هو فيما ذكر الكلبي والقحذمي وغيرهما قيس بن ذريح بن سنة ابن حذافة بن طريف بن عتوارة بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة وهو علي ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار وذكر أبو شراعة القيسي أنه قيس بن ذريح بن الحباب بن سنة وسائر النسب متفق واحتج بقول قيس:

فإنْ يكُ تَهْيامِي بلُبْنَى غَوايةً ... فقد يا ذَرِيحُ بنَ الحُبَابِ غَوَيْتُ

وذكر القحذمي أن أمه بنت سنة بن الذاهل بن عامر الخزاعي وهذا هو الصحيح وأنه كان له خال يقال له عمرو بن سنة شاعر وهو الذي يقول:

ضربوا الفِيلَ بالمغمَّس حتى ... ظَلَّ يحبو كأنه محمومُ

وفيه يقول قيس:

أُنبئتُ أن لخالي هَجْمةً حُبُساً ... كأنّهن بجَنْبِ المَشْعَرِ النُّصُلُ

قد كنتَ فيما مضى قِدْماً تجاورُنا ... لا ناقةُ لك ترعاها ولا جملُ

ما ضَرَّ خاليَ عمراً لو تقَسَّمها ... بعضُ الحياض وجَمُّ البئر مُحْتفِل

أخبرني الحسن بن علي قال حدثني مُحَمَّد بن موسى بن حماد قال حدثني أحمد بن القاسم بن يوسف قال حدثني جزء بن قطن قال حدثنا جساس بن مُحَمَّد بن عمرو أحد بني الحارث بن كعب عن مُحَمَّد بن أبي السري عن هشام بن الكلبي قال حدثني عدد من الكنانيين أن قيس بن ذريح كان رضيع الحسين بن علي بن

أبي طالب رضي الله عنهما أرضعته أم قيس.

قصته مع لبنى

أخبرني بخبر قيس ولبنى امرأته جماعة من مشايخنا في قصص متصلة ومنقطعة وأخبار منثورة ومنظومة فألفت ذلك أجمع ليتسق حديثه إلا ما جاء مفردا وعسر إخراجه عن جملة النظم فذكرته على حدة فممن أخبرنا بخبره أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبة ولم يتجاوزه إلى غيره وإبراهيم بن مُحَّد بن أيوب عن ابن قتيبة والحسن بن علي عن مُحَّد بن موسى بن حماد البربري عن أحمد بن القاسم بن يوسف عن جزء بن قطن عن جساس بن مُحَّد عن مُحَّد بن أبي السري عن هشام بن الكلبي وعلى روايته أكثر المعول ونسخت أيضا من أخباره المنظومة أشياء ذكرها القحذمي عن رجاله وخالد بن كلثوم عن نفسه ومن روى عنه وخالد بن جمل ونتفا حكاها اليوسفي صاحب الرسائل عن أبيه عن أحمد بن حماد عن جميل عن ابن أبي جناح الكعبي وحكيت كل متفق فيه متصلا وكل مختلف في معانيه منسوبا إلى راوية قالوا جميعا.

كان منزل قومه في ظاهر المدينة وكان هو وأبوه من حاضرة المدينة وذكر خالد بن كلثوم أن منزله كان بسرف واحتج بقوله:

الحمد لله قد أمستْ مُجَاوِرةً ... أهلَ العَقيق وأمسَيْنا على سَرِفِ

قالوا فمر قيس لبعض حاجته بخيام بني كعب بن خزاعة فوقف على خيمة منها والحي خلوف والخيمة خيمة لبنى بنت الحباب الكعبية فاستسقى ماء فسقته وخرجت إليه به وكانت امرأة مديدة القامة شهلاء حلوة المنظر والكلام فلما رآها وقعت في نفسه وشرب الماء فقالت له أتنزل فتتبرد عندنا قال نعم فنزل بهم وجاء أبوها فنحر له وأكرمه فانصرف قيس وفي قلبه من لبنى حر لا

يطفأ فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع وروي ثم أتاها يوما آخر وقد اشتد وجده بها فسلم فظهرت له وردت سلامه وتحفت به فشكا إليها ما يجد بها وما يلقى من حبها وشكت إليه مثل ذلك فأطالت وعرف كل واحد منهما ما له عند صاحبه فانصرف إلى أبيه وأعلمه حاله وسأله أن يزوجه إياها فأبى عليه وقال يا بني عليك بإحدى بنات عمك فهن أحق بك وكان ذريح كثير المال موسرا فأحب ألا يخرج ابنه إلى غريبة فانصرف قيس وقد ساءه ما خاطبه أبوه به فأتى أمه فشكا ذلك إليها واستعان بها على أبيه فلم يجد عندها ما يحب فأتى الحسين بن علي بن أبي طالب وابن أبي عتيق فشكا إليهما ما به وما رد عليه أبوه فقال له الحسين أنا أكفيك فمشى معه إلى أبي لبنى فلما بصر به أعظمه ووثب إليه وقال له يابن رسول الله ما جاء بك ألا بعثت إلي فأتيتك قال إن الذي جئت فيه يوجب قصدك وقد جئتك خاطبا ابنتك لبنى لقيس بن ذريح فقال يابن رسول الله ما كنا لنعصي لك أمرا وما بنا على الفتى رغبة ولكن أحب الأمر إلينا أن يخطبها ذريح أبوه علينا وأن يكون ذلك عن أمره فإنا نخاف إن لم يسع أبوه في هذا أن يكون عارا وسبة علينا فأتى الحسين ﷺ ذريحا وقومه وهم مجتمعون فقاموا إليه إعظاما له وقالوا له مثل قول الخزاعيين فقال لذريح أقسمت عليك إلا خطبت لبنى لابنك قيس قال السمع والطاعة لأمرك فخرج معه في وجوه من قومه حتى أتوا لبنى فخطبها ذريح على ابنه إلى أبيها فزوجه إياها وزفت إليه بعد ذلك فأقامت معه مدة لا ينكر أحد من صاحبه شيئا وكان أبر الناس بأمه فألهته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك فوجدت أمه في نفسها وقالت لقد شغلت هذه المرأة ابني عن بري ولم تر للكلام في ذلك موضعا حتى مرض مرضا شديدا فلما برأ من علته قالت أمه لأبيه لقد خشيت أن يموت قيس وما يترك خلفا وقد حرم الولد من هذه المرأة وأنت ذو مال فيصير مالك إلى الكلالة فزوجه بغيرها لعل الله أن يرزقه ولدا وألحت عليه في ذلك نفأمهل

قيسا حتى إذا اجتمع قومه دعاه فقال يا قيس إنك اعتللت هذه العلة فخفت عليك ولا ولد لك ولا لي سواك وهذه المرأة ليست بولود فتزوج إحدى بنات عمك لعل الله أن يهب لك ولدا تقر به عينك وأعيننا فقال قيس لست متزوجا غيرها أبدا فقال له أبوه فإن في مالي سعة فتسر بالإماء قال ولا أسوءها بشيء أبدا والله قال أبوه فإني أقسم عليك إلا طلقتها فأبى وقال الموت والله علي أسهل من ذلك ولكني أخيرك خصلة من ثلاث خصال قال وما هي قال تتزوج أنت فلعل الله أن يرزقك ولدا غيري قال فما في فضلة لذلك قال فدعني أرتحل عنك بأهلي واصنع ما كنت صانعا لو مت في علتي هذه قال ولا هذه قال فأدع لبنى عندك وأرتحل عنك فلعلي أسلوها فإني ما أحب بعد أن تكون نفسي طيبة أنها في خيالي قال لا أرض أو تطلقها وحلف لا يكنه سقف بيت أبدا حتى يطلق لبنى فكان يخرج فيقف في حر الشمس ويجيء قيس فيقف إلى جانبه فيظله بردائه ويصلى هو بحر الشمس حتى يفيء الفيء فينصرف عنه ويدخل إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكي وتبكي معه وتقول له يا قيس لا تطع أباك فتهلك وتهلكني فيقول ما كنت لأطيع أحدا فيك أبدا فيقال إنه مكث كذلك سنة وقال خالد بن كلثوم ذكر ابن عائشة أنه أقام على ذلك أربعين يوما ثم طلقها وهذا ليس بصحيح

طلاقه لبنى ثم ندمه.

أخبرني عمر بن أبي سفيان عن ليث بن عمرو أنه سمع قيس بن ذريح يقول لزيد بن سليمان هجرني أبواي في لبنى عشر سنين أستأذن عليهما فيردانني حتى طلقتها قال ابن جريج وأخبرت أن عبد الله بن صفوان الطويل لقي ذريحا أبا قيس فقال له ما حملك على أن فرقت بينهما أما علمت أن عمر بن الخطاب قال ما أبالي أفرقت بينهما أو مشيت إليهما بالسيف وروى هذا الحديث

إبراهيم بن يسار الرمادي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال قال الحسين بن علي رضي الله عنهما لذريح بن سنة أبي قيس أحل لك أن فرقت بين قيس ولبنى أما إني سمعت عمر بن الخطاب يقول ما أبالي أفرقت بين الرجل وامرأته أو مشيت إليهما بالسيف قالوا فلما بانت لبنى بطلاقه إياها وفرغ من الكلام لم يلبث حتى استطير عقله وذهب به ولحقه مثل الجنون وتذكر لبنى وحالها معه فأسف وجعل يبكي وينشج أحر نشيج وبلغها الخبر فأرسلت إلى أبيها ليحتملها وقيل بل أقامت حتى انقضت عدتها وقيس يدخل عليها فأقبل أبوها بهودج على ناقة وبإبل تحمل أثاثها فلما رأى ذلك قيس أقبل على جاريتها فقال ويحك ما دهاني فيكم فقال لا تسألني وسل لبنى فذهب ليلم بخبائها فيسألها فمنعه قومها فأقبلت عليه امرأة من قومه فقالت له ما لك ويحك تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل هذه لبنى ترتحل الليلة أو غدا فسقط مغشيا عليه لا يعقل ثم أفاق وهو يقول:

وإنّي لَمُفْنٍ دمعَ عيْنيَ بالبكا ... حِذَارَ الذي قد كان أو هو كائنُ

وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلةٍ ... فراقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهو بائن

وما كنتُ أخشى أن تكون منيّتي ... بكفَّيْكِ إلاّ أنّ ما حان حائن

زوجوه لينسى لبنى

وقال خالد بن جمل فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعله أن يسلو بها عن لبنى فدعاه إلى ذلك فأباه وقال:

لقد خِفتُ ألاّ تَقْنَع النفسُ بعدها ... بشيءٍ من الدنيا وإن كان مَقْنَعا

وأزجُر عنها النفس إذ حيل دونها ... وتأبَى إليها النفسُ إلاّ تَطلُّعا

فأعلمهم أبوه بما رد عليه قالوا فمره بالمسير في أحياء العرب والنزول عليهم فلعل عينه أن تقع على امرأة تعجبه فأقسم عليه أبوه أن يفعل فسار حتى نزل بحي من فزارة فرأى جارية حسناء قد حسرت برقع خز عن وجهها وهي كالبدر ليلة تمه فقال لها ما اسمك يا جارية قالت لبنى فسقط على وجهه مغشيا عليه فنضحت على وجهه ماء وارتاعت لما عراه ثم قالت إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لمجنون فأفاق فنسبته فانتسب فقالت قد علمت أنك قيس ولكن نشدتك بالله وبحق لبنى إلا أصبت من طعامنا وقدمت إليه طعاما فأصاب منه بإصبعه وركب فأتى على أثره أخ لها كان غائبا فرأى مناخ ناقته فسألهم عنه فأخبروه فركب حتى رده إلى منزله وحلف عليه ليقيمن عنده شهرا فقال له لقد شققت علي ولكني سأتبع هواك والفزاري يزداد إعجابا بحديثه وعقله وروايته فعرض عليه الصهر فقال له يا هذا إن فيك لرغبة ولكني في شغل لا ينتفع بي معه فلم يزل يعاوده والحي يلومونه ويقولون له قد خشينا أن يصير علينا فعلك سبة فقال دعوني ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام فلم يزل به حتى أجابه وعقد الصهر بينه وبينه على أخته المسماة لبنى وقال له أنا أسوق عنك صداقها فقال أنا والله يا أخي أكثر قومي مالا فما حاجتك إلى تكلف هذا أنا سائر إلى قومي وسائق إليها المهر ففعل وأعلم أباه الذي كان منه فسره وساق المهر عنه ورجع إلى الفزاريين حتى أدخلت عليه زوجته فلم يروه هش إليها ولا دنا منها ولا خاطبها بحرف ولا نظر إليها وأقام على ذلك أياما كثيرة ثم أعلمهم أنه يريد الخروج إلى قومه أياما فأذنوا له في ذلك فمضى لوجهه إلى المدينة وكان له صديق من الأنصار بها فأتاه فأعلمه الأنصاري أن خبر تزويجه بلغ لبنى فغمها وقالت إنه لغدار ولقد كنت أمتنع من إجابة قومي إلى التزويج فأنا الآن أجيبهم وقد كان أبوها شكا قيسا إلى معاوية وأعلمه تعرضه لها بعد الطلاق فكتب إلى مروان بن الحكم يهدر دمه إن تعرض لها وأمر أباها أن يزوجها بخالد بن حلزة

من بني عبد الله بن غطفان ويقال بل أمره بتزويجها رجلا من آل كثير بن الصلت الكندي حليف قريش فزوجها أبوها منه قال فجعل نساء الحي يقلن ليلة زفافها:

لُبَيْنَى زوجُها أصبح ... لا حرَّ بِواديه

له فضلٌ على الناس ... بما باتت تُناجيه

وقيسٌ ميّتٌ حيٌّ ... صريعٌ في بَواكيه

فلا يُبعِدُه الله ... وبُعْداً لنَواعيه

قال فجزع قيس جزعا شديدا وجعل ينشج أحر نشيج ويبكي أحر بكاء ثم ركب من فوره حتى أتى محلة قومها فناداه النساء ما تصنع الآن ها هنا قد نقلت لبنى إلى زوجها وجعل الفتيان يعارضونه بهذه المقالة وما أشبهها وهو لا يجيبهم حتى أتى موضع خبائها فنزل عن راحلته وجعل يتمعك في موضعها ويمرغ خده على ترابها ويبكي أحر بكاء ثم قال:

إلى الله أشكو فَقْدَ لُبنى كما شكا ... إلى الله فقدَ الوالدَيْنِ يتيمُ

يتيمٌ جفاه الأقربون فجسمُه ... نَحيلٌ وعهدُ الوالدَيْن قديمُ

بكت دارُهم من نأيهم فتهلّلتْ ... دموعي فأيَّ الجازِعَيْنِ ألوم

أمُستعبِراً يبكي من الشوق والهوى ... أَمَ آخَر يبكي شَجْوَه ويَهِيم

أبو لبنى يشكوه إلى معاوية

وقال ابن قتيبة في خبره عن الهيثم بن عدي ورواه عمر بن شبة أيضا أن أبا لبنى شخص إلى معاوية فشكا إليه قيسا وتعرضه لابنته بعد طلاقه إياها فكتب

معاوية إلى مروان أو سعيد بن العاص يهدر دمه إن ألم بها وأن يشتد في لك فكتب مروان أو سعيد في ذلك إلى صاحب الماء الذي ينزله أبو لبنى كتابا وكيدا ووجهت لبنى رسولا قاصدا إلى قيس تعلمه ما جرى وتحذره وبلغ أباه الخبر فعاتبه وتجهمه وقال له انتهى بك الأمر إلى أن يهدر السلطان دمك فقال:

فــإن يَحْجُبوهــا أو يَحُــلْ دون وصــلها ... مقالـــــةُ واشٍ أو وَعيــــــدُ أمـــــير

فلــن يمنعــوا عيــنيَّ مــن دائــم البُكــا ... ولـن يُـذهبوا مـا قـد أَجَـنَّ ضـميري

إلى الله أشــكو مــا أُلاَقِــي مــن الهــوى ... ومــــن حُـــــرَقٍ تعتـــــادني وزَفـــير

ومـن حَـرَقٍ للحـبّ في باطـن الحشـى ... وليــلٍ طويــلِ الحــزن غــيرِ قصــير

ســأبكي علــى نفســي بعــينٍ غزيــرةٍ ... بكـــاءَ حَـــزينٍ في الـــوَثاق أســـير

وكنَّــا جميعــاً قبــل أن يظهــر الهــوى ... بأَنْعَــــمِ حــــالَيْ غِبْطَـــةٍ وســـرور

فمــا بــرِح الواشــون حــتى بَــدَتْ لهــم ... بطـــونُ الهـــوى مقلوبـــةً لظهـــور

لقد كنتِ حَسْبَ النفس لو دام وصلُنا ... ولكنَّمـــا الـــدنيا متـــاعُ غـــرور

قصته مع لبنى وزوجها

قال ثم أتى قومه فاقتطع قطعة من إبله وأعلم أباه أنه يريد المدينة ليبيعها ويمتار لأهله بثمنها فعرف أبوه أنه إنما يريد لبنى فعاتبه وزجره عن ذلك فلم يقبل منه وأخذ إبله وقدم بها المدينة فبينا هو يعرضها إذ ساومه زوج لبنى بناقة منها وهما لا يتعارفان فباعه إياها فقال له إذا كان غد فأتني في دار كثير بن الصلت فاقبض الثمن قال نعم ومضى زوج لبنى إليها فقال لها إني ابتعت ناقة من رجل من أهل البادية وهو يأتينا غدا لقبض ثمنها فأعدي له طعاما ففعلت

فلما كان من الغد جاء قيس فصوت بالخادم قولي لسيدك صاحب الناقة بالباب فعرفت لبنى نغمته فلم تقل شيئا فقال زوجها للخادم قولي له ادخل فدخل فجلس فقالت لبنى للخادم قولي له يا فتى مالي أراك أشعث أغبر فقالت له ذلك فتنفس ثم قال لها هكذا تكون حال من فارق الأحبة واختار الموت على الحياة وبكى فقالت لها لبنى قولي له حدثنا حديثك فلما ابتدأ يحدث به كشفت الحجاب وقالت حسبك قد عرفنا حديثك وأسبلت الحجاب فبهت ساعة لا يتكلم ثم انفجر باكيا ونهض فخرج فناداه زوجها ويحك ما قصتك ارجع اقبض ثمن ناقتك وإن شئت زدناك فلم يكلمه وخرج فاغترز في رحله ومضى وقالت لبنى لزوجها ويحك هذا قيس بن ذريح فما حملك على ما فعلت به قال ما عرفته وجعل قيس يبكي في طريقه ويندب نفسه ويوبخها على فعله ثم قال:

أتبكـي علـى لُبْـنَى وأنـت تركتَهـا ... وأنـت عليهـا بالمَـلاَ أنـت أقـدَرُ

فـإن تكـن الـدنيا بلُبْـنَى تقلَّبـتْ ... علـيَّ فلِلـدنيا بطـونٌ وأَظْهُـر

لقـد كـان فيهـا للأمانـة موضـعٌ ... وللكَـفِّ مُـرتَادٌ وللعيـن مَنْظَـر

وللحـائم العطشـانِ رِيٌّ بريقِهـا ... وللمَـرِح المختـالِ خمـرٌ ومُسْـكِرُ

كـأنّي لهـا أُرْجوحـةٌ بـين أَحْبُـلِ ... إذا ذُكْـرةٌ منهـا علـى القلـب تَخْطُـر

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني عبد الملك بن عبد العزيز قال تزوج رجل من أهل المدينة يقال له أبو درة امرأة كانت قبله عند رجل آخر من أهل المدينة يقال له أبو بطينة فلقيه زوجها الأول فضربه ضربة شلت يده منها فلقيه أبو السائب المخزومي فقال له يا ابا درة أضربك أبو بطينة في زوجته قال نعم قال أما إني أشهد أنها ليست كما قال قيس بن ذريح في زوجته لبنى:

لقــد كــان فيهــا للأمانــة موضــعٌ وللكَــفِّ مُــرْتَادٌ وللعــين مَنْظَــرُ

وللحــائم العطشــان رِيٌّ بريقهــا وللمَــرِحِ المختــال خمــر ومُسْــكِرِ

قال وكانت زوجة أبي درة هذه سوداء كأنها خنفساء.

مرض قيس

قال وعاد إلى قومه بعد رؤيته إياها وقد أنكر نفسه وأسف ولحقه أمر عظيم فأنكروه وسألوه عن حاله فلم يخبرهم ومرض مرضا شديدا أشرف منه على الموت فدخل إليه أبوه ورجال قومه فكلموه وعاتبوه وناشدوه الله فقال ويحكم أتروني أمرضت نفسي أو وجدت لها سلوة بعد اليأس فاخترت الهم والبلاء أو لي في ذلك صنع هذا ما اختاره لي أبواي وقتلاني به فجعل أبوه يبكي ويدعو له بالفرج والسلوة فقال قيس:

لقــد عــذَّبتَني يا حــبَّ لُبْــنَى فقَــعْ إمّــا بمــوتٍ أو حيــاةِ

فــإنّ المــوت أَرْوحُ مــن حيــاةٍ تــدوم علــى التباعــد والشَّــتات

وقــال الأقربــون تَعَــزَّ عنهــا فقلــت لهــم إذاً حانــت وفــاتي

قال ودست إليه لبنى بعد خروجه رسولا وقالت له استنشده فإن سألك عن نسبتك فانتسب له خزاعيا فإذا أنشدك فقل له لم تزوجت بعدها حتى أجابت إلى أن تتزوج بعدك واحفظ ما يقول لك حتى ترده علي فأتاه الرسول فسلم وانتسب خزاعيا وذكر أنه من أهل الشَام واستنشده فأنشده قوله:

فأقْسِــم مــا عُمْــشُ العيــونِ شــوارِفٌ روائــمُ بَــوٍّ حانيــاتٌ علــى سَــقْبِ

وقد مضت هذه الأبيات فقال له الرجل فلم تزوجت بعدها فأخبره الخبر

وحلف له أن عينه ما اكتحلت بالمرأة التي تزوجها وأنه لو رآها في نسوة ما عرفها وأنه ما مد يده إليها ولا كلمها ولا كشف لها عن ثوب فقال له الرجل فإني جار لها وإنها من الوجد بك على حال قد تمنى زوجها معها أن تكون بقربها لتصلح حالها بك فحملني إليها ماشئت أؤده إليها قال:

تعـــــود إلي إذا أردت الرحيـــــل
فعـــاد إليـــه لمـــا أراد الرحيـــل

فقال تقول لها:

أَلاَ حـيِّ لُبْـنَى اليـومَ إن كنـتَ غـاديَا
وأَلِـمْ بهـا مـن قبـلِ أنْ لا تَلاَقِيَـا

وأَهْـدِ لهـا منـك النصـيحةَ إنهـا
قليـلٌ ولا تَخْـشَ الوُشـاةَ الأدانيـا

وقـل إنّـني والراقصـاتِ إلى مِـنىً
بأَجْبُـل جَمْـعٍ ينتظـرنَ المنـاديا

أصـونُكِ عـن بعـض الأمـور مَضَـنَّةً
وأخشَـى عليـكِ الكاشحين الأعـاديا

تَسَـاقطُ نفسـي حـين ألقـاكِ أنفُسـاً
يَـرِدْنَ فمـا يَصْـدُرْنَ إلا صَـوَادِيا

فـإنْ أَحْـيَ أو أهلِـكْ فلسـتُ بزائـلٍ
لكـم حافظـاً مـا بَـلَّ ريـقٌ لسـانيا

أقول إذا نفسي من الوَجْد أَصْعدتْ
بها زَفْـرةٌ تعتـادني هـي مـا هيـا

وبـين الحَشَـى والنحـرِ مـنّي حـرارةٌ
ولوعـةُ وجـدٍ تـترك القلـب سـاهيا

ألاَ ليـت لُبْـنَى لم تكـن ليَ خُلَّـةً
ولم تَـرَني لُبْـنى ولم أدرِ مـا هيـا

سَـلِي النـاسَ هـل خـبَّرتُ سرَّكِ منهمُ
أخـا ثقـةٍ أو ظـاهرَ الغِـشِّ باديا

يقـول ليَ الواشـون لمّـا تَظـاهروا
عليـكِ وأَضْـحَى الحبـلُ للبـين واهيـا

لعَمْـري لقبـلَ اليـوم حُمِّلـتَ مـا تَـرى — وأُنْـذِرتَ من لُبْـنَى الـذي كنتَ لاقيـا

خليلـيَّ مـالي قـد بَليـتُ ولا أَرَى — لُبَيْـنَى علـى الهِجْـران إلاّ كمـا هيـا

ألاَ يا غـرابَ البَـيْن مالـكَ كلَّمـا — ذكـرتُ لُبَيْـنَى طِـرْتَ لي عـن شِماليـا

أعنـدكَ علـمُ الغيـبِ أم لستَ مُخْبِرِي — عـن الحـيّ إلا بالـذي قـد بـدا ليـا

جَزِعـتُ عليهـا لـو أَرى ليَ مَجْزَعـاً — وأفنيـتُ دمـعَ العـين لـو كـان فانيـا

حياتَـك لا تُغْلَـبْ عليهـا فإنـه — كفَـى بالـذي تَلْقَـى لنفسِـك ناهيـا

تَمـرّ الليـالي والشـهور ولا أَرَى — وَلُـوعِي بهـا يـزداد إلاّ تمـاديا

فمـا عـن نَـوالٍ مـن لُبَيْـنَى زيارتي — ولا قِلّـةُ الإلمـام أَن كنـتُ قاليـا

ولكنّهـا صَـدَّتْ وحُمِّلـتُ مـن هـوىً — لهـا مـا يَـؤود الشـامخاتِ الرواسـيا

وهذه القصيدة تخلط بقصيدة المجنون التي في وزنها وعلى قافيتها لتشابههما فقلما يتميزان.

بريكة تجمعهما سرا

وقال الحرمازي وخالد بن جمل كانت امرأة من موالي بني زهرة يقال لها بريكة من أظرف النساء وأكرمهن وكان لها زوج من قريش له دار ضيافة فلما طالت علة قيس قال له أبوه إني لأعلم أن شفاءك في القرب من لبنى فارحل إلى المدينة فرحل إليها حتى أتى دار الضيافة التي لزوج بريكة فوثب غلمانه إلى رحل قيس ليحطوه فقال لا تفعلوا فلست نازلا أو ألقى بريكة فإني قصدتها في حاجة فإن وجدت لها عندها موضعا نزلت بكم وإلا رحلت فأتوها فأخبروها فخرجت إليه فسلمت عليه ورحبت به وقالت حاجتك مقضية كائنة ما كانت فانزل ودنا

منها فقال أذكر حاجتي قالت إن شئت قال أنا قيس بن ذريح قالت حياك الله وقربك إن ذكرك لجديد عندنا في كل وقت قال وحاجتي أن أرى لبنى نظرة واحدة كيف شئت قالت ذلك لك علي فنزل بهم وأقام عندها وأخفت أمره ثم أهدى لها هدايا كثيرة وقال لاطفيها وزوجها بهذا حتى يأنس بك ففعلت وزارتها مرارا ثم قالت لزوجها أخبرني عنك أنت خير من زوجي قال لا قالت فلبنى خير مني قال لا قالت فما بالي أزورها ولا تزورني قال ذلك إليها فأتتها وسألتها الزيارة وأعلمتها أن قيسا عندها فتسارعت إلى ذلك وأتتها فلما رآها ورأته بكيا حتى كادا يتلفان ثم جعلت تسأله عن خبره وعلته فيخبرها ويسألها فتخبره وقال الحرمازي في خبره عاتبته على تزوجه فحلف أنه لم ينظر إليها ملء عينيه ولا دنا منها فصدقته وقال فلم يزل يومه معها يحدثها ويشكو إليها أعف شكوى وأكرم حديث حتى أمسى فانصرفت ووعدته الرجوع إليه من غد فلم ترجع وشاع خبره فلم ترسل إليه رسولا.

يزيد يرق لحاله

ثم ارتحل إلى معاوية فدخل إلى يزيد فشكا ما به إليه وامتدحه فرق له وقال سل ما شئت إن شئت أن أكتب إلى زوجها فأحتم عليه أن يطلقها فعلت قال لا أريد ذلك ولكن أحب أن أقيم بحيث تقيم من البلاد أتعرف أخبارها وأقنع بذلك من غير أن يهدر دمي قال لو سألت هذا من غير أن ترحل إلينا فيه لما وجب أن تمنعه فأقم حيث شئت وأخذ كتاب أبيه له بأن يقيم حيث شاء وأحب ولا يعترض عليه أحد وأزال ما كان كتب به في إهدار دمه فقدم إلى بلده وبلغ الفزاريين خبره وإلمامه بلبنى فكاتبوه في ذلك وعاتبوه فقال للرسول قل للفتى يعني أخا الجارية التي تزوجها يا أخي ما غررتك من نفسي ولقد أعلمتك أني مشغول عن كل أحد وقد جعلت أمر أختك إليك فأمض فيه من حكمك ما

رأيت فتكرم الفتى عن أن يفرق بينهما فمكثت في حباله مدة ثم ماتت.

نهاية قيس ولبنى

وقد اختلف في آخر أمر قيس ولبنى فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على افتراقهما فمنهم من قال إنه مات قبلها وبلغها ذلك فماتت أسفا عليه ومنهم من قال بل ماتت قبله ومات بعدها أسفا عليها وممن ذكر ذلك اليوسفي عن علي بن صالح صاحب المصلى قال قال لي أبو عمرو المدني ماتت لبنى فخرج قيس ومعه جماعة من أهله فوقف على قبرها فقال:

ماتــــت لُبَيْـــنَى فموتُهـــا مَـــوْتِي　　　هــل تــنفعَنْ حَسْــرتي علــى الفَــوْتِ

وســـوف أبكـــي بكـــاءَ مكتئـــبٍ　　　قضـــى حيـــاةً وَجْـــداً علـــى مَيْـــت

ثم أكب على القبر يبكي حتى أغمي عليه فرفعه أهله إلى منزله وهو لا يعقل فلم يزل عليلا لا يفيق ولا يجيب مكلما ثلاثا حتى مات فدفن إلى جنبها.

٢٠

أخبار الطرماح ونسبه

هو الطرماح بن حكيم بن الحكم بن نفر بن قيس بن جحدر بن ثعلبة بن عبد رضا بن مالك بن أمان بن عمرو بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ ويكنى أبا نفر وأبا ضبينة والطرماح الطويل القامة وقيل إنه كان يلقب الطراح أخبرني بذلك أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثني علي بن محمد النوفلي عن أبيه قال كان الطرماح بن حكيم يلقب الطراح لقوله:

أَلاَ أيُّهــا اللَّيــلُ الطويــلُ ألاَّ ارْتَــحِ　　　بصُــبْحٍ ومــا الإِصــباحُ منــكَ بأَرْوَحِ

بَلَــى إنّ للعينــين في الصُّــبْحِ راحــةً　　　بِطَرْحِهِمــا طَرْفَيْهِمــا كــلَّ مَطْــرَحِ

والطرماح من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم ومنشؤه بالشأم وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك مع من وردها من جيوش أهل الشأم واعتقد مذهب الشراة الأزارقة.

أخبرني إسماعيل بن يونس قال حدثنا عمر بن شبة عن المدائني عن أبي بكر الهذلي قال قدم الطرماح بن حكيم الكوفة فنزل في تيم اللات بن ثعلبة وكان فيهم شيخ من الشراة له سمت وهيئة وكان الطرماح يجالسه ويسمع منه فرسخ كلامه في قلبه ودعاه الشيخ إلى مذهبه فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحه حتى مات عليه أخبرني ابن دريد قال حدثنا عبد الرحمن بن أخي الأصمعي عن عمه قال قال رؤبة كان الطرماح والكميت يصيران إلي فيسألاني عن الغريب فأخبرهما به فأراه بعد في أشعارهما.

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبة وأخبرنا إبراهيم بن أيوب قال حدثنا ابن قتيبة قالا كان الكميت بن زيد صديقا للطرماح لا يكادان يفترقان في حال من أحوالهما فقيل للكميت لا شيء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماح على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلد هو شآمي قحطاني شاري وأنت كوفي نزاري شيعي فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية اتفقنا على بغض العامة.. قال وأنشد الكميت قول الطرماح:

إذا قُبِضَت نفسُ الطِّرِمَّاحِ أَخْلقتْ عُرَى المَجْدِ واسْتَرْخَى عِنانُ القصائدِ

فقال إي والله وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة وقال عمر بن شبة والسماحة مكان الشجاعة.

نسخت من كتاب جدي لأمي يحيى بن مُحَمَّد بن ثوابة رحمه الله تعالى بخطه قال حدثني الحسن بن سعيد عن مُحَمَّد بن حبيب عن ابن الأعرابي قال وفد الطرماح بن حكيم والكميت بن زيد على مخلد بن يزيد المهلبي فجلس لهما ودعاهما فتقدم الطرماح لينشد فقال له أنشدنا قائما فقال كلا والله ما قدر الشعر أن أقوم له فيحط مني وأحط منه بضراعتي وهو عمود الفخر وبيت الذكر لمآثر العرب قيل له فتنح ودعي بالكميت فأنشد قائما فأمر له بخمسين ألف درهم فلما خرج الكميت شاطرها الطرماح وقال له أنت أبا ضبينة أبعد همة وأنا ألطف حيلة وكان الطرماح يكنى أبا نفر وأبا ضبينة.

ونسخت من كتابه ﷺ أخبرني الحسن بن سعيد قال أخبرني ابن علاق قال أخبرني شيخ لنا أن خالد بن كلثوم أخبره قال بينا أنا في مسجد الكوفة أريد الطرماح والكميت وهما جالسان بقرب باب الفيل إذ رأيت أعرابيا قد جاء يسحب أهداما له حتى إذا توسط المسجد خر ساجدا ثم رمى ببصره فرأى

الكميت والطرماح فقصدهما فقلت من هذا الحائن الذي وقع بين هذين الأسدين وعجبت من سجدته في غير موضع سجود وغير وقت صلاة فقصدته ثم سلمت عليهم ثم جلست أمامهم فالتفت إلى الكميت فقال أسمعني شيئا يا أبا المستهل فأنشده قوله (أبتْ هذِهِ النَّفْسُ إلاَّ أدِّكَارَا ...) حتى أتى على آخرها فقال له أحسنت والله يا أبا المستهلِّ في ترقيص هذه القوافي ونظم عقدها ثم التفت إلى الطرماح فقال أسمعني شيئا يا أبا ضبينة فأنشده كلمته التي يقول فيها:

أســـاءكَ تقـــويضُ الخَلـــيطِ المُبَـــاينِ نَعـــم والنَّـــوَى قَطَّاعـــةٌ للقَـــرَائنِ

فقال لله در هذا الكلام ما أحسن إجابته لرويتك إن كدت لأطيل لك حسدا ثم قال الأعرابي والله لقد قلت بعدكما ثلاثة أشعار أما أحدها فكدت أطير به في السماء فرحا وأما الثاني فكدت أدعي به الخلافة وأما الثالث فرأيت رقصانا استفزني به الجذل حتى أتيت عليه قالوا فهات فأنشدهم قوله:

أأنْ تَوَهَّمْـــتَ مـــنْ خَرْقـــاءَ منزلـــةً مـــاءُ الصَّـــبابةِ مـــن عينيـــك مســـجومُ

حتى إذا بلغ قوله:

تَنْجُـــو إذا جَعَلـــتْ تَـــدْمَى أخِشَّـــتُها وابْتَـــلَّ بالزَّبَـــدِ الجَعْـــدِ الخَـــرَاطِيمُ

قال أعلمتم أني في طلب هذا البيت منذ سنة فما ظفرت به إلا آنفا وأحسبكم قد رأيتم السجدة له ثم أسمعهم قوله

ما بالُ عينِك منها الماءُ يَنْسَكِبُ ...

ثم أنشدهم كلمته الأخرى التي يقول فيها:

إذا اللَّيْـــلُ عـــن نَشْـــرٍ تجلـــى رَمَيْنَـــهُ بأمثـــالِ أبصـــارِ النّســـاء الفَـــوَارِكِ

قال فضرب الكميت بيده على صدر الطرماح ثم قال هذه والله الديباج لانسجي ونسجك الكرابيس فقال الطرماح لن أقول ذلك وإن أقررتُ بجودته فقطب ذو الرمة وقال يا طرماح أأنت تحسن أن تقول:

وكـائنْ تَخَطَّـتْ ناقـتي مـن مَفَـازةٍ إليـكَ ومِـنْ أحـواضِ مـاءٍ مُسَـدَّمِ

بإعْقـارِهِ القِـرْدانُ هَـزْلَى كأنَّهـا نَـوَادرُ صِيصـاء الهَبِيـد المُحَطَّـمِ

فأصغى الطرماح إلى الكميت وقال له فانظر ما أخذ من ثواب هذا الشعر قال وهذه قصيدة مدح بها ذو الرمة عبد الملك فلم يمدحه فيها ولا ذكره إلا بهذين البيتين وسائرها في ناقته فلما قدم على عبد الملك بها أنشده إياها فقال له ما مدحت بهذه القصيدة إلا ناقتك فخذ منها الثواب وكان ذو الرمة غير محظوظ من المديح قال فلم يفهم ذو الرمة قول الطرماح للكميت فقال له الكميت إنه ذو الرمة وله فضله فأعتبه فقال له الطرماح معذرة إليك إن عنان الشعر لفي كفك فارجع معتبا وأقول فيك كما قال أبو المستهل.

أصحابه يفاجأون بنعشه

أخبرني إسماعيل بن يونس قال أخبرنا عمر بن شبة قال حدثني المدائني قال حدثني ابن دأب عن ابن شبرمة وأخبرني مُحَمَّد بن القاسم الأنباري قال أخبرني أبي قال حدثني الحسن بن عبد الرحمن الربعي قال حدثني مُحَمَّد بن عمران قال حدثني إبراهيم بن سوار الضبي قال حدثني مُحَمَّد بن زياد القرشي عن ابن شبرمة قال كان الطرماح لنا جليسا ففقدناه أياما كثيرة فقمنا بأجمعنا لننظر ما فعل وما دهاه فلما كنا قريبا من منزله إذا نحن بنعش عليه مطرف أخضر فقلنا لمن هذا النعش فقيل هذا نعش الطرماح فقلنا والله ما استجاب الله له حيث يقول:

وإني لَمُقْتـادٌ جَـوادِي وقـاذِفٌ بـه وبنَفْسِـي العـامَ إحـدى المَقَـاذِف

لأَكسِـــبَ مـــالاً أو أؤولَ إلى غـــنًى مـــنَ اللهِ يَكْفِيـــني عِـــدَاتِ الخَلاَئِـــفِ

فَيـارَبِّ إنْ حانَـتْ وفـاتي فـلا تَكُـنْ على شَـرْجَعٍ يُعْلَـى بخُضْـرِ المَطـارِفِ

ولكـــنّ قَـــبْرِي بطـــنُ نَسْـــر مَقِيلُـــه بجَـــوّ الســـماء في نُســـورٍ عَوَاكِـــف

وأمْســـي شـــهيداً ثاوياً في عِصَـــابةٍ يُصـابُون في فِـجٍّ مـن الأرض خـائِفِ

فَـــوَارِسُ مـــن شَـــيْبانَ أَلَّـــفَ بيـــنُهمْ تُقَـــى الله نَزّالـــونَ عنـــد التَّزَاحُـــفِ

إذا فـــارقوا دُنيـــاهُمُ فـــارقوا الأذَى وصـــارو إلى مِيعـــاد مـــا في المَصَـــاحِفِ

٢١

أخبار أم البنين

حجت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان فقالت لكثير ووضاح انسبابي فأما وضاح فنسب بها وأما كثير فنسب بجاريتها غاضرة حيث يقول:

شـــجا أَظعـــانُ غاضِـــرةَ الغـــوادِي بغــــير مشــــورة عرضـــاً فـــؤادِي

قال وكانت زوجة الوليد بن عبد الملك فقتل وضاحا ولم يجد على كثير سبيلا

أخبرني الحرميّ قال حدثنا الزبير قال حدثني إبراهيم بن مُحَّد بن عبد العزيز الزهري عن محرز بن جعفر عن أبيه عن بديح قال قدمت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهي عند الوليد بن عبد الملك حاجة والوليد إذ ذاك خليفة فأرسلت إلى كثير ووضاح أن نسبا بي فنسب وضاح بها ونسب كثير بجاريتها غاضرة في شعره الذي يقول فيه:

(شجا أظعانُ غاضرة الغوادي ...)

قال وكان معها جوار قد فتن الناس بالوضاءة

قال بديح فلقيت عبيد الله بن قيس الرقيات فقلت له بمن نسبت من هذا القطين فقال لي:

مـــــا تصـــــنعُ بالشـــــرِّ إذا لم تـــــك مجنـــــونا

إذا قاســـيت ثِقْـــل الشـــرِّ حَسَّـــــــاكَ الأمرِّينـــــــا

وقـــد هِجـــتَ بمـــا قـــد قُلْـــتَ   أمـــــــراً كـــــــان مـــــــدفونا

قال بديح ثم أخذ بيدي فخلا بي وقال لي يا بديح احفظ عني ما أقول لك فإنك موضع أمانة وأنشدني:

أصـــــحوتَ عـــــن أمّ البنـــــين   وذِكرِهـــــــــا وعَنائهـــــــــا

وهجرتَهـــــا هجـــــرَ امـــــرئٍ   لم يَقْـــــلِ حمـــــلَ إخائهـــــا

مـــــن خيفـــــةِ الأعـــــداء أن   يُوهُـــــــوا أديمَ صـــــــفائها

قُرشِـــــيّة كالشَّـــــمس أشـــــرقَ   نورُهـــــــــا ببهائهـــــــــا

زادت علـــــى البِـــــيض الحســـــانِ   بحســـــــــنِها ونقائهـــــــــا

لمـــــا اســـــبكرّت للشَّـــــباب   وقُنّعِـــــــت بردائِهـــــــا

لم تلتفِـــــــت لِلـــــــداها   ومضـــــت علـــــى غُلوَائهـــــا

غنى ابن عائشة في الثلاثة الأبيات الأول لحنا من الثقيل الأول عن الهشامي عن يحيى المكي وفي الرابع وما بعده لحنين أحدهما ثاني ثقيل بالبنصر والآخر خفيف ثقيل بالبنصر عن ابنه وغيره وغنى إبراهيم الموصلي في الأربعة الأول لحنا آخر من الثقيل الأول وهو اللحن الذي فيه استهلال وذكر الهشامي أن الثقيل الثاني لابن محرز قال فقتل الوليد وضاحا ولم يجد علىكثير سبيلا قال وحجت بعد ذلك وقد تقدم الوليد إليها وإلى من معها في الحجاب فلقيني ابن قيس حيث خرجت ولم تكلم أحدا ولم يرها فقال لي يا بديح.

أخبرني الحسين وابن أبي الأزهر عن حماد عن أبيه عن المدائني أن عبد الملك لما وهب لابن جعفر جرم عبيد الله بن قيس الرقيات وأمنه ثم تواثب أهل الشام ليقتلوه قال يا أمير المؤمنين أتفعل هذا بي وأنا الذي أقول:

اسمــــــع أمــــــير المــــــؤمنين لِمــــــــــــدحتي وثنائِهـــــــــا

أنـــت ابــــن مُعْـــتلَج البِطـــاحِ كُـــــــــــدَيّها وكَـــــــــــدائها

ولِـــــــبَطْن عائشـــــــة الـــــــتي فضَـــــــــلَت أرومَ نســـــــائها

فلما أنشد هذا البيت قال له عبد الملك قل ولنسل عائشة قال لا بل ولبطن عائشة حتى رد ذلك عليه ثلاث مرات وهو يأبى إلا ولبطن عائشة فقال له عبد الملك اسحنفر الآن قال وعائشة أم عبد الملك بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس هذه رواية الزبير بن بكار.

السائب بن حكيم ومحاورته غاضرة

وقد حدثنا به في خبر كثير مع غاضرة هذه بغير هذا مُحَمَّد بن العباس اليزيدي قال حدثنا مُحَمَّد بن حبيب عن هشام بن الكلبي وأخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن ابن الكلبي عن أبي عبد الرحمن الأنصاري عن السائب بن حكيم السدوسي راوية كثير قال والله إني لأسير يوما مع كثير حتى إذا كنا ببطن جدار جبل من المدينة على أميال إذ أنا بأمراة في رحالة متنقبة معها عبيد لها يسعون معها فمرت جنابي فسلمت ثم قالت ممن الرجل قلت من أهل الحجاز قالت فهل تروي لكثير شيئا قلت نعم قالت أما والله ما كان بالمدينة من شيء هو أحب إلي من أن أرى كثيرا وأسمع شعره فهل تروي قصيدته:

أهاجك برقٌ آخِرَ الليلِ واصِبُ ...

قلت نعم فأنشدتها إياها إلى آخرها قالت فهل تروي قوله:

كأنـــك لم تســـمعْ ولم تـــر قبلهـــا تَفــــرُّقَ أُلاّف لهـــــنّ حنـــــينُ

قلت نعم وأنشدتها قالت فهل تروي قوله أيضا:

لعزةَ من أيام ذي الغُصْن شاقني ...

قلت نعم وأنشدتها إلى آخرها قالت فهل تروي قوله أيضا:

أأطلالَ سُعدَى باللوى تَتَعَّهد ...

قلت نعم وأنشدتها حتى أتيت على قوله:

فلـم أر مثـلَ العـين ضـنّت بمائهـا   علـيّ ولا مثلـي علـى الـدمع يَحسُـدُ

قالت قاتله الله فهل قال مثل قول كثير أحد على الأرض والله لأن أكون رأيت كثيرا أو سمعت منه شعره أحب إلي من مائة ألف درهم قال فقلت هو ذاك الراكب أمامك وأنا السائب راويته قالت حياك الله تعالى ثم ركضت بغلتها حتى أدركته فقالت أنت كثير قال ما لك ويلك فقالت أنت الذي تقول:

إذا حُسـرتْ عنـه العِمامـة راعهـا   جميـلُ المحَيَّـا أغفلتْـه الـدواهِن

والله ما رأيت عربيا قط أقبح ولا أحقر ولا ألأم منك قال أنت والله أقبح مني وألأم قالت له أو لست القائل:

تَـراهنّ إلا أن يـؤَدِّين نظـرةً   بمـؤْخِر عـينٍ أو يُقلِّـبن معصَـما

كـواظِمَ مـا يـنطِقْن إلا مَحُـورة   رجِيعـةَ قـولٍ بعـد أن يُتَفَهَّمـا

يحـاذرْن مـني غَـيْرةً قـد عرفْنهـا   قـديماً فمـا يضـحكْن إلا تبسُّـما

لعن الله من يفرق منك قال بل لعنك الله قالت أولست الذي تقول:

إذا ضـمْريَّةٌ عَطَسـت فنِكهـا   فـإن عُطاسَـها طـرَفُ الـودَاقِ

قال من أنت قالت لا يضرك أن لم تعرفني ولا من أنا قال والله إني لأراك

لئيمة الأصل والعشيرة قالت حياك الله يا أبا صخر ما كان بالمدينة رجل أحب إلي وجها ولا لقاء منك قال لا حياك الله والله ما كان على الأرض أحد أبغض إلي وجها منك قالت أتعرفني قال أعرف أنك لئيمة من اللئام فتعرفت إليه فإذا هي غاضرة أم ولد لبشر بن مروان قال وسايرها حتى سندنا في الجبل من قبل زرود فقالت له يا أبا صخر.

أضمن لك مائة ألف درهم عند بشر بن مروان إن قدمت عليه قال أفي سبك إياي أو سبي إياك تضمنين لي هذا والله لا أخرج إلى العراق على هذه الحال فلما قامت تودعه سفرت فإذا هي أحسن من رأيت من أهل الدنيا وجها فأمرت له بعشرة آلاف درهم فبعد شد ما قبلها وأمرت لي بخمسة آلاف درهم فلما ولوا قال يا سائب أين نعني أنفسنا إلى عكرمة انطلق بنا نأكل هذه حتى يأتينا الموت قال وذلك قوله لما فارقتنا.

شـــجا أظعـــان غاضِـــرةَ الغـــوادي بغـــير مشِـــيئةٍ عرضـــاً فـــؤادي

وقد روى الزبير أيضا في خبر هذه المرأة غير هذا وخالف المعاني.

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني سليمان بن عياش السعدي قال كان كثير يلقى حاج المدينة من قريش بقديد في كل سنة فغفل عاما من الأعوام عن يومهم الذي نزلوا فيه قديدا حتى ارتفع النهار ثم ركب جملا ثقالا واستقبل الشمس في يوم صائف فجاء قديدا وقد كل وتعب فوجدهم قد راحوا وتخلف فتى من قريش معه راحلته حتى يبرد قال الفتى القرشي فجلس كثير إلى جنبي ولم يسلم علي فجاءت امرأة وسيمة جميلة فجلست إلى خيمة من خيام قديد واستقبلت كثيرا فقالت أأنت كثير قال نعم قالت ابن أبي جمعة قال نعم قالت الذي يقول:

لعزّة أطلالٌ أبت أن تَكلَّما ...

قال نعم قالت وأنت الذي تقول فيها:

وكنتُ إذا ما جِئتُ أجللْن مجلسي وأظهرْن منّي هَيْبةً لا تجهُّما

فقال نعم قالت أعلى هذا الوجه هيبة إن كنت كاذبا فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فضجر وقال من أنت فلم تجبه بشيء فسأل المولیات اللواتي في الخباء بقديد عنها فلم يخبرنه شيئا فضجر واختلط فلماسكن من شأوه قالت أأنت الذي تقول:

متى تَحسِروا عنّي العِمامة تُبْصروا جميل المُحيَّا أغلفته الدواهن

أهذا الوجه جميل المحيا إن كنت كاذبا فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فاختلط وقال والله ما عرفتك ولو عرفتك لفعلت وفعلت فسكتت فلما سكن من شأوه قالت أأنت الذي تقول (يروق العيون الناظراتِ كأنه ... هِرَقلِيٌّ وزنٍ أحمرُ التّبر راجحُ) أهذا الوجه يروق العيون الناظرات إن كنت كاذبا فعليك لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين فازداد ضجرا وغيظا واختلاطا وقال لها قد عرفتك والله لأقطعنك وقومك بالهجاء ثم قام فالتفت في أثره ثم رجعت طرفي نحو المرأة فإذا هي قد ذهبت فقلت لمولاة من مولياتها بقديد لك الله علي إن أخبرتني من هذه المرأة لأطوين لك ثوبي هذين إذا قضيت حجي ثم أعطيكهما فقالت والله لو أعطيتني زنتهما ذهبا ما أخبرتك من هي هذا كثير وهو مولاي قد سألني عنها فلم أخبره قال الفتى القرشي فرحت والله وبي أشد مما بكثير قال سليمان وكان كثير دميما قليلا أحمر أقيشر عظيم الهامة قبيحا.

٢٢
أخبار عبد الرحمن بن الحكم ونسبه

وهو عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وأمه أم أخيه مروان آمنة بنت صفوان بن أمية بن محرث بن شق ابن رقبة بن مخدج من بني كنانة ويكنى عبد الرحمن أبا مطرف شاعر إسلامي متوسط الحال في شعراء زمانه وكان يهاجي عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت فيقاومه وينتصف كل واحد منهما من صاحبه.

عتابه لمعاوية بعد قدومه عليه

وأخبرني به عمي عن الكراني عن العمري قال قدم عبد الرحمن بن الحكم على معاوية بن أبي سفيان وقد عزل أخاه مروان عن الحجاز وولى سعيد بن العاص وكان مروان وجه به وقال له القه أمامي فعاتبه لي واستصلحه وقال عمي في خبره كان عبد الرحمن بدمشق فلما بلغه خبر أخيه خرج إليه فتلقاه وقال له أقم حتى أدخل إلى الرجل فإن كان عزلك عن موجدة دخلت إليه منفردا وإن كان عن غير موجدة دخلت إليه مع الناس قال فأقام مروان ومضى عبد الرحمن أمامه فلما قدم عليه دخل إليه وهو يعشي الناس فأنشأ يقول:

أتتــك العِــيسُ تــنفُحُ في بُرَاهــا ... تَكَشَّــفُ عــن مناكبهــا القُطُــوع

بأبــيضَ مــن أمَيَّــة مَضْــرِحِيٍّ ... كــأنَّ جبينَــه سَــيفٌ صــنيعُ

– وافر –

فقال معاوية أزائرا جئت أم مفاخرا أم مكاثرا فقال أي ذلك شئت فقال له ما أشاء من ذلك شيئا وأراد معاوية أن يقطعه عن كلامه الذي عن له فقال على أي الظهر أتيتنا قال على فرسي قال وما صفته قال أجش هزيم يعرض بقول النجاشي له:

ونجَّى ابنَ حَرْبٍ سابحٌ ذو عُلالة أجَشُّ هزيمٌ والرماحُ دَوانِي

إذا خِلْتَ أطرافَ الرِّماح تنالُه مَرَتْه به السَّاقانِ والقدمانِ

– طويل –

فغضب معاوية وقال أما إنه لا يركبه صاحبه في الظلم إلى الريب ولا هو ممن يتسور على جاراته ولا يتوثب على كنائنه بعد هجعة الناس وكان عبد الرحمن يتهم بذلك في امرأة أخيه فخجل عبد الرحمن وقال يا أمير المؤمنين ما حملك على عزل ابن عمك ألجناية أوجبت سخطا أم لرأي رأيته وتدبير استصلحته قال لتدبير استصلحته قال فلا بأس بذلك وخرج من عنده فلقي أخاه مروان فأخبره بما جرى بينه وبين معاوية فاستشاط غيظا وقال لعبد الرحمن قبحك الله ما أضعفك أعرضت للرجل بما أغضبه حتى إذا انتصف منك أحجمت عنه ثم لبس حلته وركب فرسه وتقلد سيفه ودخل على معاوية فقال له حين رآه وتبين الغضب في وجهه مرحبا بأبي عبد الملك لقد زرتنا عند اشتياق منا إليك قال لاها الله ما زرتك لذلك ولا قدمت عليك فألفيتك إلا عاقا قاطعا والله ما أنصفتنا ولا جزيتنا جزاءنا لقد كانت السابقة من بني عبد شمس لآل أبي العاص والصهر برسول الله لهم والخلافة فيهم فوصلوكم يا بني حرب وشرفوكم وولوكم فما عزلوكم ولا آثروا عليكم حتى إذا وليتم وأفضى الأمر إليكم أبيتم إلا أثرة وسوء صنيعة وقبح قطيعة فرويدا رويدا قد بلغ بنو الحكم وبنو بنيه نيفا

وعشرين وإنما هي أيام قلائل حتى يكملوا أربعين ويعلم امرؤ أين يكون منهم حينئذ ثم هم للجزاء بالحسنى وبالسوء بالمرصاد.

قال عمي في خبره فقال له معاوية عزلتك لثلاث لو لم يكن منهن إلا واحدة لأوجبت عزلك إحداهن إني أمرتك على عبد الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفي منه والثانية كراهتك لأمر زياد والثالثة أن ابنتي رملة استعدتك على زوجها عمرو بن عثمان فلم تعدها فقال له مروان أما ابن عامر فإني لا أنتصر في سلطاني ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موقعه وأما كراهتي أمر زياد فإن سائر بني أمية كرهوه ثم جعل الله لنا في ذلك الكره خيرا كثيرا وأما استعداء رملة على عمرو فوالله إني لتأتي علي سنة أو أكثر وعندي بنت عثمان فما أكشف لها ثوبا يعرض بأن رملة إنما تستعدي عليه طلبا للنكاح فقال له معاوية يا بن الوزغ لست هناك.

فقال له مروان هو ذاك الآن والله إني لأبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وقد كاد ولدي أن يكملوا العدة يعني أربعين ولو قد بلغوها لعلمت أين تقع مني فانخزل معاوية ثم قال:

فــــإن أَكُ في شــــرارِكُمُ قلـــيلاً فــــإنّي في خيـــــاركُمُ كثـــــيرُ
بُغـــاثُ الطَّـــير أكثرُهـــا فِراخـــاً وأمُّ الصَّـــــقرِ مِقْـــــلاتٌ نــــزورُ

قال فما فرغ مروان من كلامه حتى استخذى معاوية في يده وخضع له وقال لك العتبي وأنا رادك إلى عملك فوثب مروان وقال له كلا والله وعيشك لا رأيتني عائدا إليه أبدا وخرج فقال الأحنف لمعاوية ما رأيت لك قط سقطة مثلها ما هذا الخضوع لمروان وأي شيء يكون منه ومن بني أبيه إذا بلغوا أربعين وأي شيء تخشاه منهم فقال له أدن مني أخبرك بذلك فدنا منه فقال له إن

الحكم بن أبي العاص كان أحد من وفد مع أختي أم حبيبة لما زفت إلى النبي وهو الذي تولى نقلها إليه فجعل رسول الله يحد النظر إليه فلما خرج من عنده قيل له يا رسول الله لقد أحددت النظر إلى الحكم فقال ابن المخزومية ذلك رجل إذا بلغ ولده ثلاثين أو قال أربعين ملكوا الأمر بعدي فوالله لقد تلقاها مروان من عين صافية فقال له الأحنف لا يسمعن هذا أحد منك فإنك تضع من قدرك وقدر ولدك بعدك وإن يقض الله عز و جل أمرا يكن فقال له معاوية فاكتمها علي يا أبا بحر إذاً فقد لعمري صدقت ونصحت.

أخبرني إسماعيل بن يونس الشيعي قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثني يعقوب بن القاسم الطلحي قال حدثني ثمال عن أيوب بن درباس ابن دجاجة قال شخص مروان بن الحكم ومعه أخوه عبد الرحمن إلى معاوية ثم ذكر نحوا من الحديث الأول ولم يذكر فيه مخاطبة معاوية في أمرهم للأحنف وزاد فيه فقال عبد الرحمن في ذلك:

أَتَقطُــر آفــاقُ الســـماءِ لـــه دمـــاً إذا قيـل هـذا الطَّـرْفُ أَجْـرَدُ سـابحُ

فحــتَّى مــتَّى لا نَرفــع الطَّــرْفَ ذِلَّــةً وحــتَّى مــتى تَعْيــا عليــك المنــادِح

– طويل –

بكاؤه حين رأى رأس الحسين

أخبرني عمي قال حدثنا عبد الله بن أبي سعيد قال كان عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي عند يزيد بن معاوية وقد بعث إليه عبيد الله بن زياد برأس الحسين بن علي عليهما السلام فلما وضع بين يدي يزيد في الطشت بكى عبد الرحمن ثم قال:

أبلــغْ أمــيرَ المــؤمنين فــلا تكُــنْ كَمُــوْتِرٍ أقــواسٍ ولــيس لهــا نَبْــل

لَهَــامٌ بجنــب الطَّــفِّ أدنى قرابــةً مِـن ابـن زيادِ الوغْـدِ ذي الحسـب الرَّذْل

سُمَيّـةُ أمسَـى نسـلُها عَـدَدَ الحصـى وبنــتُ رســولِ اللّه لــيس لهــا نَسْــلُ

فصاح به يزيد اسكت يا ابن الحمقاء وما أنت وهذا.

أخبرني إسماعيل بن يونس الشيعي قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثني هارون بن معروف قال حدثنا بشر بن السري قال حدثنا عمر بن سعيد عن أبي مليكة قال رأيتهم يعني بني أمية يتتايعون نحو ابن عباس حين نفى ابن الزبير بني أمية عن الحجاز فذهبت معهم وأنا غلام فلقينا رجلا خارجا من عنده فدخلنا عليه فقال له عبيد بن عمير مالي أراك تذرف عيناك فقال له إن هذا يعني عبد الرحمن بن الحكم قال بيتا أبكاني وهو:

وما كنت أخشَى أن تَرى الذُّلَّ نِسْوتي وعَبْــدُ مُنــافٍ لم تَغُلْهــا الغوائــلُ

فذكر قرابة بيننا وبين بني عمنا بني أمية وإنا إنما كنا أهل بيت واحد في الجاهلية حتى جاء الإسلام فدخل الشيطان بيننا أيما دخل.

غضب معاوية عليه

أخبرني عمي قال حدثنا الكراني قال حدثنا الخليل بن أسد عن العمري ولم أسمعه من العمري عن الهيثم بن عدي قال لما ادعى معاوية زيادا قال عبد الرحمن بن الحكم في ذلك والناس ينسبونها إلى ابن مفرغ لكثرة هجائه إلى زياد وذلك غلط قال:

ألا أَبْلــغ معاويــةَ بــنَ حــربٍ مُغَلغَلــةً مــن الرجُــل الهِجــانِ

أتغضبُ أن يقالَ أبوك عفٌّ — وترضَى أن يقالَ أبوك زانِ

فأشهَدُ أنَّ رِحْمَكَ من زِيادٍ — كرِحْمِ الفيلِ من وَلَدِ الأتانِ

وأشهدُ أنَّها ولَدَتْ زِياداً — وصخرٌ من سُمَيَّةَ غيرُ دانِي

– وافر –

فبلغ ذلك معاوية بن حرب فحلف ألا يرضى عن عبد الرحمن حتى يرضى عنه زياد فخرج عبد الرحمن إلى زياد فلما دخل عليه قال له إيه يا عبد الرحمن أنت القائل:

ألا أبلِغْ معاويةَ بنَ حربٍ — مُغَلغَلةً من الرجُل الهِجانِ

قال لا أيها الأمير ما هكذا قلت ولكني قلت:

ألا من مُبْلغٌ عني زِياداً — مُغَلغَلةً من الرّجُلِ الهجان

مِن ابن القَرْم قَرْم بني قُصَيّ — أبي العاصي بنِ آمنةَ الحَصانِ

حلفْتُ بربِّ مكّةَ والمصلَّى — وبالتَّوراة أحلفُ والقُرانِ

لأنت زيادةٌ في آل حرب — أحبُّ إليَّ من وُسْطَى بنانِي

فرضي عنه زياد وكتب له بذلك إلى معاوية فلما دخل عليه بالكتاب قال أنشدني ما قلت لزياد فأنشده فتبسم ثم قال قبح الله زيادا ما أجهله والله لما قلت له أخيرا حيث تقول:

لأَنْتَ زيادةٌ في آل حرب ...

شر من القول الأول ولكنك خدعته فجازت خديعتك عليه.

أخبرني مُحَمَّد بن الحسن بن دريد قال حدثنا أبو حاتم عن أبي عبيدة قال لطم عبد الرحمن بن الحكم مولى لأهل المدينة حناطا وأخوه مروان يومئذ وال لأهل المدينة فاستعداه الحناط عليه فأجلسه مروان بين يديه وقال له الطمه وهو أخو مروان لأبيه وأمه فقال الحناط والله ما أردت هذا وإنما أردت أن أعلمه أن فوقه سلطانا ينصرني عليه وقد وهبتها لك قال لست أقبلها منك فخذ حقك فقال والله لا ألطمه ولكني أهبها لك فقال له مروان إن كنت ترى أن ذلك يسخطني فوالله لا أسخط فخذ حقك فقال قد وهبتها لك ولست والله لا طمه قال لست والله قابلها فإن وهبتها فهبها لمن لطمك أو لله عز وعلا فقال قد وهبتها لله تعالى فقال عبد الرحمن يهجو أخاه مروان:

كُــلُّ ابــنِ أمٍ زائــدٌ غــير ناقــصٍ وأنــت ابــنُ أمٍّ ناقــصٌ غــير زائــدِ

وهبْــتُ نصــيبي منــك يامــرْوَ كلَّــه لعَمْــروٍ وعثمــانَ الطّويــلِ وخالِــدِ

– طويل –

رثاؤه لقتلى قريش يوم الجمل

أخبرني هاشم بن مُحَمَّد أبو دلف الخزاعي قال حدثنا أبو غسان دماذ عن أبي عبيدة قال نظر عبد الرحمن بن الحكم إلى قتلى قريش يوم الجمل فبكى وأنشأ يقول:

أيا عــينُ جُــودِي بــدَمْعٍ سَــرَبْ علــى فِتيــةٍ مــن خِيــار العــربْ

ومــا ضَــرَّهم غــيرَ حَــيْنِ النّفــوس أيُّ أمــــيريْ قــــريشٍ غَلَــــبْ

أخبرني إسماعيل بن يونس قال عرض معاوية على عبد الرحمن بن الحكم خيله فمر به فرس فقال له كيف تراه فقال هذا سابح ثم عرض عليه آخر فقال

هذا ذو علالة ثم مر به آخر فقال وهذا أجش هزيم فقال له معاوية قد علمت ما أردت إنما عرضت بقول النجاشي في:

ونجّـى ابـنَ حَـرْبٍ سـابحٌ ذو عُلالـةٍ   أجـــشُّ هَـــزيمٌ والرمـــاحُ دوانِي

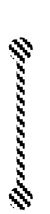
سَليمُ الشَّظى عَبْلُ الشَّوَى شَنِجُ النَّسا   كَسِـيدِ الغَضَـى باقٍ علـى النَّسَـلانِ

أخرج عني فلا تساكني في بلد فلقي عبد الرحمن أخاه مروان فشكا إليه معاوية وقال له عبد الرحمن وحتى متى نستذل ونضام فقال له مروان هذا عملك بنفسك فأنشأ يقول:

أتَقطُـرُ آفـاقُ السَّـماءِ لنـا دمـاً   إذا قُلْـتُ هـذا الطِّرْفُ أجْـرَدُ سـابحُ

فحـتِّ مـتى لا نَرفـع الطّـرْفَ ذِلّـةً   وحَـتَّ مـتى تَعيـا عليـك المنـادح

فدخل مروان على معاوية فقال له مروان حتى متى هذا الاستخفاف بآل أبي العاصي أما والله إنك لتعلم قول النبي وآله فينا ولقل ما بقي من الأجل فضحك معاوية وقال لقد عفوت لك عنه يا أبا عبد الملك والله أعلم بالصواب.



٢٣
أخبار قيس بن عاصم ونسبه

هو قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن مقاعس واسم مقاعس الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ويكنى أبا علي وأمه أم أصعر بنت خليفة بن جرول بن منقر وهو شاعر فارس شجاع حليم كثير الغارات مظفر في غزواته أدرك الجاهلية والإسلام فساد فيهما وهو أحد من وأد بناته في الجاهلية وأسلم وحسن إسلامه وأتى النبي وصحبه في حياته وعمر بعده زمانا وروى عنه عدة أحاديث.

وأد كل بناته في الجاهلية

أخبرني عمي الحسن بن مُحَمَّد قال وفد قيس بن عاصم على رسول الله فسأله بعض الأنصار عما يتحدث به عنه من الموءودات التي وأدهن من بناته فأخبر أنه ما ولدت له بنت قط إلا وأدها ثم أقبل على رسول الله يحدثه فقال له كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة في البنات فما ولدت لي بنت قط إلا وأدتها وما رحمت منهم موءودة قط إلا بنية لي ولدتها أمها وأنا في سفر فدفعتها أمها إلى أخوالها فكانت فيهم وقدمت فسألت عن الحمل فأخبرتني المرأة أنها ولداً ميتا ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت فزارت أمها ذات يوم فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها وجعلت في قرونها شيئا من خلوق ونظمت عليها ودعا وألبستها قلادة جزع وجعلت في عنقها مخنقة بلح فقلت من هذه الصبية فقد أعجبني جمالها وكيسها فبكت ثم قالت هذه ابنتك كنت خبرتك أني

ولدت ولدا ميتا وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ فأمسكت عنها حتى اشتغلت عنها ثم أخرجتها يوما فحفرت لها حفيرة فجعلتها فيها وهي تقول يا أبت ما تصنع بي وجعلت أقذف عليها التراب وهي تقول يا أبت أمغطي أنت بالتراب أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني وجعلت أقذف عليها التراب ذلك حتى واريتها وانقطع صوتها فما رحمت أحدا ممن واريته غيرها فدمعت عينا النبي ثم قال إن هذه لقسوة وإن من لا يرحم لا يرحم.

قال أحمد بن الهيثم قال عمي فحدثني عبد الله بن الأهتم أن سبب وأد قيس بناته أن المشمرج اليشكري أغار على بني سعد فسبى منهم نساء واستاق أموالا وكان في النساء امرأة خالها قيس بن عاصم وهي رميم بنت أحمر بن جندل السعدي وأمها أخت قيس فرحل قيس إليهم يسألهم أن يهبوها له أو يفدوها فوجد عمرو بن المشمرج قد اصطفاها لنفسه فسأله فيها فقال قد جعلت أمرها إليها فإن اختارتك فخذها فخيرت فاختارت عمرو بن المشمرج فانصرف قيس فوأد كل بنت وجعل ذلك سنة في كل بنت تولد له واقتدت به العرب في ذلك فكان كل سيد يولد له بنت يئدها خوفا من الفضيحة.

خبره مع زوجه منفوسة

أخبرني مُحَمَّد بن الحسن بن دريد قال حدثني عمي عن العباس بن هشام عن أبيه عن جده قال تزوج قيس بن عاصم المنقري منفوسة بنت زيد الفوارس الضبي وأتته في الليلة الثانية من بنائه بها بطعام فقال فأين أكيلي فلم تعلم ما يريد فأنشأ يقول:

أيابْنَـــةَ عبـــدِ اللهِ وابنَـــةَ مالِـــكٍ ويابْنَـةَ ذي البُـرْدَيْنِ والفَـرَسِ الـوَرْدِ

إذا مـا صَـنَعْتِ الـزادَ فالتمسِـي لـه أكِـيلاً فـإنّي لسـتُ آكِلَـهُ وَحْـدِي

أخـاً طارقـاً أو جـارَ بيـتٍ فـإنَّني　　　أخاف مَلاَماتِ الأحاديثِ مِنْ بَعْدِي

وَإِنِّي لعبـدُ الضَّـيْفِ مـن غـيرِ ذِلَّـةٍ　　　ومـا بِيَ إلاَّ تلـك مـن شِـيَمِ العَبْـدِ

قال فأرسلت جارية لها مليحة فطلبت له أكيلا وأنشأت تقول له:

أَبَى المَـرْءُ قَـيْسٌ أن يـذوقَ طَعَامَـهُ　　　بغـيرِ أَكِيـلٍ إنَّـهُ لَكَـرِيمُ

فَبُورِكْـتَ حَيّاً يا أَخَـا الجُـودِ والنَّـدَى　　　وبُورِكْـتَ مَيْتـاً قـد حَوَتْـكَ رُجـومُ

ضرب المثل بحلمه

أخبرني مُحَمَّد بن أحمد بن العباس العسكري قال حدثنا الحسن بن عليل العنزي قال حدثني دماذ عن أبي عبيدة قال قال الأحنف ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقري فقيل له وكيف ذلك يا ابا بحر فقال قتل ابن أخ له ابنا له فأتي بابن أخيه مكتوفا يقاد إليه فقال ذعرتم الفتى ثم أقبل عليه فقال يا بني نقصت عددك وأوهيت ركنك وفتت في عضدك وأشمت عدوك وأسأت بقومك خلوا سبيله واحملوا إلى أم المقتول ديته قال فانصرف القاتل وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه؟

خبره مع تاجر خمار

أخبرني مُحَمَّد بن الحسن بن دريد قال حدثنا أبو حاتم عن أبي حاتم قال جاور داري كان يتجر في أرض العرب قيس بن عاصم فشرب قيس ليلة حتى سكر فربط الداري وأخذ ماله وشرب من شرابه فازداد سكرا وجعل من السكر يتطاول ويثاور النجوم ليبلغها وليتناول القمر وقال:

وتاجِـرٍ فـاجِرٍ جـاءَ الإلـهُ بِـهِ　　　كـأن عُثْنونَـه أذنابُ أَجْمـالِ

ثم قسم صدقة النبي في قومه وقال:

ألاَ أَبْلِغَــا عَـــنِّي قُرَيْشــاً رســالَةً إذا مــا أتَــتْهُم مُهْــدِيَاتُ الوَدَائِــعِ

حَبَـوْتُ بمـا صَـدَّقْتُ في العـامِ مِنْقَـراً وأيأســتْ منهــا كــلَّ أَطلــسَ طـامِعِ

قال فلما فعل بالداري ما فعل وسكر جعل ماله نهبى فلم تزل امرأته تسكنه حتى نام فلما أصبح أخبر بما كان منه فآلى ألا يدخل الخمر بين أضلاعه أبدا

أخبرني وكيع قال حدثنا المدائني قال ولي قيس بن عاصم على عهد رسول الله صدقات بني مقاعس والبطون كلها وكان الزبرقان بن بدر قد ولي صدقات عوف والأبناء فلما توفي رسول الله وقد جمع كل واحد من قيس والزبرقان صدقات من ولي صدقته دس إليه الزبرقان من زين له المنع لما في يده وخدعه بذلك وقال له إن النبي قد توفي فهلم نجمع هذه الصدقة ونجعلها في قومنا فإن استقام الأمر لأبي بكر وأدت العرب إليه الزكاة جمعنا له الثانية ففرق قيس الإبل في قومه فانطلق الزبرقان إلى أبي بكر بسبعمائة بعير فأداها إليه وقال في ذلك :

وَفَيْـــــتُ بِأَذوَادِ النَّـــــبِيّ محمـــــدٍ وكُنْـتُ امـرأً لا أُفْسِـدُ الـدِّينَ بالغَـدْرِ

فلما عرف قيس ما كاده به الزبرقان قال لو عاهد الزبرقان أمه لغدر بها.

أتى رسول الله فرحب به وأدناه

أخبرني عبيد الله بن مُحَمَّد الرازي أن قيس بن عاصم قال أتيت رسول الله فرحب بي وأدناني فقلت يا رسول الله المال الذي لا يكون علي فيه تبعة ما ترى في إمساكه لضيف إن طرقني وعيال إن كثروا علي فقال نعم المال الأربعون والأكثر الستون وويل لأصحاب المئين ثلاثا إلا من أعطى من رسلها وأطرق

فحلها وأفقر ظهرها ومنح غزيرتها وأطعم القانع والمعترح له يا رسول الله ما أكرم هذه الأخلاق إنه لا يحل بالوادي الذي أنا فيه من كثرتها قال فكيف تصنع في الإطراق قلت يغدو الناس فمن شاء أن يأخذ برأس بعير ذهب به قال فكيف تصنع في الإفقار فقلت إني لأفقر الناب المدبرة والضرع الصغيرة قال فكيف تصنع في المنيحة قلت إني لأمنح في السنة المائة قال إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت.

شعره في يوم جدود

وكان من حديث ذلك اليوم أن الحارث بن شريك بن عمرو الصلب بن قيس بن شراحيل بن مرة بن همام كانت بينه وبين بني يربوع موادعة ثم هم بالغدر بهم فجمع بني شيبان وبني ذهل واللهازم قيس بن ثعلبة وتيم الله بن ثعلبة وغيرهم ثم غزا بني يربوع فنذر به عتيبة بن الحارث بن شهاب بن شريك فنادى في قومه بني جعفر بن ثعلبة من بني يربوع فوادعه وأغار الحارث بن شريك على بني مقاعس وإخوتهم بني ربيع فلم يجيبوهم فاستصرخوا بني منقر فركبوا حتى لحقوا بالحارث بن شريك وبكر بن وائل وهم قائلون في يوم شديد الحر فما شعر الحوفزان إلا بالأهتم بن سمي بن سنان بن خالد بن منقر واسم الأهتم سنان وهو واقف على رأسه فوثب الحوفزان إلى فرسه فركبه وقال للأهتم من أنت فانتسب له وقال هذه منقر قد أتتك فقال الحوفزان فأنا الحارث بن شريك فنادى الأهتم يا آل سعد ونادى الحوفزان يا آل وائل وحمل كل واحد منهما على صاحبه ولحقت بنو منقر فاقتتلوا أشد قتال وأبرحه ونادت نساء بني ربيع يا آل سعد فاشتد قتال بني منقر لصياحهن فهزمت بكر بن وائل وخلوا من كان في أيديهم من بني مقاعس وما كان في أيديهم من أموالهم وتبعتهم بنو منقر بين قتل وأسر فأسر الأهتم حمران بن عبد عمرو وقصد قيس بن عاصم

الحوفزان ولم يكن له همة غيره والحارث على فرس له قارح يدعى الزبد وقيس على مهر فخاف قيس أن يسبقه الحارث فحفزه بالرمح في استه فتحفز به الفرس فنجا فسمي الحوفزان وأطلق قيس أموال بني مقاعس وبني ربيع وسباياهم وأخذ أموال بكر بن وائل وأساراهم وانتقضت طعنة قيس على الحوفزان بعد سنة فمات.

قال وأغار قيس بن عاصم أيضا على اللهازم فتبعه بنو كعب بن سعد بالنباج وثيتل فتخوف أن يكره أصحابه لقاء بكر بن وائل وقد كانوا يتناجون في ذلك فقام ليلا فشق مزادهم لئلا يجدوا بدا من لقاء العدو فلما فعل ذلك أذعنوا بلقائهم وصبروا له فأغار عليهم فكان أشهر يوم يوم ثيتل لبني سعد وظفر قيس بما شاء وملأ يديه من أموالهم وغنائمهم.

قال وأغار قيس أيضا ببني سعد على عبد القيس وكان رئيس بني سعد يومئذ سنان بن خالد وذلك بأرض البحرين فأصابوا ما أرادوا واحتالت عبد القيس في أن يفعل ببني تميم كما فعل بهم بالمشقر حين أغلق عليهم بابه فامتنعوا فقال في ذلك سوار بن حيان:

فيا لَك من أَيَّامِ صِدْقٍ أَعُدُّها كيومِ جُؤاثَى والنِّباجِ وَثَيْتَلا

وصيته لأبنائه حين حضرته الوفاة

أخبرنا هشام بن مُحَمَّد الخزاعي قال حدثنا دماذ عن أبي عبيدة وأخبرني عيسى بن الحسين الوراق قال حدثنا أحمد بن الهيثم بن عدي قال جمع قيس بن عاصم ولده حين حضرته الوفاة وقال يا بني إذا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فيسفه الناس كباركم وعليكم بإصلاح المال فإنه منبهة للكريم ويستغنى به عن اللئيم وإذا مت فادفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها وأصوم وإياكم

والمسألة فإنها آخر مكاسب العبد وإن امرأ لم يسأل إلا ترك مكسبه وإذا دفنتموني فأخفوا قبري عن هذا الحي من بكر بن وائل فقد كان بيننا خماشات في الجاهلية ثم جمع ثمانين سهما فربطها بوتر ثم قال اكسروها فلم يستطيعوا ثم قال فرقوا ففرقوا فقال اكسروها سهما سهما فكسروها فقال هكذا أنتم في الاجتماع وفي الفرقة ثم قال:

إنما المجدُ ما بَنَى والدُ الصِّدْق ... وأحيا فَعالَه المولودُ

وتَمامُ الفضلِ الشجاعةُ والحِلْمُ ... إذا زانَه عَفَافٌ وجُودُ

وثلاثون يا بَنِيَّ إذا ما ... جَمَعتْهم في النائباتِ العُهودُ

كثلاثين من قِدَاحٍ إذا ما ... شَدَّها للزمان قِدْحٌ شديد

لم تَكَسَّرْ وإن تَفرَّقتِ الأسْهُمُ ... أوْدَى بجمعِها التبديد

وذوو الحلمِ والأكابرُ أولَى ... أن يُرَى منكُمُ لهم تسويدُ

وعليكمْ حِفْظَ الأصاغر حتَّى ... يَبْلُغَ الحِنْثَ الأصغرُ المجهود

ثم مات فقال عبدة بن الطبيب يرثيه:

عليكَ سلامُ الله قَيْسَ بن عاصمٍ ... ورحمتُه ما شاء أن يَتَرَحَّما

تحيَّة من أوليته منك نعمةً ... إذا زار عن شَحْطٍ بلادَك سَلَّما

فما كان قَيْسٌ هُلْكُه هُلْكُ واحدٍ ... ولكنَّه بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّما

حرم الخمر على نفسه

أخبرني مُحَمَّد بن مزيد بن أبي الأزهر قال حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه قال

ذكر عاصم بن الحدثان وهشام بن الكلبي عن أشياخهما أن قيس بن عاصم المنقري سكر من الخمر ليلة قبل أن يسلم فغمز عكنة ابنته أو قال أخته فهربت منه فلما صحا منها فقيل له أو ما علمت ما صنعت البارحة قال لا فأخبروه بصنعه فحرم الخمر على نفسه وقال في ذلك:

وجـــدتُ الخمـــرَ جامحـــةً وفيهـــا ... خِصَـــالٌ تَفْضَـــحُ الرَّجُـــلَ الكريمـــا

فــــلاَ واللهِ أشْـــــرَبُهَا حَيـــــاتي ... ولا أدعـــــو لهــــا أبــــداً نَــــدِيمَا

ولا أُعْطِـــي بهــا ثمنــاً حيــاتي ... ولا أُشْـــفي بهــا أبـــداً ســـقِيما

فـــإنَّ الخمـــر تَفْضَـــحُ شَـــارِبِيها ... وتُجْشِـــمُهُمْ بهـــا أمـــراً عظيمـــا

إذا داراتْ حُمَيَّاهـــــــا تَعَلَّـــــــتْ ... طَوَالِـــعُ تُسْـــفِهُ الرَّجُـــلَ الحليمـــا

أخبرني مُحَمَّد بن مزيد عن حماد بن إسحاق عن أبيه عن عاصم بن الحدثان قال قال الزبرقان إن تاجرا ديافيا مر بحمل خمر على قيس بن عاصم فنزل به فقال قيس اصبحني قدحا ففعل ثم قال له زدني فقال له أنا رجل تاجر طالب ربح وخير ولا أستطيع أن أسقيك بغير ثمن فقام إليه قيس فربطه إلى دوحة في داره حتى أصبح فكلمته أخته في أمره فلطمها وخمش وجهها وزعموا أنه ارادها على نفسها وجعل يقول:

وتاجـــرٍ فـــاجرٍ جـــاء الإلـــهُ بـــه ... كَـــأَنَّ لِحْيَتَـــه أذنابُ أجمــــالِ

فلما أصبح قال من فعل هذا بضيفي قالت له أخته الذي صنع هذا بوجهي أنت والله صنعته وأخبرته بما فعل فأعطى الله عهداً ألا يشرب الخمر أبدا فهو أول عربي حرمها على نفسه في الجاهلية وهو الذي يقول:

فــواللهِ لا أحســو يَــدَ الــدَّهْرِ خمــرةً ... ولا شَــرْبةً تُــزْرِي بِــذِي اللُّــبِّ والفخــرِ

فكيــف أذوق الخمــر والخمــرُ لم تَــزَلْ ... بصـــاحِبِها حـــتى تَكَسَّـــعَ في الغَـــدْرِ

وصــارتْ بــه الأمثــالُ تُضْــرَبُ بَعْــدَما ... يكــونُ عميــدَ القــومِ في السِّــرِّ والجَهْــرِ

ويَبْـــذُرُهُمْ في كـــل أمـــرٍ يَنُـــوبُهم ... ويَعْصِــمُهم مــا نَابَهــم حــادثُ الــدَّهْرِ

فيا شارِب الصَّهْباء دَعْهَا لأهلها الغُواةِ ... وسَـــلِّمْ للجســـيم مـــن الأمـــرِ

فإنَّـــك لا تَـــدْري إذا مـــا شَـــرِبْتَها ... وأكثــرتَ منهــا مــا تَــرِيشُ ومــا تَــبْرِي

فارقته امرأته بعد أن أسلم

أخبرني مُحَمَّد بن خلف بن المرزبان قال حدثني أحمد بن منصور قال أخبرني أبو جعفر المباركي قال أخبرني المدائني عن مسلمة بن محارب قال قال الأحنف بن قيس ذكرت بلاغة النساء عند زياد فحدثته أن قيس بن عاصم أسلم وعنده امرأة من بني حنيفة فأبى أهلها وأبوها أن يسلموا وخافوا إسلامها فاجتمعوا إليها وأقسموا إنها إن أسلمت لم يكونوا معها في شيء ما بقيت فطالبت قيسا بالفرقة ففارقها فلما احتملت لتلحق بأهلها قال لها قيس أما والله لقد صحبتني سارة ولقد فارقتني غير عارة لا صحبتك مملولة ولا أخلاقك مذمومة ولولا ما اخترت ما فرق بيننا إلا الموت ولكن أمر الله ورسوله أحق أن يطاع فقالت له أنبئت بحسبك وفضلك وأنت والله إن كنت للدائم المحبة الكثير المودة القليل اللائمة المعجب الخلوة البعيد النبوة ولتعلمن أني لا أسكن بعدك إلى زوج فقال قيس ما فارقت نفسي شيئا قط فتبعته كما تبعتها.

أوصى بنيه بحفظ المال

وأوصى قيس بن عاصم بنيه فكان أكثر وصيته إياهم أن يحفظوا المال والعرب لا تفعل ذلك وتراه قبيحا وفيهم يقول الأخطل بن ربيعة بن النمر بن تولب:

يا منْقَــرُ بــنَ عُبَيْــدٍ إنَّ لُــؤمَكُمُ مُـذْ عَهْـدِ آدَمَ في الـدِّيوانِ مكتـوبُ

للضَّـيْفِ حَقٌّ على مَنْ كان ذا كرمٍ والضَّـيْفُ في مِنْقَـرٍ عُـرْيانُ مسـلوبُ

وقال النمر بن تولب يذكر تسميتهم الغدر كيسان في قصيدة هجاهم بها:

إذا ما دَعَـوْا كَيْسَـانَ كانتْ كُهُولُهُمْ إلى الغَـدْرِ أدْنَى مـن شَـبَابِهِمُ المُـرْدِ

قال وهذا شائع في جميع بني سعد إلا أنهم يتدافعونه إلى بني منقر وبنو منقر يتدافعونه إلى بني سنان بن خالد بن منقر وهو جد قيس بن عاصم.

وحكى ابن الكلبي أن النبي لما افتتح مكة قدمت عليه وفود العرب فكان فيمن قدم عليه قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم ابن عمه فلما صارا عند النبي تسابا وتهاترا فقال قيس لعمرو بن الأهتم والله يا رسول الله ما هم منا وإنهم لمن أهل الحيرة فقال عمرو بن الأهتم بل هو والله يا رسول الله من الروم وليس منا ثم قال له:

ظَلِلْــتَ مُفْــتَرِشَ الهَلْبــاء تَشْــتُمُني عنـد الرَّسول فلـم تَصْـدُقْ ولم تُصِـبِ

الهلباء يعيره بذلك وبأن عانته وافية:

إن تُبْغِضُـونا فـإنَّ الـرُّوم أصـلُكُمُ والـرُّوم لا تملِـك البغضـاءَ للعَـرَب

سُــدْنا فسُــودَدُنا عَــوْدٌ وسُــودَدُكُمْ مُـؤَخَّرٌ عنـد أصـل العَجْـبِ والـذَّنَبِ

قال وإنما نسبه إلى الروم لأنه كان أحمر فيقال إن النبي نهاه عن هذا القول في قيس وقال إن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليه و سلم كان أحمر فأجابه قيس بن عاصم فقال:

مَـا فِي بَـنِي الأَهْـتَمِ مِـن طائـلٍ   يُرْجَـى ولا خَـيْرٍ لَـهُ يَصْـلُحونْ

قُـلْ لبـني الحِـيريّ مخْصوصـةً   تُظْهِـرُ مـنهم بعـضَ مـا يَكْتُمُـونْ

لـولاَ دِفـاعي كنـتُمُ أَعْبُـداً   مَسْـكَنُها الحِـيرةُ فالسَّـيْلَحونْ

جـاءت بكـم عَفْـرةُ مـن أَرْضِـها   حِيرِيَّـةً ليسـت كمـا تزعُمـون

في ظـاهر الكَـفِّ وفي بَطنهـا   وَسْـمٌ مـن الـدَّاء الـذي تَكْتُمـون

ارتد عن الإسلام بعد وفاة النبي

وذكر علان أن قيسا ارتد بعد النبي عن الإسلام وآمن بسجاح وكان مؤذنها وقال في ذلك:

أضـحتْ نَبِيَّتُنـا أُنْثَـى نُطِيـفُ بهـا   وأصـبحتْ أنبيـاءُ الله ذُكْـرَانَا

قال ثم لما تزوجت سجاح بمسيلمة الكذاب الحنفي وآمنت به آمن به قيس معها فلما غزا خالد بن الوليد اليمامة وقتل الله مسيلمة أخذ قيس بن عاصم أسيرا فادعى عنده أن مسيلمة أخذ ابنا له فجاء يطلبه فأحلفه خالد على ذلك فحلف فخلى سبيله ونجا منه بذلك ..

وكان زيد الخيل الطائي خرج عن قومه وجاور بني منقر فأغارت عليهم بنو عجل وزيد فيهم فأعانهم وقاتل بني عجل قتالا شديدا وأبلى بلاء حسنا حتى انهزمت عجل فكفر قيس فعله وقال ما هزمهم غيري فقال زيد الخيل يعيره

ويكذبه في قصيدة طويلة:

ولستُ بوَقَّافٍ إذا الخيلُ أحْجمَتْ ولستُ بكَذَّابٍ كقَيْس بنِ عاصمِ

ومما روى قيس بن عاصم عن النبي حدثنا حامد بن محمد بن شعيب البلخي قال حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب قال حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان الثوري عن الأغر المنقري عن خليفة بن حصين بن قيس بن عاصم عن أبيه عن جده أنه أسلم على عهد النبي فأمره النبي عليه السلام أن يغتسل بماء وسدر.

٢٤
أخبار عبد الله بن الزبير ونسبه

عبد الله بن الزبير بن الأشيم بن الأعشى بن بجرة بن قيس بن منقذ بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة أخبرني بذلك أحمد عن الخراز عن ابن الأعرابي وهو شاعر كوفي المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية وكان من شيعة بني أمية وذوي الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم فلما غلب مصعب بن الزبير على الكوفة أتي به أسيرا فمن عليه ووصله وأحسن إليه فمدحه وأكثر وانقطع إليه فلم يزل معه حتى قتل مصعب ثم عمي عبد الله بن الزبير بعد ذلك ومات في خلافة عبد الملك بن مروان ويكنى عبد الله أبا كثير وهو القائل يعني نفسه:

فقالـــت مـــا فعلـــتَ أبا كثِـــير　　　أصـــح الـــودّأم أخلفـــتَ بَعـــدي

وهو أحد الهجائين للناس المرهوب شرهم.

قصته مع عبد الرحمن والي الكوفة

قال ابن الأعرابي كان عبد الرحمن بن أم الحكم على الكوفة من قبل خاله معاوية بن أبي سفيان وكان ناس من بني علقمة بن قيس بن وهب بن الأعشى بن بجرة بن قيس بن منقذ قتلوا رجلا من بني الأشيم من رهط عبد الله بن الزبير دنية فخرج عبد الرحمن بن أم الحكم وافدا إلى معاوية ومعه ابن الزبير ورفيقان له من بني أسد يقال لأحدهما أكل بن ربيعة من بني جذيمة بن مالك بن نصر بن قعين وعدي بن الحرث أحد بني العدان من بني نصر فقال عبد الرحمن بن أم

الحكم لابن الزبير خذ من بني عمك ديتين لقتيلك فأبى ابن الزبير وكان ابن أم الحكم يميل إلى أهل القاتل فغضب عليه عبد الرحمن ورده عن الوفد من منزل يقال له فياض فخالف ابن الزبير الطريق إلى يزيد بن معاوية فعاذ به فأعاذه وقام بأمره وأمره يزيد بأن يهجو ابن أم الحكم وكان يزيد يبغضه وينتقصه ويعيبه فقال فيه ابن الزبير قصيدة أولها قوله:

أبَى الليـــــلُ بالمَـــرَّان أن يتصـــــرَّما ... كـــأنِّيَ أَســـومُ العَـــينَ نومـــاً مُحرَّمـــا

ورُدَّ بثَنْيَيَـــــــه كـــــــأن نجومـــــــه ... صِـــوارٌ تنـــاهَى مـــن إرانٍ فقَوَّمـــا

إلى الله أشـــكو لا إلى النـــاس أنـــني ... أمَـــصّ بنـــاتِ الـــدر ثـــدياً مُصـــرَّماً

خبره مع عمرو بن عثمان بن عفان

حدثنا الحسن بن الطيب البلخي قال حدثني أبو غسان قال بلغني أن أول من أخذ بعينة في الإسلام عمرو بن عثمان بن عفان أتاه عبد الله بن الزبير الأسدي فرأى عمرو تحت ثيابه ثوبا رثا فدعا وكيله وقال اقترض لنا مالا فقال هيهات ما يعطينا التجار شيئا قال فأربحهم ما شاؤوا فاقترض له ثمانية آلاف درهم وثانيا عشرة آلاف فوجه بها إليه مع تخت ثياب فقال عبد الله بن الزبير في ذلك:

سأشـــكر عمـــراً إن تراخـــت منيَّـــتي ... أياديَ لم تُمْـــنَنْ وإن هـــي جَلّـــتِ

فتًى غير محجوبِ الغِنَى عن صديقِه ... ولا مُظهِرِ الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ

رأى خَلَّتي من حيثُ يخفَى مكانُها ... فكانت قَذَى عينيه حتى تجلَّت

ابن أم الحكم يحبسه في جناية

أخبرني عمي عن ابن مهرويه عن أبي مسلم عن ابن الأعرابي قال حبس ابن أم الحكم عبد الله بن الزبير وهو أمير في جناية وضعها عليه وضربه ضربا مبرحا لهجائه إياه فاستغاثت بأسماء بن خارجة فلم يزل يلطف في أمره ويرضي خصومه ويشفع إلى ابن أم الحكم في أمره حتى يخلصه فأطلق شفاعته وكساه أسماء ووصله وجعل له ولعياله جراية دائمة من ماله فقال فيه هذه القصيدة التي أولها الصوت المذكور بذكر أخبار ابن الزبير يقول فيها:

ألم تَــرَ أنَّ الجُــودَ أَرْسَــلَ فــانتَقَى ... حَلِيــفَ صــفاءٍ وأتَلَــى لا يُزايلُــهْ

تخــيَّر أسمــاء بــنَ حصــنٍ فبُطّنــتْ ... بفعـــل العُـــلا أيمانُـــهُ وشمائِلُـــهْ

ولا مجـــدَ إلا مجـــدُ أسمـــاءَ فوقَـــهُ ... ولا جَــرَى إلا جَــري أسمــاءَ فاضِــلُهْ

ومحتمــلٍ ضــغناً لأسمــاءَ لــو جــرى ... بسَــجْلَيْنِ مــن أسمــاءَ فــارت أَباجِلُــهْ

عَــوَى يســتجيشُ النابِحــاتِ وإنمــا ... بأنيابـــه صُـــمُّ الصَّـــفا وجنادِلُـــهْ

وأقصــرَ عــن مجــراةِ أسمــاء ســعيهْ ... حَسِيراً كما يلقى من التُّرب ناخِلُهْ

وفضَّــل أسمــاءَ بــنَ حِصــنٍ علــيهمُ ... سماحــةُ أسمــاء بــن حصــن ونائِلُــهْ

فَمَن مثلُ أسماءَ بن حصن إذا غَدَتْ ... شـــآبِيبُهُ أم أيُّ شـــيءٍ يُعادِلُـــهْ

قال فأعطاه أسماء حين أنشده هذه القصيدة ألفي درهم.

أسباب كراهية الشيعة لأسماء بن خارجة

أخبرني أحمد بن عيسى العجلي بالكوفة قال حدثنا سليمان بن الربيع البرجمي قال حدثنا مضر بن مزاحم عن عمرو بن سعد عن أبي مخنف عن عبد

الرحمن بن عبيد بن أبي الكنود وأخبرني الحسن بن علي قال حدثنا الحارث بن مُحَّد قال حدثنا ابن سعد عن الواقدي وذكر بعض ذلك ابن الأعرابي في روايته عن المفضل وقد دخل حديث بعضهم في حديث الآخرين أن المختار بن أبي عبيد خطب الناس يوما على المنبر فقال لتنزلن نار من السماء تسوقها ريح حالكة دهماء حتى تحرق دار أسماء وآل أسماء وكان لأسماء بن خارجة بالكوفة ذكر قبيح عند الشيعة يعدونه في قتلة الحسين عليه السلام لما كان من معاونته عبيد الله بن زياد على هانئ بن عروة المرادي حتى قتل وحركته في نصرته على مسلم بن عقيل بن أبي طالب وقد ذكر ذلك شاعرهم فقال:

أيركب أسماءُ الهماليجَ آمِناً وقد طلبتْه مَذْحِجٌ بقتيلِ

يعني بالقتيل هانئ بن عروة المرادي وكان المختار يحتال ويدبر في قتله من غير أن يغضب قيسا فتنصره فبلغ أسماء قول المختار فيه فقال أوقد سجع بي أبو إسحاق لا قرار على زأر من الأسد وهرب إلى الشام فأمر المختار بطلبه ففاته فأمر بهدم داره فما تقدم عليها مضري بتة لموضع أسماء وجلالة قدره في قيس فتولت ربيعة واليمن هدمها وكانت بنو تيم الله وعبد القيس مع رجل من بني عجل كان على شرطة المختار فقال في ذلك عبد الله بن الزبير:

تَأَوَّبَ عينَ ابنِ الزَّبير سُهودُها ووَلَّى على ما قد عراها هُجُودُها

كأنّ سواد العين أبطَنَ نخلةً وعاوَدَهَا مما تذكَّرُ عِيدُها

مخصَّرةً من نخل جَيْحَانَ صعبةً لَوَى بجناحيها وليدٌ يَصِيدُها

من الليل وهْناً أو شَظِيَّةَ سُنبلٍ أذاعت به الأرواحُ يُذرى حَصِيدُها

إذا طُرِفت أذرَتْ دموعاً كأنها نَثِيرُ جُمانٍ بانَ عنها فرِيدُها

وبــتُّ كــأنَّ الصـــدرَ فيـــه ذُبَالـــةٌ شَــبَا حَرَّهــا القِنــديل ذاكٍ وَقُودُهــا

فقلــتُ أناجــي الــنفسَ بيــني وبينهــا كـــذاك الليـــالي نحسُـــها وسُـــعودُها

وقال ابن مهرويه أخبرني به الحسن بن علي عنه حدثني عبد الله بن أبي سعد قال حدثني علي بن الصباح عن ابن الكلبي أن مصعب بن الزبير لما ولي العراق لأخيه هرب أسماء بن خارجة إلى الشام وبها يومئذ عبد الملك بن مروان قد ولي الخلافة وقتل عمرو بن سعيد وكان أسماء أموي الهوى فهدم مصعب بن الزبير داره وحرقها فقال عبد الله بن الزبير في ذلك "تأوَّب عين ابن الزبير سهودها..."

وذكر القصيدة بأسرها وهذا الخبر أصح عندي من الأول لأن الحسن بن علي حدثني قال حدثنا أحمد بن سعيد الدمشقي قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني عمي مصعب قال لما ولي مصعب بن الزبير العراق دخل إليه عبد الله بن الزبير الأسدي فقال له إيه يابن الزبير أنت القائل:

إلى رَجَـــب الســـبعينَ أو ذاك قبلَـــه تصـــبِّحكم حُمـــر المنـــايا وســـودُها

ثمـــانون ألفـــاً نصـــرُ مـــروانَ ديـــنهُم كتائـــبُ فيهـــا جَبْرَئيـــلُ يقودُهـــا

فقال أنا القائل لذلك وإن الحقين ليأبى العذرة ولو قدرت على جحده لجحدته فاصنع ما أنت صانع فقال أما إني ما أصنع بك إلا خيرا أحسن إليك قوم فأحببتهم وواليتهم ومدحتهم ثم أمر له بجائزة وكسوة ورده إلى منزله مكرما فكان ابن الزبير بعد ذلك يمدحه ويشيد بذكره فلما قتل مصعب بن الزبير اجتمع ابن الزبير وعبيد الله بن زياد بن ظبيان في مجلس فعرف ابن الزبير خبره وكان عبيد الله هو الذي قتل مصعب بن الزبير فاستقبله بوجهه وقال له:

أبا مطــر شَــلَّت يمــينٌ تفرَّعَــتْ   بسـيفك رأس ابـنِ الحَـوارِيِّ مصـعبِ

فقال له ابن ظبيان فكيف النجاة من ذلك قال لا نجاة هيهات سبق السيف العذل قال فكان ابن ظبيان بعد قتله مصعبا لا ينتفع بنفسه في نوم ولا يقظة كان يهول عليه في منامه فلا ينام حتى كل جسمه ونهك فلم يزل كذلك حتى مات.

أخبرني هاشم بن مُحَمَّد الخزاعي قال حدثني عيسى بن إسماعيل تينة وأخبرني عمي قال حدثنا الكراني قال حدثني عيسى بن إسماعيل عن المدائني عن خالد بن سعيد عن أبيه قال كان عبد الله بن الزبير صديقا لعمرو بن الزبير بن العوام فلما أقامه أخوه ليقتص منه بالغ كل ذي حقد عليه في ذلك وتدسس فيه من يتقرب إلى أخيه وكان أخوه لا يسأل من ادعى عليه شيئا بينة ولا يطالبه بحجة وإنما يقبل قوله ثم يدخله إليه السجن ليقتص منه فكانوا يضربونه والقيح ينتضح من ظهره وأكتافه على الأرض لشدة ما يمر به ثم يضرب وهو على تلك الحال ثم أمر بأن يرسل عليه الجعلان فكانت تدب عليه فتثقب لحمه وهو مقيد مغلول يستغيث فلا يغاث حتى مات على تلك الحال فدخل الموكل به على أخيه عبد الله بن الزبير وفي يده قدح لبن يريد أن يتسحر به وهو يبكي فقال له ما لك أمات عمرو قال نعم قال أبعده الله وشرب اللبن ثم قال لا تغسلوه ولا تكفنوه وادفنوه في مقابر المشركين فدفن فيها.

شعره لما حبسه زفر بن الحارث

وقال ابن الأعرابي عرض قوم من أهل المدراء لابن الزبير الأسدي في طريقه من الشام إلى الكوفة وقد نزل بقرقيسياء فاستعدوا عليه زفر بن الحارث الكلابي وقالوا إنه أموي الهوى وكانت قيس يومئذ زبيرية وقرقيسياء وما والاها في يد ابن

الزبير فحبسه زفر أياما وقيده وكان معه رفيق من بني أمية يقال له أبو الحدراء فرحل وتركه في حبسه أياما ثم تكلمت فيه جماعة من مضر فأطلق. فقال في ذلك.

أغـــادٍ أبـــو الحَـــدْراء أم مـــتروّحُ	كـــذاك النَّـــوى ممـــا تُجِـــدّ وتَمْـــزحُ
لعمـري لقـد كانـت بـلادٌ عريضـةٌ	لي الـرَّوْحُ فيهـا عنـك والمتسـرَّحُ
ولكنـه يـدنو البغيضُ ويبعـد الحبيبُ	وينـــأى في المَـــزارِ وينـــزَحُ
ألا ليـت شـعري هـل أتـى أمَّ واصـلٍ	كُبُـولٌ أَعَضُّـوهَا بسـاقَيَّ تَجْـرَحُ
إذا ما صرفتُ الكعبَ صاحت كأنها	صـريفُ خَطـاطِيفٍ بـدَلوين تَمْـتَحُ
تُبَغّـي أباهـا في الرفـاق وتنثـني	وألْـوَى بـه في لجَّـةِ البحـر تمْسَـحُ
أمـر تَحِـلّ وفـدُ العـراقِ وغُـودِرت	تَحِـنُّ بأبـوابِ المدينـةِ صَـيْدَحُ
فإنـكِ لا تـدرين فيمـا أصـابني	أَريثُـك أم تعجيـلُ سـيرِك أنجَـحُ
أَظَـنَّ أبـو الحـدراء سَـجنى تجـارةً	ترجَّـى ومـا كـل التجـارة تُـرْبِحُ

أخبرني مُحَمَّد بن عمران الصيرفي قال حدثنا الحسن بن عليل قال حدثني مُحَمَّد بن معاوية الأسدي قال لما قدم الحجاج الكوفة واليا عليها صعد المنبر فخطبهم فقال يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق إن الشيطان قد باض وفرخ في صدوركم ودب ودرج في حجوركم فأنتم له دين وهو لكم قرين (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) ثم حثهم على اللحاق بالمهلب بن أبي صفرة وأقسم ألا يجد منهم أحدا اسمه في جريدة المهلب بعد ثالثة بالكوفة إلا قتله فجاء عمير بن ضابئ البرجمي فقال أيها الأمير إني شيخ لا فضل في ولي

ابن شاب جلد فاقبله بدلا مني فقال له عنبسة بن سعيد بن العاص أيها الأمير هذا جاء إلى عثمان وهو مقتول فرفسه وكسر ضلعين من أضلاعه وهو يقول:

أين تركتَ ضابئاً يا نَعْثَلُ ...

فقال له الحجاج فهلا يومئذ بعثت بديلا يا حرسي اضرب عنقه وسمع الحجاج ضوضاء فقال ما هذا فقال هذه البراجم جاءت لتنصر عميرا فيما ذكرت فقال أتحفوهم برأسه فرموهم براسه فولوا هاربين فازدحم الناس على الجسر للعبور إلى المهلب حتى غرق بعضهم فقال عبد الله بن الزبير الأسدي:

أقـــول لإبـــراهيمَ لمّـــا لقيتُـــهُ ... أرى الأمــر أمســى واهيــاً متشــعبَا

تخــيرْ فإمــا أن تــزور ابــنَ ضــابِئٍ ... عمـــيراً وإمَّـــا أن تـــزور المهلَّبَـــا

همـا خُطَّتـا خَسْـفٍ نَجـاؤك منهمـا ... ركوبُـكَ حَوْلِيّـاً مــن الـثلجِ أشــهبا

فَأَضْحَى ولو كانت خُراسانُ دونَهُ ... رآهـا مكـان السَّـوقِ أو هـي أقـربا

خبره مع الحجاج بن يوسف

أخبرني عمي قال حدثنا الكراني قال حدثنا العمري عن الهيثم بن عدي عن عبد الله بن عياش قال أخبرني مشيخة من بني أسد أن ابن الزبير الأسدي لما قفل من قتال الأزارقة صوب بعث إلى الري قال فكنت فيه وخرج الحجاج إلى القنطرة يعني قنطرة الكوفة التي بزبارة ليعرض الجيش فعرضهم وجعل يسأل عن رجل رجل من هو فمر به ابن الزبير فسأله من هو فأخبره فقال أنت الذي تقول:

تَخَيَّــرْ فإمــا أن تــزورَ ابــنَ ضــابِئٍ ... عُمَـــيْراً وإمَّـــا أَنْ تـــزورَ المُهَلَّبَـــا

قال بلى أنا الذي أقول:

ألم تَـــرَ أنِّي قـــد أَخَـــذْتُ جَعِيلـــةً وكنـتُ كمَـنْ قـاد الجَنيـبَ فأسمَحـا

فقال له الحجاج ذلك خير لك فقال:

وَأَوقَـدَتِ الأعـداء يا مَـيَّ فـاعلَمِي بكـلِّ شَـرًى ناراً فَلَـمْ أَرَ مُجْمَحَـا

فقال له الحجاج قد كان بعض ذلك فقال:

ولا يَعـدَم الـدَّاعي إلى الخـير تابعـاً ولا يَعْـدَم الـداعي إلى الشَّـرِّ مُجْـدَحَا

فقال له الحجاج إن ذلك كذلك فامض إلى بعثك فمضى إلى بعثه فمات بالري.

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني عمي قال لما ولي عبد الرحمن بن أم الحكم الكوفة مدحه عبد الله بن الزبير فلم يثبه وكان قدم في هيئة رثة فلما اكتسب وأثرى بالكوفة تاه وتجبر فقال ابن الزبير فيه:

تبقَّلْـــت لمـــا أن أَتيـــتَ بلادَكُـــمْ وفي مصـرنا أنـت الهمـام القَلَمَّـسُ

ألســـتَ ببغـــل أمّـــه عربيـــة أبـوك حمـار أدبـرُ الظهـر يُـنخَسُ

قال وكان بنو أمية إذا رأوا عبد الرحمن يلقبونه البغل وغلبت عليه حتى كان يشتم من ذكر بغلا يظنه يعرض به.

أخبرني عمي قال حدثنا الكراني عن العمري عن العتبي قال لما قتل عبد الله بن الزبير صلب الحجاج جسده وبعث برأسه إلى عبد الملك فجلس على سريره وأذن للناس فدخلوا عليه فقام عبد الله بن الزبير الأسدي فاستأذنه في الكلام

فقال له تكلم ولا تقل إلا خيرا وتوخ الحق فيما تقوله فأنشأ يقول:

مشى ابن الزبير القَهْقَرَى فتقدمت ... أميَّةُ حتَّى أحرزوا القَصَبَاتِ

وجئتَ المجَلِّى يابنَ مروان سابقاً ... أمامَ قريش تنفُض العُذُرَاتِ

فلا زلتَ سبّاقاً إلى كلِّ غايَةٍ ... من المَجْدِ نَجَّاءً من الغَمَرَاتِ

قال فقال له أحسنت فسل حاجتك فقال له أنت أعلى عينا بها وأرحب صدرا يا أمير المؤمنين فأمر له بعشرين ألف درهم وكسوة ثم قال له كيف قلت فذهب يعيد هذه الأبيات فقال لا ولكن أبياتك في المحل في وفي الحجاج التي قلتها فأنشده:

كأني بعبد اللهِ يركب رَدْعَهُ ... وفيه سنان زاعبِيٌّ مُحَرَّبُ

وقد فرَّ عنه الملحِدُونَ وحلَّقَتْ ... به وبمن آساهُ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

تولَّوا فخلَّوه فشالَ بشِلوه ... طويل من الأجذاع عارٍ مشذَّبُ

بِكَفِّي غلام من ثقيفٍ نَمَتْ به ... قريش وذو المجدِ التليدِ مُعَتّبُ

فقال له عبد الملك لا تقل غلام ولكن همام وكتب له إلى الحجاج بعشرة آلاف درهم أخرى والله أعلم.

لجوؤه إلى معاوية

وقال النضر في كتابه هذا لما هرب ابن الزبير من عبد الرحمن بن أم الحكم إلى معاوية أحرق عبد الرحمن داره فتظلم منه وقال أحرق لي دارا قد قامت علي بمائة ألف درهم فقال معاوية ما أعلم بالكوفة دارا أنفق عليها هذا القدر فمن يعرف صحة ما ادعيت قال هذا المنذر بن الجارود حاضر ويعلم ذلك فقال

معاوية للمنذر ما عندك في هذا قال إني لم آبه لنفقته على داره ومبلغها ولكني لما دخلت الكوفة وأردت الخروج عنها أعطاني عشرين ألف درهم وسألني أن أبتاع له بها ساجا من البصرة ففعلت فقال معاوية إن دارا اشتري لها ساج بعشرين ألف درهم لحقيق أن يكون سائر نفقتها مائة ألف درهم وأمر له بها فلما خرجا أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم أي الشيخين عندكم أكذب والله إني لأعرف داره وما هي إلا خصاص قصب ولكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فنخدع فجعلوا يعجبون منه.

٢٥

أخبار ديك الجن ونسبه

ديك الجن لقب غلب عليه واسمه عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن يزيد بن تميم وكان جده تميم ممن أنعم الله عز و جل عليه بالإسلام من أهل مؤتة على يدي حبيب بن مسلمة الفهري وكان شديد التشعب والعصبية على العرب يقول ما للعرب علينا فضل جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم صلى الله عليه و سلم وأسلمنا كما أسلموا ومن قتل منهم رجلا منا قتل به ولم نجد الله عز و جل فضلهم علينا إذ جمعنا الدين.

وهو شاعر مجيد يذهب مذهب أبي تمام والشاميين في شعره من شعراء الدولة العباسية وكان من ساكني حمص ولم يبرح نواحي الشام ولا وفد إلى العراق ولا إلى غيره منتجعا بشعره ولا متصديا لأحد وكان يتشيع تشيعا حسنا وله مراثٍ كثيرة في الحسين بن علي عليهما السلام منها قوله:

يا عـــينُ لا لِلقَضَـــا ولا الكُتُـــبِ   بُكَـا الـرَّزَايَا سِـوَى بُكَـا الطَّـرَب

وهي مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها وله عدة أشعار في هذا المعنى وكانت له جارية يهواها فاتهمها بغلام له فقتلها واستنفد شعره بعد ذلك في مراثيها.

هجاؤه ابن عمه

قال أبو الفرج ونسخت خبره في ذلك من كتاب مُحَمَّد بن طاهر أخبره بما فيه ابن أخ لديك الجن يقال له أبو وهب الحمصي قال كان عمي خليعا ماجنا

معتكفا على القصف واللهو متلافا لما ورث عن آبائه واكتسب بشعره من أحمد وجعفر ابني علي الهاشميين وكان له ابن عم يكنى أبا الطيب يعظه وينهاه عما يفعله ويحول بينه وبين ما يؤثره ويركبه من لذاته وربما هجم عليه وعنده قوم من السفهاء والمجان وأهل الخلاعة فيستخف بهم وبه فلما كثر ذلك على عبد السلام قال فيه:

مَولاتُنـــا يا غـــلامُ مُبْتَكِـــرَهْ   فبـــاكِرِ الكـــأسَ لي بـــلا نَظِـــرَه

غَـدَتْ علـى اللهـو والمجـونِ علـى   أن الفتـــاةَ الحَيِيَّـــةُ الخَفِـــرَهْ

لِحُبِّهـــا لا عَـــدِمْتُها حُـــرَقٌ   مطويَّـــةٌ في الحَشَـــا ومُنْتَشِـــرَهْ

مـــا ذُقْـــتُ منهـــا ســـوى مُقَبَّلِهـــا   وضَـــمّ تلـــك الفُـــروعِ مَنْحَـــدِرَهْ

وانْتَهَـــرَتْني فَمِـــتُّ مـــن فَـــرَقٍ   يا حُسْـــنَها في الرِّضـــا ومُنْتَهِـــرَهْ

ثم انثنـــتْ سَـــوْرَةُ الخُمـــار بنـــا   خِـــلال تلـــك الغَـــدائرِ الخَمِـــرَهْ

وليلـــةٍ أشـــرفتْ بَكَلْكَلِهـــا   عَلَـــيَّ كالطَّيْلَســـان مُعْتَجِـــرَهْ

فَتَقْـــتُ دَيْجُورَهـــا إلى قَمَـــرٍ   أثوابُـــهُ بالعَفَـــافِ مُسْـــتَتِرَهْ

عُـــجْ عَـــبَرَاتِ المُـــدام نحـــوِيَ مِـــن   عَشْـــرٍ وعِشْـــرين واثنَـــتَيْ عَشَـــرَهْ

قـــد ذُكـــرَ النـــاسُ عـــن قِيـــامِهِمُ   ذِكْـرى بعَقْلـي مـا أصبحَتْ نَكِـرَهْ

مَعْـــرفتي بالصـــوابِ مَعْرِفَـــةٌ   غَـــرَّاءُ إمَّـــا عَـــرَفْتُمُ النَّكِـــرهْ

يا عجبـــاً مـــن أبي الخبيـــثِ ومِـــنْ   سُـــرُوحِه في البَقَـــائر الـــدَّثِره

يَحْمِـــلُ رأســـاً تنبـــو المَعـــاوِلُ عـــن   صَـــفْحته والجلامِـــدُ الـــوَعِرَه

لَــوِ البِغــالُ الكُمْــتُ ارتقــتْ سَــنَداً فِيـــهِ لَمَـــدَّتْ قَوائمـــاً خَـــدِرَهْ

ولا المَجَـــــانِيقُ فِيـــــهِ مُغْنِيــــــةٌ ألـــفٌ تَسَــامَى وأَلـــفُ مُنْكَـــدِرَهْ

أنظـر إلى موضـعِ المِقَـصِّ مـن الهامَـةِ تلــــك الصَّـــــفيحةُ العَجِـــــرَهْ

فلَــوْ أخــذتمْ لهــا المَطَــارِقَ حَرّانِيَّـةً صَـــــنْعةَ اليَـــــدِ الخَـــــبِرَهْ

إذاً لراحـــــتْ أَكُـــــفُّ جِلَّـــتِهِمْ كَلِيلـــــــةً والأداةُ مُنْكَسِـــــــرَهْ

كَـــمْ طَـــرَباتٍ أَفْسَـــدْتَهُنَّ وكَـــمْ صَـــفْوةِ عَـــيْشٍ غادرتَهـــا كَـــدِرَهْ

وكَــمْ إذَا مــا رَأَوْكَ يا مَلَــكَ الْمَــوْتِ لهـــم مِــــنْ أَنامِــــلٍ خَصِــــرَهْ

وكَــمْ لهــم دَعْــوة عليــكَ وكَــمْ قَذْفـــةِ أُمٍّ شَـــنْعاءَ مُشْـــتَهِرَهْ

كريمـــةٍ لؤمُـــك اســـتخفَّ بهـــا وناهـــا بالمَثالِـــبِ الأشِـــرَهْ

قِفُــوا علــى رَحْلِــه تَــرَوْا عَجَبــاً في الجَهْـلِ يَحكِـي طَرائِـفَ البَصـرَهْ

يا كُـــلَّ مَـــنْيٍ وكـــلَّ طَالعـــةٍ نَحْــسٍ ويا كُــلَّ ســاعةٍ عَسِــرَهْ

سبحانَ مَنْ يُمْسِكُ السماءَ على الأرض وفيهـــا أخلاقُـــك القَـــذِرَهْ

خبره مع زوجه ورد

قال وكان عبد السلام قد اشتهر بجارية نصرانية من أهل حمص هويها وتمادى به الأمر حتى غلبت عليه وذهبت به فلما اشتهر بها دعاها إلى الإسلام ليتزوج بها فأجابته لعلمها برغبته فيها وأسلمت على يده فتزوجها وكان اسمها وردا ففي ذلك يقول:

انظــر إلى شمــسِ القُصــورِ وبَــدْرِها وإلى خُزَامَاهـــا وبَهْجَـــةِ زَهْرِهــــا

لم تَبْــلُ عينُــك أبيضـــاً في أســـوَدٍ جَمَــع الجمــالَ كوَجْهِهــا في شَــعْرِها

وَرْدِيَّـــةُ الوَجَنـــات يَخْتَـــبِرُ اسمَهـــا مــن رِيقِهــا مَــنْ لا يُحِـيط بخُبْرِهــا

وتمايلــتْ فضَــحِكْتُ مــن أَردافِهــا عَجَبــاً ولكـــنّي بَكَيْـــتُ لِخَصْـــرِها

تَسْــقيك كــأْسَ مُدَامــةٍ مــن كَفِّهــا وَرْدِيَّـــةٍ ومُدامـــة مـــن ثَغْرِهـــا

قال وكان قد أعسر واختلت حاله فرحل إلى سلمية قاصدا لأحمد بن علي الهاشمي فأقام عنده مدة طويلة وحمل ابن عمه بغضه إياه بعد مودته له وإشفاقه عليه بسبب هجائه له على أن أذاع على تلك المرأة التي تزوجها عبد السلام أنها تهوى غلاما له وقرر ذلك عند جماعة من أهل بيته وجيرانه وإخوانه وشاع ذلك الخبر حتى أتى عبد السلام فكتب إلى أحمد بن علي شعرا يستأذنه في الرجوع إلى حمص وبعلمه ما بلغه من خبر المرأة من قصيدة أولها:

إنَّ رَيْـــبَ الزمـــان طـــال انتكاثُـــه كَـــمْ رمتـــني بحـــادثٍ أحداثُـــهْ

ومدح أحمد بعد هذا وهي طويلة فأذن له فعاد إلى حمص وقدر ابن عمه وقت قدومه فأرصد له قوما يعلمونه بموافاته باب حمص فلما وافاه خرج إليه مستقبلا ومعنفا على تمسكه بهذه المرأة بعد ما شاع من ذكرها بالفساد وأشار عليه بطلاقها وأعلمه أنها قد أحدثت في مغيبه حادثة لا يجمل به معها المقام عليها ودس الرجل الذي رماها به وقال له إذا قدم عبد السلام ودخل منزله فقف على بابه كأنك لم تعلم بقدومه وناد باسم ورد فإذا قال من أنت فقل أنا فلان فلما نزل عبد السلام منزله وألقى ثيابه سألها عن الخبر وأغلظ عليها فأجابته جواب من لم يعرف من القصة شيئا فبينما هو في ذلك إذ قرع الرجل

الباب فقال من هذا فقال أنا فلان فقال لها عبد السلام يا زانية زعمت أنك لا تعرفين من هذا الأمر شيئا ثم اخترط سيفه فضربها به حتى قتلها وقال في ذلك:

ليتَـني لم أكُـنْ لِعَطْفِـكِ نِلْـتُ — وإلى ذلـك الوِصـالِ وصـلتُ

فالـذي مـنِّيَ اشـتملت عليـه — أَلِعَـارٍ مـا قَـدْ عليـهِ اشـتملتُ

قال ذو الجهل قد حَلُمْتَ ولا أَعْلَمُ — أَنِّي حَلُمْـتُ حـتى جَهِلْـتُ

لائمٌ لي بجهلـه ولمـاذا — أنا وَحْـدي أحببـتُ ثم قتلـتُ

سوف آسَى طولَ الحياة وأبكيكِ — علـى مـا فعلـت لا مـا فعلـتُ

قال وبلغ السلطان الخبر فطلبه فخرج إلى دمشق فأقام بها أياما وكتب أحمد بن علي إلى أمير دمشق أن يؤمنه وتحمل عليه بإخوانه حتى يستوهبوا جنايته فقدم حمص وبلغه الخبر على حقيقته وصحته واستيقنه فندم ومكث شهرا لا يستفيق من البكاء ولا يطعم من الطعام إلا ما يقيم رمقه وقال في ندمه على قتلها:

يا طلعـةً طلـع الحِمـامُ عليهـا — وجَـنَى لهـا ثَمَـرَ الـرَّدَى بِيَـدَيْهَا

رَوَّيْـتُ مـن دَمِهـا الثَّـرَى ولطالَمـا — رَوَّى الهـوى شَـفَتَيَّ مـن شَـفَتَيْها

قـد بات سَـيْفِي في مَجَـال وشـاحِها — ومَـدامِعِي تجـري علـى خَـدَّيْها

فوَحَـقِّ نَعْلَيْهـا ومـا وطـئ الحَصَـى — شـيءٌ أَعَـزُّ عَلَـيَّ مـن نَعْلَيْهـا

مـا كـان قَتْلِيهـا لأني لم أكُـنْ — أبكِـي إذا سَـقَطَ الـذُّبابُ عليهـا

لكـنْ ضَـنَنْتُ علـى العيـون بحُسْـنها — وأنِفْـتُ مـن نَظَـر الحسـودِ إليهـا

وهذه الأبيات تروى لغير ديك الجن أخبرني بها مُحَّد بن زكريا الصحاف قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثني مُحَّد بن منصور قال كان من غطفان رجل يقال له السليك بن مجمع وكان من الفرسان وكان مطلوبا في سائر القبائل بدماء قوم قتلهم وكان يهوى ابنة عم له وكان خطبها مدة فمنعها أبوها ثم زوجه إياها خوفا منه فدخل بها في دار أبيها ثم نقلها بعد أسبوع إلى عشيرته فلقيه من بني فزارة ثلاثون فارسا كلهم يطلبه بذحل فحلقوا عليه وقاتلهم وقتل منهم عددا وأثخن بالجراح آخرين وأثخن هو حتى أيقن بالموت فعاد إليها فقال ما أسمح بك نفسا لهؤلاء وإني أحب أن أقدمك قبلي قالت افعل ولو لم تفعله أنت لفعلته أنا بعدك فضربها بسيفه حتى قتلها وأنشأ يقول:

يا طلعة طلع الحمام عليها ...

وذكر الأبيات المنسوبة إلى ديك الجن ثم نزل إليها فتمرغ في دمها وتخضب به ثم تقدم فقاتل حتى قتل وبلغ قومه خبره فحملوه وابنة عمه فدفنوهما قال وحفظت فزارة عنه هذه الأبيات فنقلوها قال وبلغني أن قومه أدركوه وبه رمق فسمعوه يردد هذه الأبيات فنقلوها وحفظوها عنه وبقي عندهم يوما ثم مات.

٢٦
أخبار حبابة

كانت حبابة مولدة من مولدات المدينة لرجل من أهلها يعرف بابن رمانة وقيل ابن مينا وهو خرجها وأدبها وقيل كانت لآل لاحق المكيين وكانت حلوة جميلة الوجه ظريفة حسنة الغناء طيبة الصوت ضاربة بالعود وأخذت الغناء عن ابن سريج وابن محرز ومالك ومعبد وعن جميلة وعزة الميلاء وكانت تسمى العالية فسماها يزيد لما اشتراها حبابة. وقيل إنها كانت لرجل يعرف بابن مينا.

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال وكانت حبابة لرجل يدعى ابن مينا فأدخلت على يزيد بن عبد الملك في إزار له ذنبان وبيدها دف ترمي به وتتلقاه وتتغنى :

ما أَحْسَنَ الجِيدَ من مُلَيكةَ واللبَّاتِ إذْ زانَهَا ترائبُها

يا ليتني ليلةً إذَا هجع النَاسُ ونام الكلاب صاحبُها

في ليلةٍ لا يُرَى بها أحدٌ يسعَى علينا إلاّ كواكبها

ثم خرج بها مولاها إلى إفريقية فلما كان بعد ما ولي يزيد اشتراها.

وروى حماد عن أبيه عن المدائني عن جرير المديني ورواه الزبير بن بكار عن إسماعيل بن أبي أويس عن أبيه قال قال لي يزيد بن عبد الملك ما تقر عيني بما أوتيت من الخلافة حتى أشتري سلامة جارية مصعب بن سهيل الزهري وحبابة جارية لاحق المكية فأرسل فاشتريتا له فلما اجتمعتا عنده قال أنا الآن كما قال

القائل:

فألقَتْ عصاها واستقرَّت بها النوى كما قَرَّ عيناً بالإِيابِ المسافرُ

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا هارون بن مُحَّد بن عبد الملك الزيات قال حدثني الزبير بن بكار قال أخبرني مُحَّد بن سلمة عن ابن مافنه عن شيخ من أهل ذي خشب قال خرجنا نريد ذا خشب ونحن مشاة فإذا قبة فيها جارية وإذا هي تغني :

سلكوا بطنَ مَحِيصٍ ثم ولَّوْا راجعينا

أورثونِي حِينَ وَلَّوْا طُولَ حُزْنٍ وأَنينا

قال فسرنا معها حتى أتينا ذا خشب فخرج رجل معها فسألناه وإذا هي حبابة جارية يزيد فلما صارت إلى يزيد أخبرته بنا فكتب إلى والي المدينة يعطي كل واحد ألف درهم. وروى حماد بن إسحاق عن أبيه عن المدائني وخبره أتم أن حبابة كانت تسمى العالية وكانت لرجل من الموالي بالمدينة فقدم يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان فتزوج سعدة بنت عبد الله بن عمرو ابن عثمان على عشرين ألف دينار وربيحة بنت مُحَّد بن علي بن عبد الله بن جعفر على مثل ذلك واشترى العالية بأربعة آلاف دينار فبلغ ذلك سليمان فقال لأحجرن عليه، فبلغ يزيد قول سليمان فاستقال مولى حبابة ثم اشتراها بعد ذلك رجل من أهل إفريقية فلما ولي يزيد اشترتها سعدة امرأته وعلمت أنه لا بد طالبها ومشتريها فلما حصلت عندها قالت له هل بقي عليك من الدنيا شيء لم تنله فقال نعم العالية فقالت هذه هي وهي لك فسماها حبابة وعظم قدر سعدة عنده.

وقيل إن أم الحجاج أم الوليد بن يزيد هي التي ابتاعتها له وأخذت عليها ذلك فوفت لها بذلك هكذا ذكر الزبير فيما أخبرنا به الحسن بن علي بن هارون عن عمه قال ومن زعم أن سعدة اشترتها فقد أخطأ وقال المدائني ثم خطب يزيد إلى أخيها خالد بنت أخ له فقال أما يكفيه أن سعدة عنده حتى يخطب إلى بنات أخي وبلغ يزيد فغضب فقدم عليه خالد يسترضيه فبينا هو في فسطاطه إذ أتته جارية لحبابة في خدمها فقالت له أم داود تقرأ عليك السلام وتقول لك قد كلمت أمير المؤمنين فرضي عنك فالتفت فقال من أم داود فأخبره من معه أنها حبابة وذكر له قدرها ومكانها من يزيد فرفع رأسه إلى الجارية فقال قولي لها إن الرضا عني بسبب لست به فشكت ذاك إلى يزيد فغضب وأرسل إلى خالد فلم يعلم بشيء حتى أتاه رسول حبابة به فيمن معه من الأعوان فاقتلعوا فسطاطه وقلعوا أطنابه حتى سقط عليه وعلى أصحابه فقال ويلكم ما هذا قالوا رسل حبابة هذا ما صنعت بنفسك فقال ما لها أخزاها الله ما أشبه رضاها بغضبها.

وقال فيها الشعراء فأكثروا وغنى في أشعارهم المغنون من أهل مكة والمدينة وبلغ ذلك يزيد فاستشنعه فقال هذا قبل رحلتنا وقد هممنا فكيف لو ارتحلنا وتذكر القوم شدة الفراق وبلغه أيضاً أن سليمان قد تكلم في ذلك فردها ولم تزل في قلبه حتى ملك فاشترتها سعدة امرأته العثمانية ووهبتها له.

أخبرني ابن عمار قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثني إسحاق قال حدثني أبو ذفافة المنهال بن عبد الملك عن مروان بن بشر بن أبي سارة مولى الوليد بن يزيد قال أول ما ارتفعت به منزلة حبابة عند يزيد أنه أقبل يوماً إلى البيت الذي هي فيه فقام من وراء الستر فسمعها تترنم وتغني وتقول :

كـــان لي يا يزيـــدُ حبُّـــكَ حَيْنـــا ... كـــاد يقضـــي علـــيَّ لمـــا التقينـــا

والشعر كان يا شقير فرفع الستر فوجدها مضطجعة مقبلة على الجدار فعلم أنها لم تعلم به ولم يكن ذاك لمكانه فألقى نفسه عليها وحركت منه.

قال المدائني غلبت حبابة على يزيد وتبنى بها عمر بن هبيرة فعلت منزلته حتى كان يدخل على يزيد في أي وقت شاء وحسد ناس من بني أمية مسلمة بن عبد الملك على ولايته وقدموا فيه عند يزيد وقالوا إن مسلمة إن اقتطع الخراج لم يحسن يا أمير المؤمنين أن تفتشه أو تكشفه عن شيء لسنه وحقه وقد علمت أن أمير المؤمنين لم يدخل أحداً من أهل بيته في الخراج فوقر ذلك في قلب يزيد وعزم على عزله وعمل ابن هبيرة في ولاية العراق من قبل حبابة فعملت له في ذلك. وكان بين ابن هبيرة وبين القعقاع بن خالد عداوة وكانا يتنازعان ويتحاسدان فقيل للقعقاع لقد نزل ابن هبيرة من أمير المؤمنين منزلة إنه لصاحب العراق غداً فقال ومن يطيق ابن هبيرة حبابة بالليل وهداياه بالنهار مع أنه وإن بلغ فإنه رجل من بني سكين فلم تزل حبابة تعمل له حتى وليها.

نسبة ما في هذا الخبر من الغناء:

يا مُوقِـد النـار بالعَلْيـاء مـن إضَـمِ ... أوقِدْ فقد هِجْتَ شوقاً غيرَ منْصرِمِ

يا مُوقِـدَ النـار أوقِـدْها فـإنَّ لهـا ... سَـناً يَهـيج فـؤادَ العاشِـق السّـدِمِ

أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثني علي بن القاسم بن بشير قال لما غلب يزيد بن عبد الملك أهله وأبى أن يسمع منهم كلموا مولى له خراسانياً ذا قدر عندهم وكانت فيه لكنة فأقبل على يزيد يعظه وينهاه عما قد ألح عليه من السماع للغناء والشراب فقال له يزيد فإني أحضرك هذا الأمر الذي تنهى عنه فإن نهيتني عنه بعد ما تبلوه وتحضره انتهيت وإني

مخبر جواري أنك عم من عمومتي فإياك أن تتكلم فيعلمن أني كاذب وأنك لست بعمي ثم أدخله عليهن فغنين والشيخ يسمع ولا يقول شيئاً حتى غنين:

وقــد كنــتُ آتــيكُمْ بِعِلّــةِ غــيركُمْ فأفنيْــتُ عِــلاّتي فكيــف أقــولُ

فطرب الشيخ وقال لا قيف جعلني الله فداكن يريد لا كيف فعلمن أنه ليس عمه وقمن إليه بعيدانهن ليضربنه بها حتى حجزهن يزيد عنه ثم قال له بعدما انقضى أمرهن ما تقول الآن أدعُ هذا أم لا قال لا تدعه.

قال حماد بن إسحاق حدثني أبي عن المدائني وأيوب بن عباية قالا كانت سلامة المتقدمة منهما في الغناء وكانت حبابة تنظر إليها بتلك العين فلما حظيت عند يزيد ترفعت عليها فقالت لها سلامة ويحك أين تأديب الغناء وحق التعليم أنسيت قول جميلة لك خذي أحكام ما أطارحك إياه من سلامة فلن تزالي بخير ما بقيت لك وكان أمركما مؤتلفا.

قال المدائني وكانت حبابة إذا غنت وطرب يزيد قال لها أطير فتقول له فإلى من تدع الناس فيقول إليك والله تعالى أعلم.

أخبرني إسماعيل بن يونس قال حدثني أيوب بن عباية أن البيذق الأنصاري القارئ كان يعرف حبابة ويدخل عليها بالحجاز فلما صارت إلى يزيد بن عبد الملك وارتفع أمرها عنده خرج إليها يتعرض لمعروفها ويستميحها فذكرته ليزيد وأخبرته بحسن صوته قال فدعاني يزيد ليلة فدخلت عليه وهو على فرش مشرفة قد ذهب فيها إلى قريب من ثدييه وإذا حبابة على فرش أخر مرتفعة وهي دونه فسلمت فرد السلام وقالت حبابة يا أمير المؤمنين هذا أبي وأشارت إلي بالجلوس فجلست وقالت لي حبابة اقرأ يا أبت فقرأت فنظرت إلى دموعه تنحدر ثم قالت إيه يا أبت حدث أمير المؤمنين وأشارت إليّ أن غنه فاندفعت في صوت

ابن سريج (من لِصَبِّ مفنَّدِ ... هائمِ القلبِ مُقْصَدِ) فطرب والله يزيد فحذفني بمدهن فيه فصوص من ياقوت وزبرجد فضرب صدري فأشارت إليّ حبابة أن خذه فأخذته فأدخلته كمي فقال يا حبابة ألا ترين ما صنع بنا أبوك أخذ مدهننا فأدخله في كمه فقالت يا أمير المؤمنين ما أحوجه والله إليه ثم خرجت من عنده فأمر لي بمائة دينار.

٢٧

أخبار سلم الخاسر ونسبه

سلم بن عمر ومولى بن تيمْ بن مرة ثم مولى أبي بكر الصديق رضوان الله عليه بصري شاعر مطبوع متصرف في فنون الشعر من شعراء الدولة العباسية وهو راوية بشار بن برد وتلميذه وعنه أخذ ومن بحره اغترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر ولقب سلم بالخاسر فيما تعال لأنه ورث من أبيه مصحفاً فباعه واشترى بثمنه طنبوراً وقيل بل خلف له أبوه مالا فأنفقه على الأدب والشعر فقال له بعض أهله إنك لخاسرُ الصفقة فلقب بذلك وكان صديقاً لإبراهيم الموصلي ولأبي العتاهية خاصة من الشعراء والمغنين ثم فسد ما بينه وبين أبي العتاهية وكان سلم منقطعاً إلى البرامكة وإلى الفضل بن يحي خصوصاً من بينهم وفيه يقول أبو العتاهية (إنما الفضل لِسَلْمٍ وحدَه ... ليس فيه لسوى سَلْمٍ دَرَكْ) وكان هذا أحد الأسباب في فساد ما بينه وبين أبي العتاهية ولسلم يقول أبو العتاهية وقد حج مع عتبة:

والله واللهِ مـــــا أُبالي مـــــتى ... مامــتُّ يا سَــلْمُ بعْــدَ ذا الســفَرِ

أليس قد طُفْتُ حيث طافت وَقّبلتُ ... الــذي قبلَــتْ مــن الحجــر

وله يقول أبو العتاهية وقد حبس إبراهيم الموصلي:

سَــلْمُ يا ســلم لــيس دونــك سْــرُّ ... حُــبس الموصــليُّ فــالعيش مُــرُّ

ما استطاب اللذاتِ مذ سَكَن المُطبقَ ... رأْسُ اللـــــذات واللهِ حُـــــرّ

تَــرَكَ الموصــليُّ مَــن خَلَــق اللهُ جميعـــاً وعيشـــهم مُقْشـــعِرّ

سلم ولقبه

أخبرني الحسن بن علي قال حدثني مُحَمَّد بن القاسم بن مهرويه قال حدثني علي بن الحسن الواسطي قال حدثني أبو عمرو سعيد بن الحسن الباهلي الشاعر قال لما مات عمرو أبوسلم الخاسر اقتسموا ميراثه فوقع في قسط سلم مصحف فرده وأخذ مكانه دفاتر شعر كانت عند أبيه فلقب الخاسر بذلك.

قال مُحَمَّد بن عمر الجرجاني قال ورث سلم الخاسر أباه مائة ألف درهم فأنفقها على الأدب وبقي لا شيء عنده فلقبه الجيران ومن يعرفه بسلم الخاسر وقالوا أنفق ماله على ما لا ينفعه ثم مدح المهدي أو الرشيد وقد كان بلغه اللقب الذي لقب به فأمر له بمائة ألف درهم وقال له كذب بهذا المال جيرانك فجاءهم بها وقال لهم هذه المائة الألف التي أنفقتها وربحت الأدب فأنا سلم الرابح لا سلم الخاسر.

باع مصحفه ليشتري طنبورا

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال حدثني علي بن مُحَمَّد النوفلي عن أبيه قال إنما لقب سلم الخاسر لأنه ورث عن أبيه مصحفاً فباعه واشترى بثمنه طنبوراً.

أخبرني مُحَمَّد بن العباس اليزيدي قال حدثني عمر الفضل قال قال لي الجماز سلم الخاسر خالي لحاً فسألته لم لقب الخاسر فضحك ثم قال إنه قد كان نسك مدة يسيرة ثم رجع إلى أقبح ما كان عليه وباع مصحفاً له ورثه عن أبيه وكان لجده قبله واشترى بثمنه طنبوراً فشاع خبره وافتضح فكان يقال له ويلك هل فعل أحد ما فعلت فقال لم أجد شيئاً أتوسل به إلى إبليس هو أقر لعينه من

هذا.

سرق معنى بيت لبشار فغضب عليه

فبلغ بيته بشاراً فغضب واستشاط وحلف ألا يدخل إليه ولا يفيده ولا ينفعه مادام حيا فاستشفع إليه بكلِّ صديق له وكل من يثقل عليه رده فكلموه فيه فقال أدخلوه إلي فأدخلوه إليه فاستدناه ثم قال إيه يا سلم من الذي يقول:

مـن راقـب النـاسَ لم يظْفَـر بَحاجتـه　　　وفـاز بالطّيبـات الفاتـكُ اللهِـجُ

قال أنت يا أبا معاذ قد جعلني الله فداءك قال فمن الذي يقول:

مـن راقـب النـاس مـات غمّـا　　　وفـاز باللـذة الجسـورُ

قال تلميذك وخريجك وعبدك يا أبا معاذ فاجتذبه إليه وقنعه بمخصَرة كانت في يده ثلاثاً وهو يقول لا أعود يا أبا معاذ إلى ما تنكره ولا آتي شيئا تذُمه إنما أنا عبدك وتلميذك وصَنيعتك وهو يقول له يا فاسق أتجيء إلى معنى قد سهرت له عيني وتعب فيه فكري وسبقت الناس إليه فتسرقه ثم تختصره لفظاً تقربه به لتزري علي وتذهب بيتي وهو يحلف له إلا يعود والجماعة يسألونه فبعد لأي وجهد ما شفعهم فيه وكف عن ضربه ثم رجع له ورضي عنه.

خبره مع أبي العتاهية

أخبرني محمد بن يحيى الصولي حدثنا محمد بن موسى قال أخبرني محمد بن إسماعيل السدوسي قال حدثني جعفر العاصمي وأخبرني عمي عن أحمد بن أبي طاهر عن القاسم بن الحسن عن زكريا بن يحيى المدائني عن علي بن المبارك القضاعي عن سلم الخاسر أن أبا العتاهية لما قال هذا الشعر فيه كتب إليه:

مـا أَقـبحَ التزهيـدَ مِـنْ واعـظٍ　　　يُزَهِّـدُ النـاسَ ولا يَزْهَـدُ

لـــو كـــان في تزهيـــدِه صـــادقاً أَضـــحى وأَمســـى بيتَـــه المســـجدُ

ورفَـــــضَ الـــــدنيا ولم يَلْقَهـــــا ولم يكـــــن يســـــعى ويسْـــــتَرْفِدُ

يخـــــاف أن تنفـــــدَ أرزاقُـــــه والـــــرزقُ عنـــــد الله لا ينفَـــــدُ

الــرِّزقُ مقســوم علــى مَــنْ تَــرَى ينالُـــــه الأبـــــيض والأســـــودُ

كُــــلٌّ يُــــوفَّى رزقَــــه كــــاملاً مَــنْ كــفّ عــن جهــد وَمــن يَجْهــدُ

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا ابن مهرويه قال حدثني أبو العسكر المسمعي وهو محمَّد بن سلميان قال حدثني العباس بن عبد الله بن سنان بن عبد الملك بن مسمع قال كنا عند قثم بن جعفر بن سليمان وهو يومئذ أمير البصرة وعنده أبو العتاهية ينشده شعره في الزهد فقال لي قثم يا عباس اطلب لي الجماز الساعة حيث كان فجئني به ولك سبق فطلبته فوجدته جالساً ناحية عند ركن دار جعفر بن سليمان فقلت له أجب الأمير فقام معي حتى أتى قثم فجلس في ناحية مجلسه وأبو العتاهية ينشده ثم قام إليه الجماز فواجهه وأنشد قول سلم الخاسر فيه.

مــا أقــبح التزهيــدَ مــن واعــظٍ يُزَهِّـــــــدُ النـــــــاسَ ولا يَزْهَـــــــدُ

لـــو كـــان في تزهيـــدِه صـــادقاً أضـــحى وأمســـى بيتَـــه المســـجدُ

وذكر الأبيات كلها فقال أبو العتاهية من هذا أعز الله الأمير قال هذا الجماز وهو ابن أخت سلم الخاسر انتصر لخاله منك حيث قلت له:

تعـــالَى اللهُ يا ســـلم بـــنَ عمـــرو أذلّ الحـــرصُ أعنـــاق الرجـــالِ

قال فقال أبو العتاهية للجماز يا بن أخي إني لم أذهب في شعري الأول

حيث ذهب خالك ولا أردتُ أن أهتف به ولا ذهبت أيضاً في حضوري وإنشادي حيث ذهبت من الحرص على الرزق والله يغفر لكما ثم قام فانصرف.

ترفهه عندما يأتي المهدي

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا مُحَمَّد بن القاسم بن مهرويه قال حدثني علي بن مُحَمَّد النوفلي قال سمعت أبي يقول كان المهدي يعطي مروان وسلماً الخاسر عطية واحدة فكان سلم يأتي باب المهدي على البرذون الفأره قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولجام مفضضين ولباسه الخز والوشي وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه ويجيء مروان بن أبي حفصة عليه فرو كبل وقميص كرابيس وعمامة كرابيس وخفاً كبل وكساء غليظ وهو منتن الرائحة وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم إليه بخلاً فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقال له قائل أراك لا تأكل إلا الرأس قال نعم أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا أشتري لحماً فيطبخه فيأكله منه والرأس آكل من هـ ألواناً آكل منه عينيه لوناً ومن غلصمته لوناً ومن دماغه لوناً.

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا مُحَمَّد بن القاسم بن مهرويه قال حدثنا يحيى بن الحسن الربيعي قال أخبرني أبي قال كان سلم الخاسر قد بلي بالكيمياء فكان يذهب بكل شيء له باطلاً فلما أراد الله عز و جل أن يصنع له عرف أن بباب الشام صاحب كيمياء عجيباً وأنه لا يصل إليه أحد إلا ليلاً فسأل عنه فدلوه عليه قال فدخلت إليه إلى موضع معور فدققت الباب فخرج إلي فقال من أنت عافاك الله فقلت رجل معجب بهذا العلم قال فلا تشهرني فإني رجل مستور إنما أعمل للقوت قال قلت إني لا أشهرك إنما أقتبس منك قال فاكتم ذلك قال وبين يديه كوز شبه صغير فقال لي اقلع عروته فقَلعتها فقال اسبكها

في البوطقة فسبكتها فأخرج شيئاً من تحت مصلاه فقال ذره عليه ففعلت فقال أفرغه فأفرغته فقال دعه معك فإذا أصبحت فاخرج فبعه وعد إلي فأخرجته إلى باب الشام فبعت المثقال بأحد وعشرين درهماً ورجعت إليه فأخبرته فقال اطلب الآن ما شئت قلت تفيدني قال بخمسمائة درهم على أن لا تعلمه أحداً فأعطيته وكتب لي صفة فامتحنتها فإذا هي باطلة فعدت إليه فقيل لي قد تحول وإذا عروة الكوز المشبه من ذهب مركبة عليه والكوز شبه ولذلك كان يدخل إليه من يطلبه ليلاً ليخفي عليه فانصرفت وعلمت أن الله عز و جل أراد بي خيراً وأن هذا كله باطل.

الفهرس